قواعد في توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات لفضيلة الشيخ وليد السعيدان

مقدمة:

الحمد لله حمد الشاكرين، والشكر لله شكر المعترفين المقصرين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الصادق الأمين -صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه- الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فهذا شرح لقواعد مهمة تتعلق بالموضوع الذي من أجله خلقنا الله - تبارك وتعالى- وهو موضوع التوحيد، وسوف نتكلم (تأصيلا وتفصيلا) عن قواعد أقسامه الثلاثة إن شاء الله: وهي:

القسم الأول: قواعد توحيد الربوبية، وما يتعلق به من القواعد، والمسائل، وهي في قرابة ثمانين قاعدةً.

القسم الثاني: قواعد توحيد الألوهية، وما يتعلق به من القواعدِ: الضوابط، والمسائل، وهي ست وتسعون قاعدة.

القسم الثالث: قواعد الأسماء والصفات عند أهل السنة والجماعة، وهي ثلاثون قاعدة.

وهذه القواعد قواعد كثيرة، ولعلنا نأتي عليها كلها بإذن الله -عز وجل-، إن يسر الله -عز وجل- لنا الأمر وإلا فنأخذ منها ما تيسر، وأشترط على نفسي إن شاء الله -عز وجل- ألا نخرج من قاعدة إلا وقد أتممنا شرحها بالمقدور عليه سواء استدلالًا أو تفريعا.

وإن طلب العلم على طريقة التأصيل والتقعيد من أهم مهمات طالب العلم التي لا ينبغي أن يحجب عنها ذهنه، فعلى الطالب أن يحرص في مسيرته العلمية على

استجماع القواعد والأصول والضوابط في الأبواب كلها؛ لأن الإنسان بهذه الطريقة يستفيد بعدة فوائد:

الفائدة الأولى:

بأنه يحيي طريقة القرآن والسنة في التعليم، فإن القرآن والسنة جريا على تعليم الأحكام على طريقة التأصيل والتقعيد، ولذلك لا تجد في القرآن ذكر معالجة الأمور والوقائع بأعيانها وأسماء أصحابها، لا، وإنما يتكلم القرآن عن القواعد والضوابط؛ لذلك إذا راجعت باب الأكل كله وجدته كله يقع تحت جزء آية في قول الله -عز وجل-: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾[الأعراف:157].

الفائدة الثانية:

اختصار الزمان يا طلبة العلم في الطلب؛ فإنك لو ذهبت تتعلم العلوم الشرعية على طريقة التفريع والتفصيل لطال بك الزمان، لكن إذا تعلمتها على طريقة التأصيل فإنك سوف تختصر الزمان عليك في الطلب.

الفائدة الثالثة:

حماية العقل من كثرة التشوّش بالفروع والجزئيات، فإن كثير من الناس حافظتهم متوسطة، فلو أنه أعملها أو أشغلها في كثرة طلب الجزئيات والفروع لضاعت عليه تلك الحافظة، لكن عليه أن يحفظ القواعد والأصول وأن يضبطها وأن يتقن التخريج عليها، حينئذ يستطيع أن يحفظ عقله من التشوّش ومن الاضطراب والحيرة، فإن كثرة الفروع يجعل آخرها ينسي أولها.

أما القواعد فهي ذات ألفاظ يسيرة ومختصرة وهي قواعد محصورة ومعدودة فيستطيع الإنسان أن يتعرف على حكم مئة فرع في جلسة واحدة بضبط قاعدة واحدة فقط، فكم من الفروع التي تندرج تحت قاعدة (الأمور بمقاصدها)، أو (المشقة تجلب التيسير)؟ فروع كثيرة فلا تنشغلوا يا طلبة العلم بالفروع والجزئيات وتتركوا القواعد، انتبهوا للقواعد، انتبهوا للأصول.

إذا جئت إلى علم العقيدة فتأتي إلى أصوله وجذوره.

وإذا جئت إلى علم الفقه اطلبه من أصوله وقواعده وجذوره، وإذا جئت إلى المصطلح اطلبه من جذوره وقواعده وأصوله حتى تكون عالمًا راسخًا في هذا الفن.

وبما أن هذه القواعد كثيرة، ولو أفردنا كل قاعدة منها بالشرح، والتفصيل لما كفتها هذه الدورة، أحببت أن تكون هذه المجالس عبارة عن رسائل بريدية صغيرة، عبارة عن تغريدات لا تتجاوز ذكر القاعدة، وشيء من شرحها، مع شيءٍ من أدلتها فقط.

نسأل الله أن ينفعنا، وإيّاكُم بها، وأن يُفَقهنا في ديننا، وأن يرزقنا العمل بما علَّمنا، ونقل هذا العلم لمن هو محتاج له، وأن يرزقني وإياكم الإخلاص في القول، والعمل، وألا يُجعل علينا وبالًا.

ونبدأ مستعينين بالله -عزّ وجل- في هذه القواعد بقواعد توحيد الربوبية، ثم بقواعد توحيد الألوهية، ثم بقواعد الأسماء والصفات، فأسأل الله أن يعينني على حسن الطرح وحسن الشرح وأن يعينكم على حسن الاستقبال والفهم.

قواعـــد
توحيــد الربوبيــة

1. حقيقة التوحيد: هو الجمع بين النفي والإثبات، وهي واضحة.

يقول العلماء: لأنَّ الإثبات وحده لا يمنع المشاركة، ولأنَّ النفيَ وحده تعطيلٌ محض؛ فالتوحيد ليس هو الإثبات فقط، وليس هو النفي فقط، وإنَّما حقيقةُ التوحيد هي الجمع بين النفي والإثبات.

فتنفي ثم تُثبِت، فإذا أردت أن توَحد أحدًا بشيءٍ معين؛ فلا يكفى في توحيدهِ بهذا الشيء أنْ تُثبت له هذا الشيء فقط، ولا يكفي أن تنفي عنه هذا الشيء فقط، بل لابُدَّ من النفي، والإثبات كقولنا مثلًا: **"لا خالق إلا الله"** هذا توحيد الله بصفه الخلق، لكن لو قلنا: **"لا خالق"** فهذا تعطيل محض.

وكذلك إذا قلنا: **"الله هو الخالق"**؛ فهذا لا يمنع أن يكون هناك خالق آخر، لكن إذا قلنا: **"لا خالق إلا الله"** هذا هو حقيقة التوحيد **"لا مالك إلا الله"** هذا حقيقة التوحيد.

"لا محيي إلا الله" هذا حقيقه التوحيد، إذًا حقيقة التوحيد الذى يقوم عليها التوحيد كله بأقسامه الثلاثة هو الجمع بين النفي، والإثبات، واللهُ أعلم..

2. التوحيد أساس العمل، وأصله.

ومعناها أنَّ: الله-عزَّ وجل- لا يقبلُ شيئاً من الأعمال إلا إذا كان قائمًا على ساقِ التوحيد، والعقيدة الصحيحة الصافية؛ فأيُّ عمل يقوم به الانسان لم يُبن على عقيدةٍ صحيحة، وتوحيد صافٍ؛ فإنَّ الله يجعلهُ هباءًا منثورا.

ودليلُ ذلك قول الله-تبارك وتعالى-: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا**﴾ [الفرقان:23]؛ فأثبت الله -عزّ وجل- أن لهم أعمالًا، ولكنه قدِم إلى هذه الأعمال؛ فجعلها كلا شيءَ، لمَ؟ الجواب: لأنهم بنوا هذه الأعمال على غير أساسٍ من التوحيد صحيح، وقال الله-عزّ وجل-: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾ [الكهف:103-105].

فأثبت الله أن لهم أعمالًا، واجتهادًا، وهم يحسبون بهذه الأعمال أنهم من أحسن الناس صنعًا، وتقرُّبًا، وتعبُدًا، ولكنَّ الله -عزّ وجل- يجعلها يوم القيامة هباءً منثورًا لا تنفع أصحابها، فإن قلت: ولِمَ؟ نقول: لأنهم لم يبنوا هذه الأعمال على توحيد صحيح، وإنَّما بنوه على الكفر بالله-تبارك وتعالى-.

وقد أجمع العلماء -رحمهم الله وتعالى- على أن جميع التعبُّدات من شرط قبولها التوحيد الصحيح؛ فأي عبادات بُنيت على غير توحيد صحيح؛ فالله لا يقبلها، والله أعلم...

3. التوحيد أولُ واجبٍ، وآخرُ واجبٍ.

ومعنى ذلك أنَّ أول ما يدخل به العبد في دين الله-عزَّ وجل- إنمَّا هو النطق بالتوحيد؛ فلا يُحكم على الإنسان بأنَّهُ مسلمٌ إلاَّ إذا جاء بكلمة التوحيد، وبرهانًا على ذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**» [1].

وفي صحيح مسلم عن طارق بن أشيم رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم- قال:«**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله، ودمه، وحسابه على الله**»[2]. وقد أجمع أهل السُنة، والجماعة على أنَّ أول الواجبات على العبد هو التوحيد، وقد خالف أهل البدع في ذلك؛ فمنهم من قال: إنَّ أول واجبٍ هو الشك، أو القصد إلى الشك، أو النظر التدبر، والتأمل، وكلها

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} [التوبة: 5] (14/1) برقم (25)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله (51/1) برقم (20).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله (53/1) برقم (23).

أقوالٌ جرت على خلاف الحق، وما قررَّته الأدلة.

بل الحقُّ هو ما قرره أهل السُنة من أنَّ أول واجب هو: التوحيد، ولذلك أن الأنبياء أول ما يأمرون به أُممهم من الشرائع إنَّما هو التوحيد.

قال نوح لقومه:﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ [الأعراف:59]، وكذلك سائِرُ الأنبياء، والرسل من بعده-عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم- وكذلك سائر الأنبياء، والرسل، أي: أن التوحيد آخر ما يجب على العبد النطق به قبل مماته.

فإن من مات على التوحيد فإنه يعتبر من أهل الجنة، إما ابتداءًا، وإما انتقالًا؛ فلا يخلّد في النار أحد، ومعه أصل التوحيد، ومات على التوحيد، وبرهانه حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبيّ-صلى الله عليه وسلم- قال: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[1].

ولذلك أُمر من حضر المحتضر أمرَ وجوب أن يلَّقنه التوحيد كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد-رضى الله عنهما- قال: رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**» [2].

وفى الحديث الآخر من صحيح مسلم من حديث عثمان-رضى الله عنه- قال: قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة**»[3]، وفى الصحيح أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله**

[1] أخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب الجنائز، باب في التلقين، ت: الأرنؤوط (34/5) برقم (3116)، وقال الأرنؤوط: "حديث صحيح".

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب تلقين الموتى: لا إله إلا الله (631/2) برقم(916).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، (55/1) برقم (26).

بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة»[1]. والله أعلم.

4. الانتسابُ إلى الصالحين لا ينتفع به صاحبهُ إلاَّ بالتوحيد، والإيمان، وهذا مُجمعٌ عليه بينَ أهل العلم.

فأيُّ إنسان كان قريبًا من الصالحين إما قُربَ انتسابٍ، وقرابة، أو قُربَ صحبة؛ فإن مُجرد هذه القرابة لا ينتفع بها، لا في الدنيا، ولا في الآخرة ما لم تكن مبنية على توحيدٍ، وإيمان صحيح صافيٍ، وبرهانهُ قول الله-عزّ وجلّ-: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي في الدين، ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [الطلاق:10]، والأدلة في هذا كثيرة.

ومنها أيضًا ابن نوح يقول الله -عزّ وجل- في شأنه أن نوحاً قال له: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[هود:43].

إلى أن قال الله-عزَّ وجل- عن نوح: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود:45-46]؛ الآية بتمامها؛ فلم يشفع لامرأة نوح، وامرأة لوط، وابن نوح أنَّهم من أقارب الأنبياء.

وفى صحيح الإمام البخاري من حديث أبى هريرة-رضى الله عنه- قال: قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: على الصفا حين أنزل الله -عزّ وجل- عليه قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:214] قال: «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (55/1) برقم(27).

عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها»[1]. أو كما قال -صلى الله عليه وسلم.

وفي صحيح الإمام البخاري من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه وأرضاه - قال: «**يَأْخُذُ رَجُلٌ بِيَدِ أَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرِيدُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، فَيُنَادَى: أَلَا إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا مُشْرِكٌ، قَالَ: فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَبِي، قَالَ: فَيُحَوَّلُ فِي صُورَةٍ قَبِيحَةٍ، وَرِيحٍ مُنْتِنَةٍ، فَيَتْرُكُهُ**»[2].

قال أبو سعيد: كُنَّا نحدِّث أنَّه إبراهيم، وأبوه، ولم يدلنا النبي-صلى الله عليه وسلم-على ذلك، يعني والد إبراهيم آذر لم يشفع له ابنه إبراهيم أنهُ سيد الأنبياء.

إذًا القرابة إذا لم تُبن على توحيدٍ، وإيمان؛ فلا تنفع صاحبها يوم القيامة.

وفي صحيح الإمام مسلم من حديث أنس رضي الله عنه، أن رجلا قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «**في النار**»، فلما قفى دعاه، فقال: «**إن أبي وأباك في النار**»[3].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هُريرة-رضى الله عنه- قال النبي-صلى الله عليه وسلم -: «**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[4]. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة-رضى الله عنه- قال: (**قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم**

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء: 214] (192/1) برقم (204).

[2] أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب الخوف والتقوى، ذكر الإخبار بأن الانتساب إلى الأنبياء لا ينفع في الآخرة ولا ينتفع المنتسب إليهم إلا بتقوى الله والعمل الصالح، (411/2) برقم(645).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار، ولا تناله شفاعة، ولا تنفعه قرابة المقربين (191/1) برقم (203).

[4] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (2074/4) برقم (2699).

ذات يوم، فذكر الغلول، فعظمه وعظم أمره، ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك» [1].

إذًا القرب وحدها من الصالحين لا ينفع بلا توحيدٍ، أو إيمان.

5. لا تعدُّدية في التوحيد والعقائد، بمعنى أنَّنا لا نقبلُ مذاهب عقائدية شتى، إنَّما الدين عند الله-عزّ وجل- واحد، وهو ما جاء به محمدٌ -صلى الله عليه وسلم-.

فلا يقبلُ اللهُ -عزّ وجل- من الأعمال، والتعبُدات، والعقائد إلاَّ ما كان متفقًا مع هذا الدين العظيم؛ فنحنُ لا نقبل وجود أشاعرة، ولا إباضية، ولا خوارج، ولا جهمية، ولا معتزلة، ولا كلابية، ولا ماتريدية، ولا رافضة، ولا غيرهم من الطوائف.

ولا حقَّ لأحدٍ أن يُلزِمنا بأنْ نقبل الطرف الاخر إذا كانت التعددية في العقائد؛ فالطرف الآخر مرفوض عندنا بدلالة الكتاب والسُنة، والإجماع، أمَّا التعدّدية الفقهية؛ فهي مقبولة؛ فكون المذاهب تكون مالكيةً، أوشافعيةً، أوحنبليةً، أو حنفيةً؛

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الغلول (74/4) برقم (3073)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول (1461/3) برقم (1831).

فالأمر فيها واسعٌ، ولله الحمد.

لكن التعددية مرفوضة، ولكن نقول هذا دائمًا؛ لأننا سمعنا بعض الدعاوى الشاذة لا كثَّر الله من أهلها يريدون منَّا أن نقبل الطرف الآخر، وأن نتعايش معه مع أنَّهُ يخالفنا في مسائل توحيدية، وعقائدية قد يخرجُ بها عن دائرة الإسلام بالكلية، ويقولون: لكم دينكم، ولهم دينهم، ولا شأن لكم به؛ فهذا عندنا مرفوض؛ لقول الله -عزّ وجل-: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران:85]، ومن أدلتها أيضًا قول الله-عزّ وجل-: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ﴾ [آل عمران:19]؛ فيُفهم من هذا أنَّ أولئك الأديان لا يقبلهم الله-عزّ وجل- إلاَّ هذا الدين.

وفى صحيح مسلم من حديث أبي هريرة-رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»[1].

وروى أبو داود، والترمذي، وأحمد، وغيرهم بطرقٍ شتى من حديث معاوية-رضى الله عنه- قال: قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة -زاد ابن يحيى وعمرو في حديثيهما:- وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه -وقال عمرو: "الكلب بصاحبه- لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله**»[2].

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته (134/1) برقم (153).

[2] أخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب السنة، باب شرح السنة، ت: الأرنؤوط (6/7) برقم (4597), والترمذي في سننه، أبواب الإيمان، ت: بشار (323/4) برقم (2641)، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، والإمام أحمد في مسند الشاميين، من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله

وهو حديث يصح بمجموع طرقه، وفى رواية هم الجماعة، وفى رواية هم الناجية أي أهل السنة و الجماعة؛ فقضت الأدلة على من خالف المذهب الحق (التوحيد الصحيح، والعقيدة السليمة) أنهم من أهل النار؛ فلو كانت التعددية العقدية مقبولة لما استوجب المخالفون هذه العقوبة، والله أعلم.

6. الربوبية: توحيدُ الله بأفعاله.

وهذا هو تعريف توحيد الربوبية، وهو أوَّل قواعدهِ.

وذلك لأنَّ العلماء مجمعون على أنَّ الله-عزّ وجل- تصدر منه أفعالٌ؛ فالإحياءُ فِعلهُ، والإماتة فِعلُهُ، والتقدير فِعلُهُ، والرَّزق فِعلهُ، والإضلال فِعلُهُ، والهداية فِعلُهُ، والإعزاز، والإذلال فِعلُهُ، والإعطاء، والمنع فِعلهُ.

كلُّ هذا يعتبر من فِعل الله-عز وجل- فالواجب عليك كعبد خلقك الله-عزّ وجل- في هذه الدنيا أن توحِّد الله-عزّ وجل- بالأفعال الصادرة منه.

فتوحيدك له بأفعاله، واعتقاد عدم مُشاركة أحد له فيها، هو توحيد الربوبية، فتوحيد الربوبية: هو توحيد الله-عزّ وجل- بأفعاله، فتقول: لا مُعطيَ إلاَّ الله، لا مانع إلاَّ الله، لا مالك إلاَّ الله، لا خالق إلاَّ الله، لا مُتصرِّف إلاَّ الله، وإلى غير ذلك من سائر أفعاله -تبارك وتعالى-.

وأمَّا توحيد الألوهية؛ فستأتينا قواعده: بأنَّ توحيد الله بالأفعال التي تصدر منا؛ فتوحيدك لله بفعلك أنت ألوهية، وتوحيدك لله بفعله هو ربوبية.

7. لا ربَّ إلاَّ الله.

يقول الله-عزّ وجل-: ﴿**اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾ [النساء:1]، ويقول الله-عزّ وجل-: ﴿**ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ**﴾

عنهما، (134/28) برقم (16937)، وقال الأرنؤوط: "إسناده حسن كلما قال الحافظ في "تخريج أحاديث الكشاف". وحديث افتراق الأمة منه صحيح بشواهده".

[الأنعام:102]، وقال -عزّ وجل-:﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس:3]، وقال الله-عزّ وجل-: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:3].

وقال الله عز وجل عن نوح عليه-الصلاة والسلام-: إنه قال لقومه: ﴿لَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود:34]، وقال الله-عزّ وجل-: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:92]، وفي آيةٍ أخرى:﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:52].

وقال الله-عزّ وجل-: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:13]، قال الله-عزّ وجل-:﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات:126]؛ فلا رب لنا في هذا العالم إلا الله -تبارك وتعالى- وهذه واضحة والله أعلم.

8. لا مالك للأشياء على الحقيقة إلاَّ الله.

حتى وإنْ وُصف المخلوق بأنَّه يملك هذا الشيء؛ فإنَّما هو ملكٌ عارية، واستخلاف، ليس مِلكًا حقيقيًا.

إنَّما الذى يملك الأشياء، والأعيان، والأزمنة، والأمكنة، وكل شيء على الحقيقة إنَّما هو الله-تبارك وتعالى-.

قال الله-عزّ وجل-: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [فاطر:13]، فقدَّم ما حقه التأخير، والمتقرر عند العلماء أنَّ تقديم ما حقّه التأخير يقتضي الحصر، أي: لا مالك إلاَّ الله - تبارك وتعالى-، وقال الله-عزّ وجل-: ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن:1]، وقال الله-عزّ وجل-:﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر:6]، وقال الله عز وجل- أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:13]، والآيات بهذا المعنى كثيرة.

فإن قلت: أوليس المخلوق يوصف بأنه يملك الأشياء التي تحت يده؟ فنقول: بلى، ولكن ثمة فروق عظيمة بين الملك الذي ينسب لله، والملك الذى يُنسب للمخلوق.

فأمَّا الملك الذى يُنسب لله: فهو الملك المطلق الشامل الكامل العام من كل شيء، وأمَّا الملك الذى ينسب للمخلوق: فهو مطلق الملك لبعض الأشياء دون بعض.

فأنت تملك ما في يدك، ولكن لا تملك ما في يدي، ويقال أيضًا: إنَّ الملك الذي يُنسب إلى الله-تبارك وتعالى- هو الملك الذي لا أول له، وأمَّا الملك الذى ينسب للمخلوق؛ فهو الملك الذى له أول؛ فالسيارة قبل أن تتملكها قبل شرائها كانت ملكاً لصاحب المعرض، وقبل أن يشتريها صاحب المعرض كانت ملكًا للمؤسسة التي صنعتها، أو الشركة التي صنعتها.

فأملاك تدور، وتستخلف بين يدي بنى آدم، ويزول ملكه عنه أما الله-عزّ وجل- أوليته لملكه؛ فهو المالك للأشياء أزلًا، وأبدًا.

ونقول أيضًا: إنَّ المُلك الذي يُنسب لله-عزّ وجل- هو الملك الذي لا نهاية له؛ فلا ينقطع ملك الله-تبارك وتعالى- عن الأشياء أبدًا، وأمَّا الملك الذي يُنسب للمخلوق فهو الملك الذى ينقطع بأمرين:

- إمَّا بتلف، وبيع.
- وإمَّا بموت، ووراثة.

فإذا مات الإنسان انقطع ملكيته لماله، وانتقلت ملكيته لمالهُ، وانتقلت إلى مالكٍ، وورثة، وأمَّا الله الحي الذي لا يموت؛ فلا ينقطع مُلكه-تبارك وتعالى- مُطلقًا، ونقول أيضًا: إن الملك الذى يُنسب لله-تبارك وتعالى- له حرية التصرف فيه على ما تقتضيه حكمته، وعلمه -عزّ وجل-.

فلا أحد يُلزِم الله-عزّ وجل- بتصرفٍ خاص في شيء في مملكته، فله أن يدمر هذا، وأن يَعمُر هذا، وأن يُفني هذا، وأن يُحيي هذا، وأن يُمرض هذا، وأن يُصحّ هذا، وأن ينزع الملك من هذا، ويعطيه لهذا.

لا رادَّ لقضائِه، ولا مُعقّب لحُكمِه - تبارك وتعالى- فإذًا لله أن يتصرَّف في مُلكه بما يشاء، وأمَّا الملك الذي يُنسب إلى المخلوق؛ فإنَّه يُوجب له مُطلق الحرية بالتصرُّف لا الحرية المطلقة، بمعنى أنَّ الإنسان إذا أراد أنْ يُتلف ماله، و يحرق أوراقه النقدية، أو نسمح له بذلك؟ الجواب: لا.

ولذلك لو أنَّ الإنسان أراد أن يتلف شيئًا من ماله بلا وجه حقٍ؛ فإنَّهُ يمنع من ذلك، ويحجرُ عليه؛ لأنَّه يوصف بأنَّه سفيه، ومن جملة موجبات الحجر فقهاً السفه، فالمخلوق وإن كان موصوفًا بأنَّه يملك، إلاَّ أن ملكيته محوطةٌ بهذه الأمور التي قررتها قبل قليل.

من أجل ذلك، أي: من أجل أنَّه لا مالك إلا الله، من أجل ذلك استدل الله-عزّ وجل- على بُطلان ما يُعبد من دونه بأنَّه لا يملك؛ فالرب لا يصلح أن لا يملك، فمن أعظم صفات الرب أنَّه يملك؛ فالذي لا يملك شيئًا لا يصلح أن يكون ربًا ولا خالقًا، ولا رازقًا، ولا يصرف له شيء من العبادات.

ولذلك يقول الله-عزّ وجل-:﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ**﴾ [فاطر:13]، فلما أثبت أنَّه الرب لأنَّه المالك أبطل عبادة غيره بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ**﴾ أي تعبدون ﴿**مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ**﴾ [فاطر:13]، فاستدل الله-عزّ وجل- على بُطلان إلهيتهم بأنَّهم لا يملكون.

ويقول الله-عزّ وجل- أيضًا: ﴿**لَايَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ**﴾ [مريم:87]؛ فأبطل إلهيتهم، وربوبيتهم بسلب صفة المُلك عنهم، وقال الله-عزّ وجل-: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**﴾ [الفرقان:3]، ويقول الله-تبارك وتعالى- أيضًا:﴿ **إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [العنكبوت:25].

إلى أن قال الله-تبارك وتعالى-: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [العنكبوت:17]، وقال الله-عزّ وجل: ﴿**قُلِ**

ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:21] واللهُ أعلم.

9. الله خالقُ كل شيء، فلا خالقَ إلاَّ الله.

والمقصود بإثبات الخلق هُنا أي خلق الإيجاد لا خلق التصوير، لأنَّ التصوير يستطيع المخلوق أن يقلب صورة إلى أخرى، وهو المقصود بقول الله-عزّ وجل-: ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون:14]؛ فالخالقون هنا: أي المصورون؛ فالخلق يُراد به أحدُ معنيين:

- إمَّا أن يُراد به الإيجاد من العدم.
- وإمَّا أن يُراد به النقل من شيءٍ إلى شيء.

فالذي اختُصَّ الله-عزّ وجل- به، ولا يشاركه فيه لا ملكٌ مُقرب، ولا نبيٌّ مُرسل، ولا وليٍ صالح فضلاً عن غيرهم، إنَّما هو الخلق بمعنى الإيجاد من عدم، وعلى ذلك قول الله-تبارك وتعالى-: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [غافر:62]، وقال الله-عزّ وجل-: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ**﴾ أي أوجدوا، وأحدثوا كما أوجد، وأحدث؛ ﴿**فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ [الرعد:16].

وقال الله-عزّ وجل-: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ**﴾ [فاطر:3]، وقال الله-عزّ وجل-: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾ [غافر:62]، وقد أجمع أهل السنة على أنَّ من زعم أنَّ هناك خالقًا أي: موجدًا للأشياء ابتداء من عدم مع الله -عز وجل- فإنَّهُ مشرك؛ لأنَّه سوى غير الله بالله فيما هو من خصائص ربوبيته.

ولذلك وصف النبيُّ-صلى الله عليه وسلم- القدرية الذين هم المعتزلة بأنَّهم

مجوس هذه الأمة؛ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة: إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»[1]. في مرويات تُرفع إلى النبي-صلى الله عليه وسلم- حسّنها بعضُ أهل العلم؛ فإن قلت: لم سموا مجوسًا؟ نقول: لأنهم سلكوا سُنة المجوس في الزعم للعالم خالقين النور، وهو: إله الخير، والظُلمة، وهي: إله الشر.

فالقدرية يزعمون بأنَّ أفعال العبد هو من يخلقها، وليس الله-تبارك وتعالى- فلمَّا زعموا أنَّ ثمة خالقاً مع الله وصفهم النبي-صلى الله عليه وسلم- بأنَّهم مجوسُ هذهِ الأُّمة.

وأمَّا نحن معاشر أهل السنة والجماعة كما سيأتينا في القواعد؛ فنعتقد أنَّ فعل العبد يُنسب إلى الله خلقًا، وإيجادًا، وتقديراً، ويُنسب إلى المخلوق تحصيلًا، واكتسابًا، إذًا، لا خالق إلاَّ الله.

10. لا مُدبر، ولا مُصرِّف لهذا الكون على الحقيقة إلاَّ الله-تبارك وتعالى- وأنتم ترون أننا لدينا ثلاث قواعد عليها يبنى توحيد الربوبية:

- لا رب إلاَّ الله.
- لا خالق إلاَّ الله.
- لا مُدبر إلاَّ الله.

لأنَّ الرب هو المالك، الخالق، المُدَبِر؛ فمن آمن بهذه الاشياء فقد آمن بحقيقة توحيد الربوبية يقول الله -عزّ وجل-: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾ [يونس:3]، ويقول الله-عزّ وجل-: ﴿**قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ**

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه، أول كتاب السنة، باب في القدر، ت: الأرنؤوط (77/7) برقم (4691).

الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:31]، يقول الله-عزّ وجل-: ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ [السجدة:5].

ولذلك في صحيح الإمام البخاري من حديث ابن عمر لما دعا النبي-صلى الله عليه وسلم- وقنت في صلاة الفجر على النفر الثلاثة على سهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وغيرهم نزل قول الله-عزّ وجل- ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ [آل عمران:128] أي لست المدبر، ولا المتصرِّف في هذا الكون، أنا من أُدَّبر أُمور عبيدي، ومن يتصرَّف فيهم؛ ولذلك لا مُدبر إلاَّ الله.

و بناءًا على ذلك فمن زعم أنَّ ملكاً من الملائكة يدبر شيئاً من أمور العالم استقلالًا بدون أمر الله، ورضاه، وإذنه؛ فقد كفر، وأشرك، ومن زعم أنَّ نبيّاً من الأنبياء يُدبر شيئاً من أمورِ هذا العالم بدون إذن الله-عزّ وجل- وأمره، وتقديره؛ فقد أشرك.

ومن زعم أنَّ أحدًا من الأولياء، أو الأنبياء، أو الأموات يُدبر شيئاً من أمور هذا العالم، أو له أحقية التصرُّف في شيء من أمور هذا العالم؛ فقد كفر، وأشرك؛ لذلك يقول الله-تبارك وتعالى-: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ** ﴾ [سبأ:22]، أي مُدبر معه يعينه على تصريف أمور مملكته.

فالله-عزّ وجل- لا ظهير له، ولا وزير له، ولا خليفة له باعتبار الإعانة يُدبر معه شيئاً من أمورِ هذا العالم؛ فإن قلت: أوليس للملائكة أعمال يقومون بها هي داخلة في دائرة التدبير؟ فأقول: بلى، لكن ذلك لا يتم إلاَّ بأمر الله-عزّ وجل- وإقدارهِ لهم؛ وإلا فالملائكة والأنبياء والأولياء، أعجز من أن يقوموا بمصالح أنفسهم، لولا أنَّ الله-عزّ وجل- أقدرهم على ذلك.

فإن قلت: أوَلاَ يوصف الإنسان بأنه مُدبّر؟ فأقول: بلى، ولكنه التدبير السببي

لا التدبير الابتدائي؛ فأنت تُدبر أمور عائلتك، تُدبر أمور معاشك، تدبر أمور تجارتك، تدبر أمور وظيفتك، أنت تدبرها، وتُخطط لها، وتنظُر أصلح الطرق لسلوكه فيها.

أَوليس هذا تدبيراً؟ الجواب: لا، لكنه تدبير سببي، ولكن المدبر على الحقيقة هو الله-تبارك وتعالى- ولذلك قد تدبر الشيء، ولا يُثمر تدبيرك أثره، أَوليس كذلك؟ لأنَّ تدبيرك إنَّما هو تدبيرٌ سببي، إنَّما المدبر والمتصرف على هذا العالم على الحقيقة إنَّما هو الله-تبارك وتعالى- واللهُ أعلم.

11. لا يملك النفع، والضرَّ على الحقيقة، والتقدير إلاَّ الله-تبارك وتعالى-.

ولذلك يقول الله-عزّ وجل-: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا** ﴾ [الفرقان:55]، ويقول الله-تبارك وتعالى-: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**﴾ [يونس:18].

ويقول-عزّ وجل-: ﴿ **قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [المائدة:76]، بل إنَّ الله-تبارك وتعالى- أمر نبيه-صلى الله عليه وسلم- أن يقول، ويُعلنها صريحة للناس: إنّي لا أملُك لنفسي نفعًا، ولا ضرًا، قال الله-عزّ وجل-:﴿ **قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ**﴾ [الأعراف:188]، ويقول الله-عزّ وجل-: ﴿**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**﴾ [الرعد:16].

ولذلك فقد استدل الله-عزّ وجل- على بطلان الإلهية غيره بأنَّه لا ينفع عابدهُ، ولا يضُرُّه؛ فالذي لا يملك لك نفعًا، ولا ضرا لمَّ تعبدهُ؟ تعبدهُ لماذا؟ قال الله-عزّ وجل- عن إبراهيم: ﴿**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا**﴾ [مريم:42]، وقال الله-عزّ وجل- مستدلًا على بُطلان عبادة اليهود للعجل الذين صنعه لهم السامري: ﴿**أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا**

وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:89].

ويقول الله-عزّ وجل-:﴿**سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾** [الفتح:11].

وقال الله-عزّ وجل- عن نبيه: ﴿**قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾** [الجن:21]؛ فلا يملكُ النفع والضر على الحقيقة، والضر إلاَّ الله-تبارك وتعالى- وبناءًا على ذلك؛ فمن زعم أنَّ أحدًا يملك الضر استقلالًا، أو النفع استقلالًا بلا تقدير من الله-عزّ وجل- فقد أشرك مع الله-عزّ وجل- غيره، فيُستتاب، فإن تاب وإلاَّ قُتل، حتى الكهنة، والسحرة، والمشعوذون، والعرافون؛ فإنَّ الله قد أثبت أنَّهم يضرون، لكن نفى إضرارهم بالغير إلاَّ بعد الإذن الكوني من الله-عزّ وجل-.

فقال الله-عزّ وجل-: ﴿**وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** [البقرة:102]؛ فيجب على العبد أن يعتقد باعتقاد الجازم بأن المخلوق وإن عظُمت منزلته، لا يملك نفعًا، ولا ضرًا، ولا حركة، ولا سكوناً، ولا بسطًا ولا قبضاً، ولا خفضًا، ولا رفعًا، ولا عطاءًا، ولا منعًا، ولا إحياءً ولا إماتةً، ولا تدبيرًا ولا تصريفا، إنَّما ذلك من خصائص الله وحدهُ لا شريك له.

12. لا يعلم الغيب المطلق إلاَّ الله-عزّ وجل-.

فإن قلت: فماذا تقصد بقولك المطلق؛ فأقول حتى يخرج الغيب النسبي، وقد قسم العلماء الغيب إلى قسمين:

- غيب مُطلق.
- غيب نسبى.

أمَّا الغيب المطلق؛ فهو الذى يشترك المخلوقات كلهم في عدم العلم به، إنَّما لا يعلمه إلاَّ واحد فقط، وهو الله-تبارك وتعالى- هذا هو الذي نقصده بقولنا المُطلق: أي الغيب عن جميع المخلوقات، وهو ما كتبه الله-عزّ وجل- في

لوحه المحفوظ.

وإنْ قلت: وماذا تقصد بقولك الغيب النسبي؟ الجواب:أقصد به الغيب الذى يكون خافيًا عن البعض، ويعلمه البعض الآخر، كأن يضيع منك شيء، ويجده غيرك؛ فهو غيب بالنسبة لك لكن ليس غيباً بالنسبة لمن وجده.

وكأن تشرُد ناقتك، فتكون عند أُناسٍ في البرية؛ فمكانها بالنسبة لك غيبٌ، ولكن مكانها بالنسبة لمن وجدها ليس بغيب؛ فإذا قال أهل السُنة: لا يعلم الغيب إلاَّ الله؛ فلا يقصدون الغيب النسبي، إنَّما يقصدون الغيب المطلق.

فمن زعم أن أحداً يعلم الغيب المطلق؛ فقد كفر وأشرك؛ لأنَّه قد ساوى غير الله بالله في خصيصة من خصائص ربوبيته، وهي: علم الغيب، قال الله-تبارك وتعالى-: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾ [النمل:65].

ويقول الله-تبارك وتعالى-:﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ**﴾ [الجن:25] أي المُطلق؛ ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**﴾ [الجن:25-26] الآية، وقال الله-عزّ وجل-: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**﴾ [الأنعام:59]، ومفاتح الغيب خمسة ذكرها الله-عزّ وجل- في آخر سورة لقمان: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ** ﴾ [لقمان:34] الآية بتمامها.

فإن قلت: أولم يخبرنا النبي-صلى الله عليه وسلم- عن أمورٍ من المغيبات؟ الجواب: بلى، لكن لم يعلمها استقلالًا، إنَّما يعلمها بالوحى فاستطلع الله-عزّ وجل- نبيه على شيءٍ من المغيبات، وذلك داخل في قول الله-عزّ وجل-: ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا**﴾ [الجن:25-26]، أي: رصداً من الملائكة؛ فالغيبيات التي يخبرنا بها رسول الله-صلى الله عليه وسلم- إنَّما هو وحيٌ أوحاهُ الله-عزّ وجل- إليه. والله أعلم.

13. لا حاكم كونًا، وشرعًا إلاَّ اللهُ-تبارك وتعالى- فكما أنَّه لا يحكم في كونِهِ إلاَّ هو وحده لا شريك له؛ فكذلك يجب علينا أن نوحّده في الحكم الشرعي.

فكما أنَّه لا حاكم في كونه إلاَّ هو وحده لا شريك له؛ فكذلك لا حاكِم في شرعه إلاَّ هو وحده لا شريك له، والناس إنَّما أشركوا مع الله-عزّ وجل- حاكمًا في مسائل التشريع، لكن لا يستطيعون أن ينسبوا الحكم الكوني لغيرهِ-تبارك وتعالى- إلاَّ ظُلمًا، وعدوانًا، وجهلًا؛ فمن الذي حكم بأنَّ الشمس تشرق من المشرق، وتغرُّب من المغرب؟ الله، هذا حكم كونى.

هل يستطيع أحد أن ينازع الله في هذا الحكم؟ الجواب: لا، ولذلك فضح الله النُمرود في مناظرته لإبراهيم بقوله: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة:258].

فكذلك أيضًا أحكامه الشرعية لا يجوز لنا أن نستبدلها بأحكام، وقوانين أرضية؛ فيجب علينا حكامًا، ومحكومين، أُمراءَ، ومأمورين أن لا نحكم بين الناسِ إلاَّ بشريعة الله-عزّ وجل- وأن لا نتحاكم إلاَّ إلى شريعة الله-تبارك وتعالى- فكلُّ حكم قرَّره البشر على خلاف شريعة الله- عزّ وجل- فهو من أحكام الجاهلية.

وبناءًا على ذلك يقول الله-عزّ وجل-: ﴿**وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [القصص:70]، أي لا حاكم إلاَّ هو، ويقول الله-عزّ وجل-: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [المائدة:50]، ويقول الله-تبارك وتعالى-:﴿**فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ [المائدة:48]، ويقول الله-تبارك وتعالى-:﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾ [الأنعام:57]، فلا حاكم كونًا، ولا شرعًا إلاَّ الله-تبارك وتعالى- واللهُ أعلم.

14. لا تُنسب حوادث الارض لحوادث السماء إلاَّ بدليلٍ.

وهي قاعدةٌ أخذناها وطرقناها كثيراً، بمعنى أنَّه إذا حصل شيءٌ في الأرض أيًا كان ما حصل، سواءً أكان ريحاً قد هبت، أو بركاناً قد انفجر، أو زلزالًا قد ظهر،

أو فيضانًا قد فاض على الناس، أو أي شيءٍ كان في الأرض؛ فاحذر الحذر العظيم من أن تنسب هذا الحادث الأرضي لأمر حصل في السماء؛ فتقول: إنَّ هذا المطر إنَّما هو بسبب نوء كذا وكذا، أو هذه الريح التي هبت إنَّما سببها اختفاء النجم الفلاني، أو ظهور النجم الفلاني؛ فهذا أمرٌ لا يجوز.

لأنَّ العلاقة، والسببية أمر توقيفي؛ فلا يجوز أن نعتقد سببية شيء لشيء إلا وعلى هذه السببية دليل من الشرع كما سيأتينا في القواعد السببية إن شاء الله تعالى، وبرهان هذا قول الله-عزّ وجل-: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ [الواقعة:82]، أي المطر الذى نزل عليكم: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:82]، فتقولون: مُطرنا بنوء كذا؛ فالله يرزقكم، وأنتم تنسبون نعمته ورزقه لغيره.

وفى الصحيحين من حديث زيد بن خالد الجهني- رضي الله عنه- قال: «**صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[1].

وفى الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة-رضي الله عنه- قال: «**كسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا، وادعوا الله**»[2].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الاستسقاء، باب قول الله تعالى: {وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون} [الواقعة: 82] قال ابن عباس: «شكركم» (33/2) برقم (1038)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء (83/1) برقم (71).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس (2/ 34) برقم (1043)، ومسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف، (618/2) برقم(901).

فلا ينسب الكسوف، وهو الحادث السماوي، لموت إبراهيم، وهو الحادث الأرضي، وقال النبي-صلى الله عليه وسلم-: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**»[1]. فلا يجوز لنا أن ننسب شيئاً حصل في الأرض، ونُعلِّله بأمرٍ حصل في السماء، وليس على ذلك دليلٌ من الشرع.

15. الشركُ في الربوبية مُقدمة الشرك في الألوهية.

ومعنى ذلك أنَّ جميع من عُبد بدون الله-عزّ وجل- فإنَّ عابدهُ اعتقد فيه شيئاً من صفات الربوبية؛ فصرف له شيئاً من الألوهية، ولو أنَّه لم يعتقد في معبوده شيئاً من خصائص الربوبية لما عبدها؛ فأشرك به في الربوبية أولًا، ثم أعقب هذا الشِرك شركًا في الألوهية؛ فلمَّا اعتقد أنَّه ينفع ويضر، وهو من خصائص الربوبية عبده، وسجد له، ولمَّا اعتقد أنَّه له تدبير، وتصريف في الكون، وهى من خصائص الربوبية سجد له، وركع، وذبح، وطاف به، ولمَّا اعتقد أنَّه يعلم الغيب صرف له شيئًا من الألوهية.

لكن هل يستطيع أحد منكم أن يعبد المناديل الآن؟ لا، لأنَّه لا يعتقد فيها شيئاً من خصائص الألوهية، لكن هؤلاء الذين يأتون إلى قبر الحسين، أو علي بن أبي طالب، أو قبر النبي-صلى الله عليه وسلم- أوقبر الخليلِ إبراهيم، أو قبر أحمد البدوي، أو الست زينب، أو العيدروس، أو غيرهم من القبور التي تُعبد من دون الله فإنَّك كثيرًا تجد عندها ناساً ملايين يعبدونها من دون الله؛ فلو سألتهم لماذا تعبدونها ألوهيةً؟ لعلَّلوا لك بشيء يوجب وقوعًا في الشرك ربوبيةً.

فمن وقع في شرك الربوبية وقع لزامًا في شرك الألوهية، ولا يمكن أن ينصرف قلبك لعبادة أحد قبل أن يعتقد قلبك أنَّ فيه شيئاً من خصائص الألوهية؛ ولذلك الأصنام التي عبدت في أول الزمان في قوم نوح، وهى ود وسواع، ويغوث، ونسر لمَ عبدها قوم نوح؟ لأنَّهُ لمَّا نُسيَ العلم، وجاءت الأجيال الأخرى جاء الشيطان، وقال: إنَّما يرزق أباءكم بهؤلاء المطر والانتصار على الأعداء فعُبدت

[1] سبق تخريجه.

من دون الله-عزّ وجل-.

ولا يزال الشيطان يُزين للقلوب، والعقول الولوج، أو الدخول، أو الوقوع في شيء من شرك الربوبية قبل أن يأمرك بعبادة غيره-تبارك وتعالى- فإن أردنا أن نقطع دابر شرك الألوهية؛ فلنقطع دابر شرك الربوبية، والله أعلم.

16. الربوبية المحضة تقتضي مباينة الرَّبِ للعالم بالذات، وهذه من قواعد الإمام ابن القيِّم-رحمه الله تعالى-.

ومفادها أنَّ إيمانك بأنَّه ربٌّ كل شيء لا يقع صحيحًا، إلاَّ إذا اعتقدتَّ عدم حلوله في شيء من مخلوقاته لابُدَّ لزامًا إذا أردت أن يصح إيمانك بأنَّه ربُّ كل شيءٍ، وخالقه، ومليكه، أن تعتقد مباينته لهذا العالم؛ فالله-عزّ وجل- منفصل في ذاته عن ذوات المخلوقات؛ فليس في ذاته شيءٌ من ذوات خلقه، ولا في مخلوقاته شيءٌ من ذاته، وبناءًا على ذلك، فأصحاب الحلول الذين يزعمون أنَّ ذات الله-عزّ وجل- قد حلَّت في كل مكان هؤلاء كافرون بروبيتهم؛ إذ لا يجتمع الإيمان بالربوبية، واعتقاد حلول الرب في المخلوقات لابد من التمييز بين ذات الرب، وذاتِ المربوب، وذات الخالق، وذات المخلوق، وذات الإله، وذات العابد المتأله، فمن اعتقد أنَّ ثمة اتصالاً بين الذاتين؛ فهو كافرٌ بربوبيته-تبارك وتعالى-.

وأيضًا أصحاب فكرة وحدة الوجود، وهو أنَّ ذات الله-عزّ وجل- هي عين ذوات خلقه ليست مجرَد حلول، بل هي عينها؛ فالذاتان ذاتٌ واحد، وقد أجمع المسلمون على كفر من اعتقد ذلك؛ فمن زعم أنَّ شيئًا من ذات الله قد حلَّ في شيءٍ من ذوات خلقه؛ فقد كفر، ومن زعم أنَّ شيئًا من ذوات المخلوقات قد ارتفع، وحلَّ في ذات الله-عزّ وجل- فقد كفر.

فإذاً من أعظم قواعد الربوبية اعتقادك مباينة هذا الرب للمربوب، كما نعتقد نحن أنَّ الله-عزّ وجل- فوق عرشه استوى بذاته استواء يليق بجلالته، وعظمته ليس في ذاته شيءٌ من ذوات خلقه، ولا في خلقه شيءٌ من ذاته. يقول ابن القيم-رحمه الله- فكما باينهم سبحانه، أي: انفصل عنهم، اختلف عنهم في الربوبية،

والصفات، والأفعال؛ فلابُدَّ من مباينته لهم بالذات؛ فلا نعتقد أنَّ شيئًا من ذات الله-عزّ وجل- قد حلَّ في شيء من ذوات خلقه.

العجيبَ أنَّ الإمام ابن القيم استنبط القاعدة من قول الله-عزّ وجل-: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:1].

قال: إذاً لابُدَّ أن يكون سمة ذاتٌ تُحمد، وذاتٌ تَحمد، وذات يُعتقد فيها الربوبية، وذاتٌ يصدر منها هذا الاعتقاد، ولوكانت الذاتان ممتزجتين غير متباينتين، ولا منفصلتين، إذاً بطلت كل معانى الألوهية، وبطلت كل معانى الربوبية، واللهُ أعلم.

توحيد الربوبية ابتدائي فطري، وبرهان ذلك قول الله-تبارك وتعالى-:﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم:30]، والمراد بالفطرة هنا: أي فطرة الإقرار بوجوده، وربوبيته- عزّ وجل-.

ويقول النبي-صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة-رضى الله عنه: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء**»[1]. ولم يقل: "أو يسلمانه" أي: يجعلانه مسلماً؛ لأنَّه مسلم بهذه الفطرة في الأصالة.

وفى صحيح الإمام مسلم من حديث عياض بن حمار المُجاشعي- رضي الله عنه- قال: قال نبي الله-صلى الله عليه وسلم- في خطبة له: قال الله-تبارك وتعالى-: «**وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم،**[أي: مقرون بوجودي وربوبيتي] **وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا**»[2].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين (100/2) برقم (1385)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين (2047/4) برقم (2658).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار(2047/4) برقم (2865).

وكان النبي-صلى الله عليه وسلم- كما في حديث عبد الرحمن بن أبزى رضي الله عنه، كلما أصبح يقول: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وعلى كلمة الإخلاص، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما، وما كان من المشركين**»[1]. هذه فطرة الربوبية، ولمَّا سمع النبي-صلى الله عليه وسلم- مؤذنًا يقول: اللهُ أكبر، اللهُ أكبر قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: «**على الفطرة**»[2]. كما في صحيح مسلم من حديث أنس-رضي الله عنه-.

وتلك الفطرة الصافية هي التي أُمرنا أنْ نموت عليها، كما في الصحيحين من حديث البراء بن عازب- رضي الله عنه - أنَّ النبي-صلى الله عليه وسلم- قال لرجل من الأنصار: «**إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبة ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مت مت على الفطرة فاجعلهن آخر ما تقول" فقلت أستذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت. قال: لا، «وبنبيك الذي أرسلت»** [3].

وهذه الفطرة صورت للنبي-صلى الله عليه وسلم- على صورة لبن ليلةَ أسرى به، لما قدم له اللبن فاستشار جبريل؛ فأشار عليه بشرب اللبن، فقال: هذه الفطرة. فُطرَ الناس على هذا الأمر.

وأمَّا قوله: ابتدائي، يعني أنَّه من العلوم الضرورية التي لا يستطيع أحد أن يستخرجها من قلبه، مهما حاول هو يستطيع أن ينكر ربوبية الله ظاهرًا عِنادًا،

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في مسند المكيين، من حديث عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي (77/24) برقم (15360). وقال الأرنؤوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين".

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر، إذا سمع فيهم الأذان (288/1) برقم (382).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب إذا بات طاهرا وفضله، (68/8) برقم (6311)، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (2081/4) برقم (2710).

لكن أتحداه أن يحاول عصر قلبه؛ لإخراج كون الله-عزّ وجل- ربَّه، وخالقه؛ لأنَّ الله قد خلق هذا القلب، وجعل من جمله تركيبته هذا الإقرار؛ فلا يستطيع أحد أن يخرج هذا العلم من القلب؛ لأنَّه علم ابتدائي فطري جبر الإنسان عليه.

ولذلك إذا سألتَ: واحد زائد واحد؟ أستطيع أن أقول: يساوي عشرين، لكن هذا إنكارٌ لحقيقة النتيجة ظاهرًا، لكن أنا في قرارة نفسي لا أستطيع أن أستخرج من قلبي أنَّ النتيجة اثنان.

هذا الذي نقصده بقولنا: علم ابتدائي، يعني موجود معك مخلوق جِبِّلي في فطرتك، لا تستطيع أن تستخرجه، أو تجتثه من قلبك أبدًا؛ فإن قلت: أوَّ ليس ثمة من أنكر هذا التوحيد؟ نقول: بلى، ولكن أنكروه ظاهراً بالشقوةِ والعناد، أمَّا باطناً، فلا يستطيع أحد أن ينكره مهما حاول، وفكَّر، وقدَّر.

17. الإقرار بتوحيد الربوبية مجردًا لا يكفى للحكم بالإسلام، وهذا بإجماع أهل السُنة والجماعة.

فلو أنَّ كافرًا أصليًّا أقرَّ بكُل مقتضيات الربوبية، ولم ينطق بالشهادة لما كان مستحقاً لوصفه بأنَّه مسلم؛ لحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله**»[1]. الحديث بتمامهِ، ولأنَّ الذين بعث إليهم الأنبياء، والرُّسل كانوا يقرِّون بأنَّ الله هو الخالق، الرازق، المُدبر، المحيي، المميت الذى سخر السماوات، والأرض، والشمس، والقمر، ومع هذا الإقرار لم يحكم لهم بالإسلام، ولم يعصم دمائهم، ولا أموالهم أبدًا.

فلا يكفى أن تُقرَّ بهذا التوحيد حتى توصف بأنك مسلم، بل لابُدَّ من النطق بالتوحيد الآخر، وهو الألوهية، كما سيأتي إن شاء الله.

18. السببية مبناها على ثبوتِ دليل الشرع أو القدر؛ وذلك لأنَّ الله-عزّ

---

(1) سبق تخريجه.

وجل- هو الذى خلق السبب، وأثاره، فلا خالق للسبب، ولا مُرتِّب للأثر عليه إلاَّ الله-عزّ وجل-.

فالأسباب لا تنتج آثارها بذاتها، لا، وإنَّما إذا أراد الله ترتُّب الأثر على وجود السبب؛ رتبه، وإذا لم يرد وجود الأثر؛ فإنَّ السبب يوجد مجردًا، ومنفردًا عن أثاره؛ لأنَّ الله هو الذي يخلق السبب، وهو الذي يخلق أثره، وبناءًا على ذلك؛ فلا حق لك أنت أيُّها المخلوق أنْ تعتقد أنَّ هذا السبب يؤثِّر كذا وكذا، إلاَّ إذا كان هناك دليل على السببية، أي على الربط بين السبب وآثره. أي: (السببية) [هذا سبب, وهذا أثره، وما بينهما يسمى: سببية].

الربط معناه: السببية لا يجوز لك أيُّها المخلوق أن تعتقد سببية بين سبب وأثره، إلاَّ وعلى هذه السببية دليل؛ لأنَّ السببية والربط فعل من أفعال الله، ليس من أفعالك أنت؛ فلا حق لك أن تعتقد سببية شيء لشي إلاَّ وعليها أحد دليلين:

- إمَّا دليل الشرع من الكتاب والسُنة يخبرك أحدهما أنَّ هذا الشيء سبب في هذا الشيء.
- أو دليل آخر، وهو دليل القدر.

وإذا أطلقنا القدر؛ فنقصد به في باب السببية التجربة؛ فإذا دلَّ على السببية شرعٌ، وتجربة، أي قدر؛ فيحقُّ لك حينئذٍ أن تعتقد السببية؛ فلا حقَّ لك أنْ تتخوض في باب السببية بلا دليلٍ قدري، أو دليل أثري، ولذلك نحن نعتقد سببية شرب مخفِّض الحرارة لتخفيضها، نحنُ نعتقد هذه السببية، هل دلَّ على سببيتها شرع؟ الجواب: لا، لكن دلَّ عليها دليلُ القدر والتجربة أيضًا.

أيضًا نحن نعتقد سببية الرقية للشفاء من السحر، والعين، والحسد، والمس الشيطاني، لمَ نعتقد هذه السببية؟ لأنَّ دليل الشرع والقدر معًا قد دلَّا عليها، لكن هل يجوز لنا أن نعتقد سببية تعليق التميمة لاندفاع الضرر، أو جلب الخير؟ الجواب: لا، لأنَّها لم يدل على سببيتها لا شرعٌ ولا قدر.

هل يجوز لنا أن نعتقد سببية النوع لنزول المطر؟ الجواب: لا، لأنَّه لم يدل على سببيته شرعٌ، ولا قدر، هل يجوز أن نعتقد سببية مس اليد لبدن الولي انتقال للبركة؟ الجواب: لا، لأنَّه ليس هناك دليل لا شرعي، ولا قدري يدلُّ على أنَّ

مجرَّد مسك لبدن الولي يُضفي على يدك البركة، وبناءً على ذلك قرر أهل العلم أن من اعتقد سببًا لم يدل عليه شرع، ولا قدر؛ فقد أشرك شركاً أصغر.

لأنَّه أقحم أنفه في فعلٍ من أفعال الله-عزّ وجل- فالمسبب للأشياء والرابط بينها هو الله ليس أنت، إنَّما فقط وظيفتك أنت أن تبحث عن السببية إمَّا في دليل الشرع، وإمَّا في دليل القدر، والتجربة، وأمَّا من زعم سببيةً بلا برهان؛ فقد أشرك شركًا أصغر، وإنَّ اعتقد الفاعل بذاته؛ فشركٌ أكبر، كما سيأتينا في القاعدة التي بعد هذه، إن شاء الله.

إذًا السببيةُ من جملة ما يدخل تحت توحيد الربوبية، لأنها نوعُ تدبير، وتصريف في هذا العالم، من الذي دبَّر وصرَّف، وربط الآثار بأسبابِها؟ الله؛ فإذًا من مقتضيات ربوبيتهِ اعتقادهُ ألاَّ سببية إلاَّ بأمرهِ، وتدبيرهِ، وتصريفهِ، إمَّا أن يوضحها بعد ذلك بدليلِ الشرع، وإمَّا أن يُكشفها بدليل القدر.

19. كلُّ من اتخذ سببًا لم يدلَّ عليه شرعٌ ولا قدرٌ؛ فشركٌ أصغر، وإن اعتقده الفاعل بذاته؛ فشركٌ أكبر.

وشرحهُا كما ذكرتهُ لكم قبل قليل، ولذلك حكم العلماء على التمائمِ بأنَّها شركٌ أصغر إذا اعتقد أنَّها مُجرَّد سببٍ فقط، وأمَّا إن اعتقد أنَّها الفاعل بذاتها؛ فهي تجلب الخير بذاتها، أو تدفع الضر بذاتها؛ فهذا شركٌ أكبر.

فإن قلت: ولماذا حكمت على من اعتقد سببيتها فقط؛ بأنَّه قد دخل في الشرك الأصغر؟ فنقول: لأنَّه اعتقد سبباً ما ليس بسبب لا شرعًا، ولا قدرًا، وكذلك نقول أيضًا: من اعتقد أنَّ البومة سببٌ لحصول الضررِ، فإنَّه قد أشرك شركًا أصغر؛ لأنَّه اعتقد سببًا ما ليس بسببٍ لا قدرًا، ولا شرعا، وإن اعتقد أنَّ البومة هي التي توجد الضرر بذاتها؛ فهذا شركٌ أكبر.

ونقول أيضًا: من اعتقد أنَّ النوء سببٌ من أسباب هبوب الريح، أو نزول المطر؛ فقد أشرك شركًا أصغر؛ لأنَّه اتخذَ سببًا ما ليس بسبب لا شرعًا، ولا تجربةً، أي: ولا قدرًا، والذي اعتقد أنَّ النوء هو الذى ينزل المطر بذاته؛ فهذا شركٌ أكبر.

20. الأسبابُ مؤثرةٌ لا بذاتها.

وهذا مذهب وسطي بين مشركيةِ الأسباب الذين يعتقدون أنَّ السبب يفيد أثرهُ بذاته؛ فالسبب هو الذي أوجد الأثر، وخلقه، وهذا شركٌ في الربوبية، وبين معطلة الأسباب الذين يزعمون أنْ لا أثر أصلًا لأي سبب، وإنَّما الأثر يوجد عند السبب لا بهِ.

فتوسَّط أهل السُنة، والجماعة، فقالوا: الأسباب مؤثرةٌ لا بذاتها؛ فقولهم: مؤثرة ردٌ على مُعطلة الأسباب، وقولهم: لا بذاتها ردُ على مشركية الأسباب، ولذلك أمرنا الله بالعمل الصالح، وذكر أنَّ من آثاره دخول الجنة.

وأمرنا الله-عزّ وجل- بالأكل، والشرب، وكلّها أسباب، وأمرنا بالاحتماء من العدو، وأمرنا بالتوَكّل، وحسن التدبير، والتخطيط، بل وأمرنا بالاستخارة، وكلُّ هذه أسباب، فلو لم يكن لها آثار، لاعتُبر أمر الله لنا بها عبثاً، لكن لم يأمرنا الله-عزّ وجل- بها، إلاَّ ولها آثارها، لكنَّ الذي يرتب الأثر عليها إنَّما هو الله-تبارك وتعالى-.

ولذلك فاحذر يا ابن آدم أن تنظر إلى السبب نظرًا كليّاً، بمعنى أنَّك تظنُّ أنَّك متى حققت الأسباب؛ فستأتي آثارها، بل تحتاج إلى توَّكل آخر، وهو التوكل على الله في ترتيب آثارها؛ فكما توَّكلت على الله في تحصيلها ووجودها؛ فتوَّكل عليه أيضًا في ترتيب آثارها عليها.

ويستدلُّ العلماء على أنَّ الله هو الذى خلق السبب وأثره، بعدم إحراق النار لإبراهيم مع وجود السبب، وهى النار المتوَقّدة، لكن لا أثر لها؛ لأنَّ الرابط بينهم من هو؟ الله؛ فلو كانت النار تحرق بذاتها لا بتقدير الله، لاحترق إبراهيم جملةً وتفصيلا، واللهُ أعلم.

21. اللهُ -عزَّ وجَل- هو المؤثر، المُطلق، التام بذاته.

يعني أنه هو -عزَّ وجَل- من يؤثر بنفسه استقلالًا، ويقدر حدوثه بدون إذنٍ من أحد، ولا باستعانة بأحد، ولا يحتاجُ الله -عزَّ وجَل- إلى سببٍ آخر يُعينُه، إذ لا مانِعَ لما أعطى، ولا مُعطي لما منع.

فهو المُستقِلُ بالتَصرُّف، والمُستقِلُ بالتأثير، والمُستقِلُ بالإحياء، والمُستقِلُ بالإماتة، والمُستقِلُ بكل نوعٍ من أنواع ربوبيته -عزَّ وجَل- من غيرِ معاونةٍ من أحد، أو مظاهرةٍ من أحد، أو إذنٍ من أحد.

فهو مُستقلٌ بالإغاثة دون إذنٍ من أحد، وكذا هو مُستقل بالنصرِ، وبالإذن بالشفاعةِ، وبالإعاذةِ، وبالإعانةِ من غير إذنٍ من أحد.

وهذا لا يجوز اعتقادُه في أحدٍ إلا الله -تباركَ وتعالى- فمن جعل غيرَ اللهِ مستقلًا مُؤثرًا بذاتِه فقد وقعَ في الشركِ الأكبر، يقول أبو العباس بن تيمية -رحِمَهُ الله- عند قول الله -عزَّ وجَل-: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[الأنعام:51].

قال -رحِمَهُ الله-: اللهُ الذي خلقَ كل شيءٍ بذاته -تباركَ وتعالى-وهو الولي الذي يتولى أمرك كله، والشفيعُ الذي يكون شافعًا فيه بلا أخذِ إذنٍ من أحد، فليس للعبدِ دون الله من وليٍ مُستقل، وليس للعبد دون الله -عزَّ وجَل- من ظهيرٍ مُعين.

فلا مُغيثَ على الإطلاق، ولا مُعينَ على الإطلاق، ولا نَصير على الإطلاق، ولا مَالِكَ للشفاعةِ على الإطلاق، إلا الله -عزَّ وجَل-وَحدَهُ، ومن صَرَفَهُ لغيرِ اللهِ تعالى فقد أشركَ شِركًا أكبر مُخرِجًا من المِلة. انتهى كلامُه -رحِمَه اللهُ تعالى- وهو واضح.

22. توحيدُ الربوبية مُستلزِم لتوحيد الألوهية.

وبرهان ذلك إنكار الله -عزَّ وجَل- في قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[يوسف:106].

فسَّرها السلفُ بقولهم: أي: أنهم يعتقدون بأن الله -عزَّ وجَل- هو الخالقُ، الرازقُ، المسخُر للسموات والأرض، والمحي والمميت، ثم يعبدون غيرَهُ!.

فمن أقرَّ أن الله -عزَّ وجَل- هو الواحد في ربوبيتِه، فالواجبُ عليه لزامًا أن يُقِرَّ تبعًا أنه الواحد في ألوهيته، ومن فَرَّق بينهما فقد فَرَّق بين أمرين متلازمين.

فإذا سألت هؤلاء الكفار مَن الذي خلقكم؟ فإنهم يقولون: الله، مَن الذي رزقكم؟ يقولون: الله، مَن الذي بيده ملكوتُ السموات والأرض؟ يقولون: الله، ثم إذا قلتَ لهم: ومَن تعبدون؟ قالوا: اللات، والعُزَّى، ومناةَ الثالثةَ الأُخرى، وهذا تناقضٌ عجيب.

ولذلك قرَّرَ أهلُ السُنة هذه القاعدة؛ ليبينوا بها أنَّ كل من أقرَّ بروبيته -عزَّ وجَل- ، ووَحَّدَهُ في مقتضياتها، فالواجبُ عليه لزامًا أن يُقِرَّ مباشرةً بألوهيته ويُوَحِدَه بمقتضياتها، والله أعلم.

23. توحيد الربوبية هو البرهانُ الأعظمُ لتوحيد الألوهية.

وهذا منهج القرآن من أولهِ إلى آخرهِ، فإن الله -عزَّ وجَل- إذا أرادَ أن يستدِل على وحدانيته في ألوهيته، جعل طريقَ الاستدلالِ على ذلك وحدانيتَهُ في ربوبيتِهِ.

كما قال اللهُ -تباركَ وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾[البقرة:21] وهذا ألوهية، ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[البقرة:21] وهذا دليل ربوبية، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:21]،﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾[البقرة:22] هذا ربوبية، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[البقرة:22] هذا ربوبية، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[البقرة:22] ربوبية، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾[البقرة:22] ربوبية.

ثم استدل بهذه الربوبية، على المطلوب الأعظم وهو الألوهية في قوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22] ،وهذا من أعظم ما يُستدلُ به على وحدانيته في ألوهيته -تبارك وتعالى-، والله أعلم.

24. سَلبُ خصائصِ الربوبية عن المعبوداتِ دليلُ بُطلان إلاهيتِها، أو تقول: دليل بطلان عبادتها؛ لأن التَألُه هو التعبد.

كما قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾[مريم:42].

فالإله لا يصلح أن يكون غير سميعٍ ولا بصير، فالأعمى لا يصلح أن يكون ربًا، ولا خالقًا، ولا إلهًا، والأصم الذي لا يسمع أيضًا، لا يصلُح أن يكون ربًا، ولا خالقًا، ولا إلهًا.

وقال اللهُ -عزَّ وجَل- ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾[الحج:73]، فالذي لا يستطيعُ أن يخلق هذا المقدار الصغير، الحقير من المخلوقات، لا يصلح أن يُسجَد له، ولا يُركع له من دون الله -عزَّ وجَل-.

ثم قال -عزَّ وجَل-: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[الحج:73]، فإلهٌ يُعبد من دون الله، وهو ضعيفٌ بهذه المثابة، بحيثُ لا يستطيع أن يستنقذَ ما أخذَهُ الذباب منه، لا يصلُح أن يكون إلهًا من دون الله -عزَّ وجَل-.

وقال اللهُ-عزَّ وجَل-:﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس:74]، ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس:75] ؛ فاستدل اللهُ على بطلان إلاهيتها بسلبِ خصائص الربوبية عنها.

يقول الإمام ابن القيم -رَحِمه الله-: أخذت هذه الآيةُ على المشركين بمجامعِ الطرق التي دخلوا منها إلى الشِرك، وسَدتها عليهم أحكم سدٍ وأبلغه.

فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يَرجُو من نفعهِ، وإلا فلو لم يرج منه منفعةً، لم يتعلق قلبُه به، وحينئذٍ فلا بد أن يكون المعبودُ مالِكًا للأسباب التي ينتفعُ بها عابده، أو شريكًا لمالكها، أو ظهيرًا، أو وزيرًا، أو مُعاونًا لمالِكها، أو وجيهًا عنده ذا حُرمةٍ وقدرٍ يشفعُ عنده.

فإذا انتفت هذه الأمورُ الأربعة من كل وجه وبطلت، انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده. انتهى كلامُه -رَحِمه الله-.

فإذا أردت أن تستدلَ على بطلان ما يُعبد من دون الله، فاسلب عن هذا المعبود خصائصَ الربوبية، تنقطِعُ بذلك جذور الشرك من أساسها، واللهُ أعلم.

25. لا يصِح الإيمانُ بالربوبية، إلا بإثبات القضاءِ والقدر.

فالإيمانُ بالقضاء والقدر: هو من ربوبية اللهِ -عزَّ وجَل-؛ ولذلك قال الإمام أحمد -رَحِمه الله-: القدَرُ قُدرة الله.

فرَدَّها إلى القدرة التي هي من معاني ربوبيته؛ لأنها من معاني ربوبيته، ولأن القدرَ هو سِر الله أيضًا المكتوم الذي لا يعلمه إلا هو -سُبحانَه وتعالى-.

وقد كتبه الله -عزَّ وجَل- في اللوحِ المحفوظِ، في الكتاب المكنون، الذي لا يطلع عليه لا مَلَكَ مُقربٌ، ولا نبي مرسل.

فجميع ما قضاه الله، وقدَّره إنما يرجع إلى معنى من معاني ربوبيته؛ لأن القدر فِعلُ الله، وفِعله من جملة ربوبيته، فمن كفر بالقضاء والقدر فقد عطَّل الله -عزَّ وجَل-عن ربوبيته أي: عن فعله.

وقد تواترت الأدلة بوجوب الإيمانِ بالقضاء والقدر، مما تعرفونه ولا داعيَ لذكره.

26. إثباتُ فاعلٍ مُستقل يتنافى مع الإيمان بالربوبية.

فمن اعتقد أن مخلوقًا يستقِلُ بفعله وتأثيره، فإنه مشركٌ مع الله -عزَّ وجَل- في ربوبيته، كالرافضة الذين يزعمون أن آل البيت يستقِلون بأفعالهم، وأنهم يَعلَمون ما في اللوحِ المحفوظ، وما كتبَه الله -عزَّ وجَل- فيه.

ولهم القدرةُ، والتدبير، والتصرفُ التامُ الشامل في إدخال من شاؤوا إلى الجنة، وإدخال من شاؤوا إلى النار، وأنهم هم الذين يَقسِمون أرزاق الخلق ونحو ذلك، فهؤلاء مشركون كفار بالله العلي العظيمِ؛ لأنهم يُثبتون فاعلًا مُستقلًا بِفعله بغير تقدير الله -عزَّ وجَل-.

فمن اعتقد بأن أحدَ المخلوقات يُؤَثِّر بفعله استقلالًا، فقد اتخذه شريكًا مع الله -عزَّ وجَل-.

27. ثبوتُ تأثيرِ الأسبابِ بذاتِها يتنافى مع الربوبية.

فمن اعتقد أن الطِيَرَة تُؤثر بِذاتها، فقد أشركَ في ربوبية الله -عزَّ وجَل-، ومن اعتقدَ أن الأفلاكَ أو النجوم مؤثرةٌ بذاتها، فقد أشرك مع اللهِ -عزَّ وجَل-، ومن اعتقد أن التميمةَ تؤثِرُ بذاتها، فقد أشرك مع اللهِ -عزَّ وجَل-.

بل ومن اعتقد أن الرُقيةِ التي ثبتت سببيتها بالشرع، ولكن اعتقد أنها مؤثرةٌ بذاتها بدون تقديرِ الله -عزَّ وجَل- فقد أشرك مع الله -عزَّ وجَل- ، ومن اعتقد أنَّ مُذاكرتَه تُفيدُه النجاحَ بذاتها بدون تقدير الله -عزَّ وجَل-، فقد أشرك مع الله -تبارك وتعالى-.

فإذًا، الأسبابُ لا يجوزُ اعتقاد كونها مؤثرةً بذاتها، كما هو مذهب مُشركية الأسباب، والله أعلم.

28. الربُ معرفًا، مطلقًا، لا يُطلقُ إلا على الله -عزَّ وجَل-، لا يُطلق على غير اللهِ –تباركَ وتعالى-.

فلا يجوزُ أن يتسمى أحدٌ بالرب، بالألفِ واللام، هذا من جُملةِ الأسماء الخاصةِ بالله -تباركَ وتعالى-، ولكن يجوزُ أن تُطلِق لفظة (رب) بدون ألف، ولا لام إذا كانت مُضافة.

فتقول: ربّ الغلام، رب الدار، رب السيارة، فهذا لا حرجَ، ولا بأس فيه، إن شاء اللهُ -عزَّ وجَل-.

وأما إذا عرَّفتها بالألفِ واللام، وأطلقت، فإنها تُعتبر من جُملةِ الألفاظ الخاصة بالله - تباركَ وتعالى- كاسمِ الله، والرحمن، والإله، ونحوها، فهذه من جُملةِ الأسماء الخاصة بهذا التركيب.

وأما إذا جُرِّدت عن الألفِ، واللام وأُضيفت، فلا بأس بإطلاقها على المخلوق، واللهُ أعلم.

29. ذِكرُ مقتضياتِ الربوبيةِ في الأدلة، يُقصَدُ بها البرهان الاستدلالي، لا التقرير الابتدائي.

وهذه قريبةٌ من بعضِ القواعد التي أخذناها سابقًا، وهي أنَّ مِن الناس من إذا سمعَنا نقول: بأنَّ الرسلَ إنما بُعِثوا؛ لتقريرِ توحيد الألوهية فقط، فإنَّه يحْتَج علينا بكثرةِ الآيات التي تذكرُ توحيد الربوبية.

بل إنك لو قارنت في القران بين الآيات التي تُثبتُ توحيد الربوبية وتتكلم عنه، مع الآياتِ التي تتكلم عن توحيد الألوهية، لوَجَدْت الأولى أكثر.

فكيف تقولون: بأن الرُسلَ إنما بُعثوا لتقرير الألوهية لا الربوبية؟

فالجوابُ عنهم بهذه القاعدة: أن الرُسل، والآيات، والنصوص، إذا ذكرت شيئًا من مقتضيات الربوبية، فلا تذكره من باب التقرير الابتدائي؛ لأنه توحيدٌ فطري، لا يحتاجُ إلى تقرير، فهو من العلوم الابتدائية الجِبليّة الموجودة في النفس أصلًا.

وإنما تذكُره الرُسل من باب البرهان الاستدلالي، يعني من باب الاستدلال به على المطلوب الأعظم، وهو توحيد الألوهية.

فإذًا، ذِكرُه في الأدلةِ ليس من باب التقريرِ الابتدائي، وإنما من باب الاستدلال البرهاني.

30. الإقرارُ بالربوبيةِ مُجَرَّدةً عن الألوهية، لا ينفعُ في الآخرة.

وأنا أُقسم باللهِ العظيم، أنَّه لا ينفع صاحبه، بل يكونُ وبالًا، وعقوبةً وحُجَةً عليه يوم القيامة؛ لأنَّ من جُملَةِ ما يُقرر الله -عزَّ وجَل- به المُشركين يوم القيامة، يُقَرِرَهم بربوبيتهِ التي كانوا يُقِرون بها.

فمن ربوبيتهِ رزقُ الطيبات، يقول الله –تباركَ وتعالى-: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾[الأحقاف:20].

فقرّرَهم -عزَّ وجَل- بروبيته وجعلها حُجَةً عليهم؛ لأنهم لم يَقرِنوا ربوبيتَهُ بألوهيته.

فلا يَنتفِع العبد يوم القيامةِ، بأنه مؤمنٌ بأن اللهَ هو الخالقُ، المدبرُ، الرازق، المحيي، المميت.. هذا لا ينفع في الآخرة، ما لم يكن مقرونًا بالتوحيدِ الأعظم، وهو توحيدُ الألوهية، وهذا بإجماع أهلُ السُنةِ والجماعة.

31. عطاءُ الربوبيةِ عطاءٌ عام، وعطاءُ الألوهية عطاءٌ خاص.

ونحن نُؤمن ونجزم بأن اللهَ -عزَّ وجَل- هو المُعطي، الذي أعطى كل شيءٍ خَلقَه ثم هدى، والذي تولى أمرَ كلِ شيءٍ ورِزقَه في الدنيا والآخرة، كما قال اللهُ -عزَّ وجَل-: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[هود:108].

وعطاءُ اللهِ -عزَّ وجَل- قد يكونُ عامًا، وقد يكونُ خاصًا.

- فالعامُ: للخلائقِ أجمعين، فيستوي المؤمنُ والكافرُ في عطاءِ الربوبيةِ، بل ربما يفتحُ الله على الكفارِ من عطاءِ الربوبيةِ ما لا يفتحه على خواص عبادِهِ المؤمنين.

وأما عطاءُ الألوهيةِ فهو عطاءُ الرضا، والمغفرة، والرحمة، وهو ما يُعطيه الله -عزَّ وجَل- للأنبياءَ، والمرسلينَ، وصالحِ المؤمنين.

فمِن العطاءِ العام قول الله -عزَّ وجَل-: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه:50] ومن العطاء العام أيضًا قول الله -عزَّ وجَل-: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء:20] يعني يُمد أهلَ الجنة، وأهلَ النار من عطائهِ -عزَّ وجَل-.

فيُمد المؤمن الذي هو من أهل الجنة في الدنيا من عطائِه، ويُمد الكافرَ في الدنيا من عطائِه ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء:20].

- وأما العطاءُ الخاص: فهو عطاءُ الله -عزَّ وجَل-لأهل الجنةِ في قوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

وكما أعطى سليمان الريحَ وسخرها، وسخر له الجن، والإنس، كلهم في خدمته، وكما رزق اللهُ -عزَّ وجَل- زكريا الولدَ على الكِبَر، ورزقَ إبراهيم الولدَ على الكِبَر، هذا كله من عطاءِ الألوهية.

فعطاءُ الربوبية لا ينفعُ صاحبَه يوم القيامةِ إذا خلا عن الإيمان، وعطاءُ الربوبيةِ لا يقتضي رضًا، ولا يقتضي رحمةً، ولا يقتضي مغفرةً، ولا يقتضي توددًا منه -عزَّ وجَل-لعباده.

بخلاف عطاء الألوهيةِ الذي ينفع صاحبَه في الدنيا والآخرة، وهو عطاءُ رحمةٍ، ورضا، ومغفرة ،فلا يَغتر الإنسان بما عند الكفار من عظيمِ عطاءِ الربوبية أبدًا.

قال اللهُ -عزَّ وجَل-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الأنعام:44]، فإذاً لابدَ من التَفريق بين العطاءين، ويوضح ذلك القاعدة الثالثةُ والثلاثون.

32. عطاءُ الربوبية منفردًا عن عطاءِ الألوهية استدراج.

يعني عطاء استدراج، كما قال اللهُ -عزَّ وجَل-: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾[المؤمنون 56:55]. وقال الله -عزَّ وجَل-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[الأنعام:44]. والآياتُ في هذا المعنى كثيرة.

يقول الله -تباركَ وتعالى-: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[آل عمران:178].

فإذًا، يجبُ علينا أن نتقيَ الله -عزَّ وجَل-، فإذا فاتَك شيءٌ من بعض العطاء، فاعلم أن الله -عزَّ وجَل- قد صَرَفَ عنك شرًا، فمهما أفاضَ اللهُ عليك من عطاء ربوبيته إذا لم يكُ مقرونًا بعطاءِ ألوهيته، فاعلم أن ذلك من باب التمهيد لإهلاكك، واستدراجك، وهو تفسيرُ قول اللهِ -عزَّ وجَل-: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:182].

33. كلُّ أسئلةِ الربوبية في النصوص من باب استفهامِ التقرير.

كقولك لولَدِك إذا رسب: أولم أُخصِص لك مُدرسًا؟ أولم أُسخر لك غرفةً؟ أولم أُغدق عليك المال؟ أولم أمنع أهلَكَ من إزعاجك؟

هل هو يريد من وَلَدِه إجابة؟ أو يُقررُه بنعمه؟ يُقرِرُه من بابِ الاستدلالِ عليه في قُبحِ ما فَعل.

فالله -عزَّ وجَل- أحيانًا في القرآن يأتي سؤالٌ عن بعض مقتضيات ربوبيتِهِ، اللهُ لا يريد أن يُبيِّن معنى جديدًا قد غفلوا عنه، لا، وإنما يُريد أن يُقرِرَهم بهذا؛ ليجعله دليلًا عليهم.

إذًا، لمَ لا تؤمنون؟! فكأن الله بعد كل سؤالٍ يقول: إذًا لمَ لا تؤمنون؟! إذًا لمَ لا تعبدون؟! إذًا لمَ تعبدون غيري؟!

وذلك مِثلُ قول اللهِ -عزَّ وجَل-: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[يونس:31] يعني أفلا تُوحدونه بالعبادة؟، فالله -عزَّ وجَل- لا يُريد أن يُقرِر في قلوبِهم معنى يجهلونَه، وإنما يُريدُ أن يُقرِرهم بهذا؛ لأنه سؤال ربوبية، وكلُ أسئلةِ الربوبية تقريريةٌ، استدلاليةٌ، احتجاجية.

ومنها أيضًا قول الله -عزَّ وجَل-: ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون:85].

ثم قال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[المؤمنون:89].

فإذًا، جميعُ أسئلة الربوبية كلها من باب التوبيخ، والتقرير لهم، ويقولُ اللهُ -عزَّ وجَل-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف:87]، وقال اللهُ -عزَّ وجَل-: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[العنكبوت:61].

إذًا، هذه قاعدةُ القرآن العامة، فجميع الأسئلة الواردة في شيءٍ من مقتضيات الربوبية، فلا يريدُ اللهُ بها أن يُعلِمَهم شيئًا جهِلُوه؛ لأن هذهِ المعاني مُتقرِرَة في قلوبهم أصلًا، وإنما من باب التقرير، والتوبيخ، والاستدلال به على وحدانيتِهِ في ألوهيته.

34. العَظَمة والكبرياءُ من خصائصِ ربوبيته.

وهذه من قواعدِ أبي العباس بن تيمية رفع الله ذِكرَه وقَدره؛ ولذلك يغضب الله -عزَّ وجَل- كثيرًا على من يُريد أن يُنازِعَه في هاتين الصفتين.

يقول ابن تيمية -رَحِمَه الله-: وهذا هو حقيقةُ دين الإسلام الذي أرسلَ الله به رُسلَه، وأنزل به كُتبه، وهو أن يَستَسلِمَ العبد لله، لا لغيره.

فالمُستَسلِمُ له ولغيره مشرك، والمُمتنع عن الاستسلامِ له مُستَكبِرٌ، وقد ثبتَ في الصحيحِ عن النبي - صلى اللهُ عليه وسلم- أنه قال: إنَّ الجنة لا يدخُلها مَنْ كانَ في قلبهِ مِثقال ذرةٍ مِن كِبر، كما أنَّ النار لا يَخلُد فيها من كان في قلبِهِ مِثقال ذرة من إيمان.

فجعلَ الكِبرَ مُقابلًا للإيمان، وهذا هو الشاهِد، فإن الكِبرَ يُنافي حقيقة العبودية.

كما ثبتَ في الصحيحِ من حديث أبي هريرة، عن النبيِ - صلى الله عليهِ وسلم- أنه قال: "يقول الله –تبارك وتعالى-: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحدة منهما، قذفته في النار**» [1] .

ثم قال أبو العباس: فالعَظَمةُ، والكبرياءُ من خصائصِ الربوبية، والكبرياءُ أعلى من العظمة؛ ولهذا جعلها بمنزلةِ الرداء، كما جعل العَظَمة بمنزلة الإزار، فجعل العُليا للملبوس الأعلى، والسُفلى للملبوس الأسفل، باعتبار المخلوقين.

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، (59/4) برقم (4090) وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب: البراءة من الكبر والتواضع، ت: الأرنؤوط (273/5) برقم (4175) وأصله في صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الكبر، (2023/4) برقم (2620) بلفظ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته».

35. المُستَحِق لكل معاني الربوبية هو الموجودُ بذاتِه لا بغيره.

وذلك أنَّ الوجودَ ينقسمُ على قسمين: وجودٍ واجبٍ، ووجود مُمكن.

- أما الوجودُ الواجب: فهو وجودُ الله -عزَّ وجَل-، ونعني بالوجود الواجِب، أي: الوجود الذي لم يُسبق بعدَم، ولا يلحَقه زوال، هذا هو الوجودُ الواجب.

وهذا لا يصلحُ اتصاف غيرِ اللهِ -عزَّ وجَل- به.

- وأما الوجودُ المُمكن: فهو الوجودُ الذي سَبَقه عدمٌ، ويَلحقُه زوال، كوجودي، ووجود السماوات والأرض، ووجودك أنت، ووجود الملائكة.

مَن الذي يستحقُ معاني الربوبية؟ هو الموصوفُ بالوجودِ الواجب.

والوجودُ الواجب: هو الوجودُ بالذات، يعني أن وجودَ اللهِ -عزَّ وجَل- لم يحتج إلى وجودٍ آخر حتى يُوجد.

ولكن وجودي أنا احتاج لوجودٍ آخر لأوجد أنا، فلو لم يوجد الأبُ والأم لما وُجِد الولد، وإذا لو يُجد الولد لم يُوجد الأحفاد، ولو لم يوجد الحديد مثلًا لم توجد السيارة، ولو لم يوجد الحجارة أو الرمل، لم توجد الجبال.

فإذًا جميعُ وجودِ المخلوقات، ليس وجودًا ذاتيًا، وإنما وجودٌ بالغير، إلا وجود الله -عزَّ وجَل-، فوجودَه وجودٌ ذاتي، لا يحتاجُ إلى موجودٍ آخر ليوجَد.

فالمستحِقُ لمعاني الربوبية ليس هُو الذي يحتاج في وجودِهِ إلى موجودٍ آخر، وإنما الذي يستقِلُ بوجودهِ ذاتيًا عن غيره.

وبهذا التقرير الفلسفي قليلًا، تستطيعُ أن تُبطِلَ عند الفلاسِفةِ، والملاحِدة مذاهبهم لماذا؟ لأنهم مثلًا يصرِفون شيئًا من معاني الألوهية لبعض المخلوقات، أو الربوبية لبعض المخلوقات.

فتقول لهم: إنَّ من أخصِ خصائص الخالق ألا يحتاجَ إلى غيره، وهذا الموجود الذي أضفيتم عليه شيئًا من الألوهية والربوبية، قبل وجودِه كان مُحتاجًا لموجودٍ آخر.

فإذا أثبتَّ أنه مُحتاج أبطلت ربوبيتَه بمجرد كونِه يحتاج إلى شيء، فهذا يُبطل ربوبيته؛ لأن الرب لا يَصلُح أن يُوصف بأنه مُحتاج، فالذي يستحقُ معاني الربوبية حقًا، هو الذي لا يحتاجُ في وجودِه إلى وجودٍ آخر، لم؟ لأن وجودَه واجبٌ بالذات.

فإذًا، المستحق لكل معاني الربوبية هو الموجودُ بذاته، لا الموجود بغيره.

الآن هؤلاء يعبدون الأصنام، ويزعُمون أنها تنفع، وتضر، كيف تأتي إلى إبطالها؟ تتفق وإياهم على صِفة، وهي أنَّ الذي يصلُحُ أن يكونَ إلهًا وربًا هو الذي لا يحتاج.

بل أنت صِرت عبداً؛ لأنك مُحتاج لهذا، فحاجَتُك دفعتك للعبودية، فإذاً المحتاج هو العبد، والذي لا يحتاج هو الرب.

فنرجع إلى صنمك هذا الآن، قبل وجودِه كان مُحتاجًا لكم أنتم لتنحتوه، لتأتوا به من البرِّية، لتدخِلوه في المصانع، ثم بعد ذلك نصبتموه، لو أرادَ عدُوه أن يُكَسِّرَه لاحتاج الصنم لكم؛ لتكونوا جنودًا حولَه لتحموه.

فإذًا، هو يحتاج، فكيف تعبدونه وهو يحتاج؟! فإذا أثبت أن المعبودَ من دونِ الله يحتاج، فقد أبطلتَ بحاجتِهِ ألوهيتَه وربوبيَتَه، لِمَ؟ لأن الربَ لا يحتاج، إذا علِمتُم هذا، فاعلموا أن عندَنَا وجودَين: وجودٌ واجبٌ ذاتي، ووجودٌ ممكن.

المُستحِقُ لمعاني الربوبية، هو الموصوفُ بالوجودِ الواجب، لِمَ؟ لأننا إذا وصفنا الله بالوجودِ الواجب، نفينا الحاجةَ عنه.

وأما المخلوق فإنه موصوفٌ بالحاجةٍ لغيره، ومُجردُ حاجتهِ تُبطلُ إلاهيتَهُ وربوبيته.

المستحِقُ لمعاني الربوبية، هو الموجودُ بذاته، الذي هو مَن الآن؟ الله، لا الموجود بغيرِهِ، الذي هو مَن؟ سائرِ المخلوقات.

حتى الملائكة، أيصلُحَ أن تكونَ ربًا؟ الجوابُ: لا، لِمَ؟ لأنها احتاجت في وجودِها إلى غيرها.

والله – عزَّ وجَل- قد ذكر هذا البُرهان بقولِهِ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[الطور:35]، والمتُقرِرُ عند جميع العقلاءِ أنَّ كلَّ موجودٍ فلابد أن يكون له مُوجِد، وأنَّ كلّ فِعل لا بد أن يكون له فاعل.

فهذه السماوات والأرض، ومن فيهما، إما أن تكون قد خَلقت نفسها وهذا احتمال باطل؛ لأن قبل خلقها لنفسها عدم، والعدمُ لا يخلُق، وإما أن تكون قد وجدت من غيرِ شيءٍ، أي: صُدفة، وهذا لا يُمكن؛ لأن العادة جرت أنَّ ما وُجد صدفة فلا يستمرُ نظامه آلاف السنين، وملايين السنين.

يوجد صُدفة ثُمَ يختلط، لكن السماوات خُلقت على نظام بديع، كواكب، ومجرات هائلة، ذات ملايين النجوم لا يصطَدِم بعضها ببعض، فلا يُمكن أن توجد صُدفة.

إذًا بقينا في الاحتمالِ الثالث وهو: أنَّ هناكَ خالقًا خلقَ، هذا الخالِق لا يصلُح إلا أن يكونَ هوَ الله –عزَّ وجَل- فهذا دليلٌ على أن كلَّ مَن في السموات والأرض فهو يحتاجُ إلى مَن؟ إلى الله.

فإذًا هذا دليل يبطل إلهية الملائكة، وإلهية الأنبياء، والأصنام، والأحجار، والأولياء، وجميع ما عُبِد من دون الله، تستطيع أن تُبطله بهذا الطريق، وهو إثبات كَونَه محتاجًا لغيره.

الله –عزَّ وجَل- ذَكره في آيةٍ أخرى أيضًا، قال الله –عزَّ وجَل-: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾[يس:75]، يعني العابِد احتاج إلى أن يَنصُرَه أحد، فحمَلَتهُ حاجَتُه إلى أن يعبد هذا الصنم، فقال اللهُ –عزَّ وجَل-: أنت مُحتاج، ومن عبدته مُحتاج، فكيف محتاجٌ يعبد محتاجًا؟!

قال اللهُ –عزَّ وجَل-: ﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾[يس:75] ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ﴾[يس:75] وهم: أي من يعبُدون، لهم: أي للأصنام، مُحضرون: أي يحمون الأصنام نفسها 0ممن أرادها بسوء.

فإذًا كيف محتاجٌ يعبد محتاجًا؟! فأبطل الله –عزَّ وجَل- إلهية هذه الأصنام والمعبودات بكونِها مُحتاجة.

فهذه القاعدة قاعدة عظيمة وهي: أن المُستحِق لمعاني الربوبيةِ، إنما هو الموجودُ بذاتهِ، لِمَ؟ لأنه لمّا وصفناه بالوجود الذاتي، أبطلنا عنه الحاجة فحينئذٍ هو المُستحِق لأن يُعبدَ، والمُستحِق لكل خِصال الربوبيةِ؛ لأنه لا يحتاج، فالرب لا يحتاج.

وقد أثبت اللهُ –عزَّ وجَل- ذلك أيضًا في آيات أخرى كقولهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:56] (56) ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾[الذاريات:57]. يقول: أنا لم أحتج لهم، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات:57]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾[الذاريات:58].

إذًا هم خُلِقوا وقُدِّرت عليهم الحاجةُ ليعبدوا؛ لأن الذي لا يحتاج، لا يعبد.

نحن نعبد الله؛ لأننا نحتاجُه، نحن نحتاجُ الله في هِدايتنا، وفي ورِزقنا، وفي رحمتنا، وأن يفغِر لنا، ونحتاجُ إلى رضاه، ما يمكن أن يستغنيَ المخلوق عن الله –عزَّ وجَل- أبدًا.

وقال الله –عزَّ وجَل- واصفًا عدم حاجته: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾[الأنعام:14]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال النبيُ -صلى الله عليه وسلم- فيما روى عن الله تبارك وتعالى: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا» لا أحتاج لكم، هدايتكم لكم، ثم قال: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحد، مِنْكُمْ ما نقص ذلك من ملكي شيئا»[1].

فإذًا، اللهُ يستدلُ على ربوبيته بعدم حاجتِه، ويستدلُ على بُطلان عبادةِ ما سِواه بحاجتِهِ.

36. كلُّ نظرٍ في الربوبيةِ لا يكونُ مُوصِلًا للألوهيةِ، فهو نظرٌ عاطِل، يعني

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (16/8) برقم (6737).

عاطِلٌ عن مقصودِهِ.

كلُّ نظرٍ في الربوبيةِ لا يوصل صاحِبَه للألوهية، يعني لتوحيد الألوهية، فهو نظرٌ عاطِل، أي: أنه مُعَطَّلٌ عن المقصودِ مِنه، وحُجةٌ على صاحبهِ يوم القيامة.

وذلك لأن الله -عزَّ وجَل- أمرنا أن نتدَّبر، وأن ننظرَ في ملكوتِ السماوات والأرض، وهذا نظر ربوبية، وأمرنا أن نتفكَّر في أنفسِنا، وفي الأرض، وفي البِحار، وفي الأشجار، وفي عِلم الأجِّنة، وفيما خلقَ اللهُ -عزَّ وجَل-.

قال اللهُ -تباركَ وتعالى-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾[البقرة:164]، الآية بتمامِها، هذا أمرٌ بنظر ربوبية، أم لا؟ يعني نظرٌ في آثار ربوبيته.

وقال اللهُ –عزَّ وجَل-: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[آل عمران:191]، هذا أمرٌ بالنظرِ في آثار ربوبيته، فكلُّ أمرٍ في القرآن بالتدبُر في ملكوتِهِ، وفي آياته الكونية، وفي السَّير في الأرض، كلُّه إنما يُراد به جعلُه وسيلةً للمطلوبِ الأعظم، وهو أنك تصل بهذا النظر العظيم أنَّ خالِق هذا الكون هو المستحق للعبادة دون ما سِواه.

فمن أوصَلَه نظَرُه في آياتِ الله الكونيةِ، التي هي من آثارِ ربوبيته إلى ذلك المطلوب الأعظم، فهو نظرٌ شرعيٌ سنيّ، رحماني، توفيق من الله.

وأما مَن اقتصر على هذا النظر، وجعله مقصودًا في ذاته كما فعله الصوفية، أو كثيرٌ مِمن يتحدثون في الإعجاز القرآني، فإنَّهم مُحاضرات تلو مُحاضرات يتكلمون عن إعجاز الله في الشمس، وإعجاز الله في القمر.

ثُمَ يخرجون مِن المحاضرةِ ولا كلمة واحدة في بيان المطلوبِ الأعظم، مِن هذا النظر والتأمُل.

بل إنَّ الصوفية مبنى عقيدتهم على أن أعظم توحيدٍ خلقنا اللهُ لتحقيقه هو: الربوبية، لا الألوهية.

فيجعلون الفَنَاء في الربوبيةِ، هو المطلوبُ الأعظم، فتجدهم كثيرًا ما يتكلمون عن الشمس، والقمر، والنجوم، والأفلاك، والكواكب، والبحار، والأجِّنَة، ثم تَخرُج من ذلك بلا نتيجة، إنما تَخرُج بنتيجة أنَّ الله –عزَّ وجَل- قادر، وأنه مُبدِع، وأنه خالِق، وأنه هو الذي خلق، ثم بعد ذلك ماذا؟ نظرُهم ليس بموصلٍ لهم للمطلوب الأعظم، وهو توحيد الألوهية.

فالعلماء يصفون هذا النظر الذي انقطع في منتصفِ الطريق، ولم يوصِل صاحبه إلى المقصود الأعظم بأنَّه نظرٌ عاطِل، وحُجةٌ على صاحبه يوم القيامة؛ ولذلك اللهُ -عزَّ وجَل- أنكر على الذين يسيرون في الأرض﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[يوسف:109] أي: لِمَ لم تؤمنوا، وقد سِرتم، ونظرتم؟ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾[المؤمنون:68]، أي لمَ لا تتدبرون، ولا تؤمنون.

فهؤلاء الذين أزعجونا في القنوات الفضائية بكثرة التأليف في الإعجاز الكوني لا يصلون بالقارئ، أو السامع إلى النتيجة التي يريدها الله من نشر هذه الآيات، لا يصلون بالسامع إلى النتيجة، ويخيلون على السامع بأنَّه متى ما خرج من هذه الحلقة، أو المحاضرات أو من قراءة هذا الكتاب بإقراره بعظيم قدرة الله أن هذا كافٍ، وهذا ليس بصحيح، هو ليس بكافٍ؛ لأن قدرتهم الربوبية؛ فلا نزال في بوتقة الربوبية، لم نخرج منها إلى الآن.

ولذلك الله -عزَّ وجلَ- ما نصب آياته للتفكر فقط، بل للتفكر الموصل للألوهية، وما نصب الشمس والقمر للتفكُر في كيفية خلقهما فقط، بل بالنظر، والتأمل الموصِل لتوحيد الربوبية، وأنه واحد في ألوهيته - تبارك وتعالى-.

فإذاً، انتبهوا! إذا جئتم تُعلمون طلابكم في يوم من الأيام، أو فتح الله على أحد منكم بأن جعله مبدعًا في الكلام عن الإعجاز الكوني، والإعجاز في البحار، والإعجاز السماوي، والفلكي؛ فلا يقتصر بطلابه على مجرد النظر في هذه الآيات حتى يقول لهم في آخر كلامه: والذي أوجد ذلك على هذا النظام هو الذي يستحق العبادة دون من سواه؛ فلا إلهَ إلا هو، متى ما أوصلك النظر إلى هذه

النتيجة؛ فأنت ممتاز، وأما إذا أخطأت، ووقفت عند الوسيلة، وتركت المقصود؛ فما حققت شيئًا، وإنَّما ما أقمت الحُجة على نفسك، وعلى سامعك.

37. كلُ من ادعى الربوبية؛ فكاذبٌ دجال، وهذا متفقٌ عليه بين المسلمين.

فكلُ من زعم أنه الله، أو أنه الرب؛ فهو كاذبٌ دجال، وبأدنى نظر في قرائن أحواله يتبيَن لك كذبه، وقد أخبرنا الله-عزَّ وجل- في القرآن عن رجلين ادعيا الربوبية، والألوهية، وأخبرنا النبي-صلى الله عليه وسلم- عن رجل ثالث.

الأول: فرعون فإنه قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:24]، وقال الله-عزَّ وجل- عنه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[القصص:38]، وقال لموسى ُمهددًا: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:29].

والثاني: النمرود بن كنعان، وهو الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، وهو ملك بابل، قال الله -عز وجل- عنه:- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:258]، ونسبة الإحياء والإماتة له، نسبة للربوبية، أي: أنه ادعى الربوبية بمجرد أنْ نسب لنفسه أنه يُحيي، ويميت.

قال الإمام ابن كثير-رحمه الله تعالى- في قول الله -عزَّ وجل-: ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾[البقرة:258]، أي: في وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن ثمة إلها غيره هذا كلامه -رحمه الله-

أما الرجل الثالث فهو: الدجال لعنهُ الله؛ فإنه يزعم أول ما يخرج أنه عبد صالح، وأنه المهدي، ثم يترقى في الدعوة إلى أنه النبي، ثم يترقى بعد ذلك إلى كونه الدجال، وقد ذكر بعضُ أهل العلم أن عينه لا تنخسف إلا إذا ادعى الربوبية، وإلاَّ فإن أول أمرهِ قد يكون مختلطًا بالناس غير معروف بعلامات إلا إذا ادعى بعلاماتٍ معينة، إلا إذا ادعى الربوبية؛ فتتبيَّن حينئذٍ تلك العلامات التي بيَّنها عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم- فهؤلاء كلهم كذبة، ودجاجلة.

فإن من ادعى الربوبية، والألوهية كثير؛ فلم تخص هؤلاء الثلاثة؟ نقول: إن ادعاءهم للربوبية هو: الادعاء الذي حصلت به هذه الفتنة العظيمة، وأما من يدعي الربوبية؛ فيتم وأد فِتنتهُ في وقته، أو يُقتل، ولا يكون له أتباع، ولا يحصل به الفتنه ؛ فهؤلاء لا عد لهم، ولا حَصْر.

38. أفي الله شك؟

وهذه القاعدة تتكلم عن وجودِ الله-عزَّ وجل-.

يعني أنه لا شك في وجود الله -عزَّ وجل- ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، واستحقاقه للعبادة أبدًا، وقد دلَ على وجود الله-عزَّ وجل- الأدلة النقليةُ، والعقليةُ، والفطرية، والحسية، وقد بيَّنا ذلك في مواضع متعددة، ولله الحمد، والمنة.

أما الدليلُ الحسي فهو من وجهين:

- **في إجابة الدعوات.**
- **وفي معجزات الأنبياء.**

فإن العبد يدعو ربه فيما بينهُ، وبين نفسه، لا يسمعه ثمة مخلوق ثم يرى ما دعا به ماثلاً بين عينيه؛ فمن الذي سمعك؟ ومن الذي أعطاك؟ إنَّما هو الله؛ فاستجابة دعوات الداعين دليل على وجود الله-عزَّ وجل-.

وكذلك معجزاتُ الأنبياء: فإنها خوارق عظيمة جدًا لا يستطيعُ البشر عن بكرةِ أبيهم أن يفعلوا شيئًا منها؛ فمن الذي يستطيع أن يُخرج ناقة من جبل كما خرجت ناقة صالح منهُ؟ ومن الذي يستطيع أن ينتق الجبل من جذوعه جذوره من الأرض، ويجعله كالظلة فوق الناس؟ إلا الله، ومن الذي يقلب العصا قلبًا حقيقيًا، ثم يعيدها إلى عصا؟ إلا الله، ومن الذي أقدرَ عيسى- عليه الصلاة والسلام- أن يصنع من الطين كهيئة الطير؛ فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه، والأبرص بإذن الله، ويدعو الميت من قبره؛ فيخرج، وينفض الغبار عن رأسه؟ إلا الله - تبارك وتعالى-.

فمعجزات الأنبياء دليل على وجودِ الله؛ لأن المخلوق مهما عظمت قدرته؛ فلا يستطيع أن يفعل ذلك؛ فإذًا، إجابة الدعوات، ومعجزات الأنبياء من أعظم الأدلة الدالة على وجود هذا الرب العظيم، وأنا بدأت بالدليل الحسي لوضوحه.

وأما دليل العقل: فإن المتقرر عند العُقلاء جميعًا - وأما المجانين؛ فلا كلام لنا معهم - أن كل حادث؛ فلا بُدَّ له من محُدث، وكل مفعول لا بد أن يكون له فاعل، وهذه السموات والأرض بأفلاكها، ونجومها، ومجراتها الهائلة، وسمائها، وأرضها، وجبالها، وبحارها، وأنهارها، وأشجارها، والثقلين فيها, لا يُمكنُ أبدًا أن تكون موجودةً بنفسها، ولا يُمكن أن تكون موجودة صدفة، بل لابد أن يكون ثمةَ خالق هو الذي خلقها.

وهذا الخالق لا يصلح إلا أن يكون الله - تبارك وتعالى- لأنَّ هذه الأشياء العظيمة الكبيرة لا يستطيع هؤلاء الصغار أن يوجدُوها، ولا هؤلاء الحجارة من الأصنام أن يخلقوها؛ فلا بُد أنْ يكون وراء هذا العالم الكبير الهائل خالق أكبر، وأعظم منه، وأقدر منه، وهو الله –تبارك وتعالى- كما ذكر الله ذلك: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[الطور:35].

ولذلك يقول العلماء: لو أن قصرًا منيفًا طاف الناس به من حسن جماله، قيل للناس: إنه قصر بالأمس لم يكن موجودًا واليوم وجد، لما صدق الناس ذلك، وهو قضية قصر صغير، فكيف تصدق العقول أن هذه السموات قد وجدت بلا خالق يخلقها، ولا مدبر يدبرها، ولا مبدع أبدعها، ولا إله يسيرها؟ هذا أبداً لا تقبله العقول، ولكن سبحان من أعمى بعض العقول عن الحق، وطمس بعض الفطر عن رؤية نور الشمس.

وأما الدليل الفطري: فقد فطر الله -عزَّ وجل- كل إنسان على الإقرار بوجوده، وجعل الإقرار بوجوده من جملة العلوم الابتدائية الفطرية التي لا يُناقش فيها أحد أبدًا، بل إننا لو تركنا الوليدَ الصغيرَ ينشأ بلا تأثير بيئي جانبي، فلم يهوده أبواه، ولم ينصِره أبواه، ولم يمجسه أبواه؛ فجميع المؤثرات البيئية الخارجية منقطعة، لنشأ الطفل، وهو مقر بوجود الله -عزَّ وجل- من غير مدرسة دخلها،

ولا كتاب قرأه، ولا شيخ جلس بين يديه؛ لأنَّ هذا علم فطري لا يستطيع أحد أن ينكره من قلبه أبدًا.

وأما الدليل النقلي: فإن أدنى نظرة في القرآن والسنة، ومعرفة التشريع، وما يترتب عليه من الحكم، والمصالح الآنية، والآجلة، والدنيوية، والأخروية ليتبيَّن له تبيُّنًا عظيمًا قاطعًا بأن وراء هذا التشريع رب عظيم لا يمكن لمخلوق مهما عظم ذكاؤه أن يقرر هذا التشريع؛ فإن المخلوق الذكي، بل أذكى المخلوقات لابد أن يكون في ذكائه بعض الخروق، وبعض النواقص؛ لأنه بشر ناقص، والذي يصدر عن الناقص لا بُد أن يكون ناقصًا.

لكن هذا التشريع أتحدى أذكى الأذكياء أن يجد فيه ثغرة، أو يجد فيه عيبًا، أو نقصًا، هذا التشريع، وهذه الحكم، وهذهِ العلل المذكورة في الكتاب والسُنة لا يمكن أبدًا إلا من ربٍ حكيم، فإذًا، صدق الله -عز وجل- إذ يقول:- ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [إبراهيم:10].

39. من أطاع أحدًا الطاعة المطلقة بلا قيد فقد اتخذهُ ربًا مع الله –عز وجل-.

لأنَ الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله -عزَّ وجل- ابتداءاً ورسوله -صلى الله عليه وسلم- تبليغًا وأداء فقط، فلو أن النبي –صلى الله عليه وسلم- ثبت أنه خالف ربه في شيء من التشريعات، لكان له مطلق الطاعة لا الطاعة المطلقة، ولكن الله قال:- ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:80].

فأفاد هذا أن محمد -صلى الله عليه وسلم- لا يمكن أبدًا أن يأمر إلا بما أمر الله -عز وجل- به ، ولا ينهى إلا عما نهى الله عنه؛ فاكتساب الطاعة المطلقة للنبي -صلى الله عليه وسلم- ليس اكتسابا استقلاليا ذاتيا من نفسه، وإنما هو بأمر الله- عزَّ وجل- فإذًا الطاعة الاستقلالية المطلقة إنما هي لله-تبارك وتعالى- فمن جعل للمخلوق الطاعة المطلقة بلا قيد، ولا شرط؛ فقد اتخذه ربا.

لأن الطاعة المطلقة من خصائص الربوبية، ومن سوّى غير الله باللهِ في هذه الخصيصة؛ فقد اتخذه إلها مع الله، والدليل على ذلك هو قول الله -عزَّ وجل-:- ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة:31].

ولما سمع عدي بن حاتم هذه الآية قال: يا رسول الله، إنا لا نعبدهم لسنا نعبدهم، إنا لسنا نعبدهم فقال -عليه الصلاة والسلام-:-"أوَ ليسوا يُحلونَ ما أحلَّ الله؛ فتُحلونه، ويحرمون ما حرَّم الله؛ فتحرمونه؟ قال: نعم، قال تلك عبادتهم"[1].

أي أنكم اتخذتموهم أربابا؛ لأنكم أضفيتم عليهم الطاعة المطلقة، ومن أضفى على مخلوقٍ الطاعة المطلقة؛ فقد اتخذه ربًا مع الله، وهذه قد تنفعنا في مسألة عدم التعصب المذهبي، بمعنى أن مذهب إمامك الذي تعظِّمه كالإمام مالك، أو أبي حنيفة، أو الشافعي أو أحمد، إياك أن تضفي عليه وجوبَ الطاعة المطلقة، وإنما يطاع فيما قرره في مذهبه من طاعة الله -عزَّ وجل- ورسوله.

فإذا علمت أنه مخالف للأدلة الصحيحة الصريحة، فالواجب عليك أن تترك مذهبه في هذه الجزئية؛ فلا يطاع أحد الطاعة المطلقة الاستقلالية إلا الله –عزَّ وجل- بل عندنا قاعدة فرعية، وهي: أن من أمرك الله بطاعته؛ فإنما لهُ مطلق الطاعة، لا الطاعة المطلقة.

فأبوك له مطلق الطاعة لا الطاعة المطلقة، والحاكم له مطلق الطاعة لا الطاعة المطلقة، والزوج بالنسبة لزوجته له مطلق الطاعة لا الطاعة المطلقة، ليس لأحدٍ طاعة في معصية الله -عزَّ وجل- لذلك المتقرر عند العلماء: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، لم؟ لأنَّ المخلوق له مطلق الطاعة لا الطاعة

[1] أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة ت: بشار (129/5) برقم (3095). ولفظه: عن عدي بن حاتم، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب. فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله}، قال: (أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه). وقال: "هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث".

المطلقة، وهذا من مقتضيات ربوبيتهِ - تبارك وتعالى- أن تجعل له الطاعة الاستقلالية المطلقة.

40. الشرك هضمٌ لحقِ الربوبية.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله- قولًا بديعًا أنقله بحروفه، قال: "والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله - عزَّ و جل- وأكرهها له، وأشدها مقتًا لديه، ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه.

وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهلهُ نجس، ومنعهم من قربان حرمه, وحرَّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبينَ المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه، ولملائكته، ولرسله، وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم، ونساءهم، وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيدًا، أي: بالاسترقاق، وهذا تعليل ما مضى؛ لأنَ الشرك هضم لحق الربوبية.

وهذا لأن الشرك هضمٌ لحقِ الربوبية، وتنقيصٌ لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال - تعالى-: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[الفتح:6].

41. توحيد الله في أحكامه الكونية من مقتضيات ربوبيته، وتوحيدُ الله في أحكامه الشرعية من مقتضيات ألوهيته.

نعيدها مرة أخرى، توحيد الله في أحكامه الكونية من مقتضيات ربوبيته، وتوحيده في أحكامه الشرعية، فذلك من ألوهيته، وذلك لأنَّ الله له حكمان:

حكم كوني، وحكم شرعي؛ فمن أشرك معه في أحكامه الكونية؛ فقد أشرك معه في ربوبيته، ومن أشرك معه أحدًا مشرعًا في أحكامه الشرعية؛ فقد أشرك معهُ في ألوهيته، ومن وحَّدَه في أحكامه الكونية، فقد استقام في توحيد ربوبيته، ومن وحده في أحكامه الشرعية؛ فقد استقام في توحيد ألوهيته؛ وذلك لأن الحاكمية

المطلقة ترجع إلى من؟ إلى حاكمٍ واحدٍ، وهو الله - عزَّ وجل- ولكن إذا قالوا: توحيد الحاكمية؛ هل هو توحيدٌ مستقل، أم مندرج؟.

منهج الإخوان المسلمين يجعلونه مستقلًا، ويدعون إليه بخصوصه، ويفردونه عن بقية سائر أنواع التوحيد، ولكن منهجُ أهل السنة والجماعة يقسمون بين الحاكمية الكونية، والحاكمية الشرعية؛ فيدخلون كل واحدة منها تحت قسم من أقسام التوحيد، فالحاكمية الكونية الصادرة من الله تدخل تحت ربوبيته.

فإذًا لا داعي إلى إفرادها، وليست قسيمة للربوبية، بل هي من جملة مقتضياتها، ويجعلون الحاكمية الشرعية داخلةً تحت دائرة توحيد الألوهية، فإذاً، ليس التوحيد أربعة أقسام: الأقسام الثلاثة المعروفة مضموم إليها توحيد الحاكمية، لا، بل الحاكمية مندرجة تحت قسم من أقسام التوحيد، فإن كانت كونية فَتَحْت توحيد الربوبية، وإن كانت شرعية: فتَحْتَ توحيد الألوهية.

42. أفعالُ الربوبية معللة بالحكم، والمصالح عند أهل السنة.

أفعال الربوبية معللةٌ بالحكمِ، والمصالح عند أهل السنة - رحمهم الله تعالى- وهذا بإجماع أهل السنة والجماعة، وإنك لو نظرتَ لكثير من أفعال الله التشريعية لوجدتها مقرونة بالحكم والمصالح، كقول الله -عزَّ وجل:﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:179].

وقال الله –عزَّ وجل- لما شرَّع القصاص: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:32].

وقال -عزَّ وجل-:﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ [الحشر:7].

وقال -عزَّ وجل-:﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ حكم كوني، ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم:41] حكم شرعي.

فإذاً، لو نظرت لأحكام الله - عزَّ وجل- الكونية والشرعية، لوجدتها مُعلَّلة، لم خلق الشمس؟ لعلة، إذاً، هذا فعل كوني مُعلل، وخلق القمر لعلة، إذاً هذا فعل

كوني معلل، لماذا خلق الله الذبابة، والبعوضة، والبقة، والنحلة، والنملة، وكل شيء في الوجود؟ إنَّما خلقه لفعل كوني معلل.

لم يخلق الله - عزَّ وجل- شيئا كونيًا عبثًا، ولم يقرر شيئًا عبثًا؛ فجميع أفعاله الكونية معللة، وجميع أفعالة الشرعية معللة، إيَّاكَ أن تقْدَح في شيء من أفعال الله الكونية الشرعية؛ فإيَّاك أن تقول: هذا الحكم الشرعي لا علَّة له، بل له علة، بل قد تكون علة تعبدية، عقلك لا يدركها، إيَّاك أن تقول: هذا القلم مخلوق بلا حكمة، انتبه!

لأن الله -عزَّ وجل- خلق هذا المخلوق، صوره على هذه الصفة، لكن الله أقدر المخلوق على إيجاده، على تصويره بهذه الصفة، إذًا له حكمة، أصغر المخلوقات له حكمة؛ لذلك قال الله –عزَّ وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:26].

فجميع الأمثلة مؤهلة أن يضربها الله -عزَّ وجل- كبيرها، وصغيرها، جليلها وحقيرها، ما دام المثل يوصل الحق للناس، أي: لن يستحي الله أن يضربها للناس، ثم جاء الله-عزَّ وجل- بأصغر المخلوقات التي تراها العين: بعوضة فما فوقها، فلن يستحي الله أن يقرِّب ما يريده بالمثال، ولو كان ببعوضة, إذا خلق الله –عزَّ وجل- هذه البعوضة لحكمة يعلمها الله؛ فإياك أن تسأل الله-عزَّ وجل- لمَ خلقت هذا؟ أو ما الحكمة من إيجاد هذا؟

هذا عند أهل السنة والجماعة، وأما كثير من طوائف البدع؛ فإنهم يعطلون أفعال الله الكونية، وأحكامه الشرعية عن كثير من عللها، وحكمها، ومصالحها، حتى يقول قائلهم: لو أنَّ الله أدخل أهل الجنة النار، وأدخل أهل النار الجنة، لكان حسنًا من الله، لو أنَ الله نهى عن التوحيد، وأمر بالشرك، لكان حسنًا من الله، لو أن الله أمر بعقوق الوالدين ونهى عن البر، لكان حسنًا من الله، لم؟ لأن أمرهُ بالبر لم يكن إلا عن حكمة، ومصلحة.

وإنَّما لأنَّه الله يحكم ما يريد، ولأنَّ أمره بالتوحيد ليس لجمال التوحيد أو لحسن التوحيد، ولا لمصالح التوحيد، ولا لحكمة يعلمها الله في التوحيد، وإنَّما لأنه الله؛

فلو أنه عكس الأمر، وأمر بما كان قد نهى عنه، ونهى عما كان قد أمر بهِ لكان حسناً من الله، هل أصحاب هذا المذهب قدروا الله حق قدره؟ لا، والله.

لو أنني أنا الآن أخرجت أفعالك الكونية، وأفعالك التشريعية التعبدية عن الحكم، والمصالح لوصفتك بأنك مجنون، فالمجنون هو: الذي تصدر منه بعض الأفعال، وهو لا يقصد بها شيئًا، ولا حكمة له فيها؛ فهذا مجنون، فهؤلاء ما قدروا الله حق قدره فعلاً.

لو أنَّهم عرفوا عظيم حكمة الله، وعلمه، وخبرته، لعرفوا أن الله لا يخلق كونًا، ولا يحكم كونًا إلا بما فيه مصلحة، ولا يأمر شرعًا، ولا ينهى شرعًا، إلا عما ليس فيه مصلحة.

43. الاستعانة بالله وحده من مقتضيات ربوبيته، وعبادته من مقتضيات ألوهيته.

الاستعانة بالله وحده من مقتضيات ربوبيته، وعبادته وحده لا شريك له من مقتضيات ألوهيته، والله -عزَّ وجل- يربينا في كل صلاة على الإقرار بالتوحيدين:﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة:5]، وهذا تحقيقٌ للألوهية،﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:5]، وهذا تحقيق للربوبية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى-: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إشارة إلى عبادته بما اقتضته إلهيته من المحبة، والخوف، والرجاء، والأمر، والنهي، إذًا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾،يحقق بها العبد توحيد الألوهية بمقتضياتها.

ثم قال - رحمه الله-: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إشارة إلى ما اقتضته الربوبية من التوكل، والتفويض والتسليم، فكلما سمعت الإمام، أو قرأت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]؛ فاعلم أنك تجمعُ بين التوحيد بالمقتضيين المذكورين.

44. لا رازق على الحقيقة إلا الله.

كما قال- تعالى-:﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[يونس:31].

وقال الله -عزَّ وجل-:﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[النمل:64].

وقال الله-تبارك وتعالى-:﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[فاطر:2].

وقال الله –عزَّ وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[فاطر:3].

وقال الله-عزَّ وجل-:- ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾[الملك:21].

45. رزقُ المخلوق رزقٌ تابعٌ سببي، لا ابتدائي تقديري.

بمعنى أنه قد يُعترض علينا في القاعدة الأولى بأن المخلوق وُصف بأنه يرزق كقول الله - عزَّ وجل:- ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾[النساء:8].

فوصف المخلوق بأنه يرزق، فحينها تجيب بهذه القاعدة، وهي أن المخلوق، ولو وصف بأنه يرزق غيره، ولكنه ليس رزقًا ابتدائيا تقديريًا إيجاديًا، إنَّما رزق تابع سببي، بمعنى لو لم يقدر الله - عزَّ وجل- أن يجري رزقك على يد هذا المخلوق، لما وصل إليك شيءٌ من الرزق.

فأنظر إلى من يعطيك شيئاً من الرزق من المخلوقات على أنه سببٌ يسره الله- عزَّ وجل- لك في وصول ما أراده لك من الرزق، وطوبى لمن لم ينظر للمخلوقين في أرزاقهم إلا نظرة سببيةٍ فقط، فإياك أن ينقدِح في ذِهنك أنه هو الذي قدّر، أو ابتدأ الرزق من عند نفسه، وإنما الرازق ابتداءا، وتقديرًا هو الله-

عزَّ وجل- وهذا هو معنى قولنا: لا رازق على الحقيقة، قولنا: على الحقيقة، يعني: ابتداءا تقديريا إلا الله –عزَّ وجل-.

وأما الرزق الذي يوصف به المخلوق؛ فهو الرزق التبعي: بأمر الله، والسببي: يعني أن الله قد جعل هذا المخلوق سببًا لإيصال ما كتب لك في اللوح المحفوظ من الأرزاق، فإذًا رأيت الإنسان يوزع الرواتب؛ فاعلم أنه لم يرزق الناس هذه الرواتب، وإنَّما صار سببًا في إيصاله هذه الرواتب للناس.

وإذا ذهبت إلى الأمير، وسألته، وأعطاك شيئا من المال؛ فإياك أن تظن أنه أعطاك تقديرًا! لا، وإنَّما الله كتب لك هذا المال، وسخر لك شيئا واحدا من أسباب كونه؛ ليوصل لك هذا المال؛ فإذًا فما يسلمه المخلوق للمخلوق من الرزق، إنما هو شيءٌ تابعٌ لمراد الله، وسببي أراد اللهُ أن يجعله سبباً لإيصال ما كتب لك, إذًا من الرازق على الحقيقة؟ من الرازق تقديرًا ابتدائيًا؟ الله - تبارك وتعالى-.

ولذلك يقول النبي-صلى الله عليه وسلم- لابن عباس: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**» [1].

وذلك حتى يُفرِّق بين الرزق، والنفع، والضُر السببي، والتقديري: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأمة لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ**».

إذًا، فالله ينفع عبده نفعًا ابتدائيا تقديريًا، والمخلوق ينفع غيره نفعًا تابعًا سببيا، الله يكتب ابتدائيًا، وخلقًا، وتقديرًا الضر على عبده لحكمة يعلمها، ولكن قد يكون هذا الضر قد يصلك على يد أحد من الناس؛ فالمخلوق ضرك ضررًا تبعيًا سببيًا لا ابتدائيًا تقديريًا, فإذًا، ما يوصف الله به هو الشيء مبتدأ، هو الشيء تقديرًا، وما يوصف المخلوق به هو الشيءُ تبعًا، أو الشيء تسببًا.

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب.. ت بشار (248/4) برقم (2516). وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

46. مشيئة الله مشيئةٌ تقديرية ابتدائية، ومشيئةٌ العبد مشيئة تابعة سببية.

كما قال الله -عزَّ وجل-:﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:253].

أوَلم يشاؤوا هم الاقتتال؟ شاؤوا الاقتتال، ولكن مشيئتهم للقتال سببية تابعة، وإنَّما الذي شاءها تقديرًا، وإيجادًا هو من؟ الله, فلو لم يشأ الله في السموات أن يقتتلوا؛ فإنهم وإن شاؤوا أن يقتتلوا فلن يحصُل الاقتتال، وإذا شاء الله-عزَّ وجل- في السموات أنهم سيقتتلون؛ فسيحصل الاقتتال، حتى ولو لم يشاؤوا ذلك.

كما نشب الاقتتال مع بعض الصحابة، وهم ما أرادوا ذلك، وإنما أراده الله- سبحانه وتعالى- لحكمة يعلمها، وهم لا يريدونه أصلاً، يريدون الصلح، وتنتهي المسائل، ولكن نشب القتال لأمر يعلمه الله –عزَّ وجل- وحكمة اقتضاها؛ فإذا صارت المشيئة الابتدائية التقديرية يملُكُها من؟ الرب - تبارك وتعالى- وأما مشيئتك أنت التي تشاءها؛ فهي مشيئة تابعة لمشيئة الله، وسببية لتحصيل ما شاء الله أن يأتيك، ويبين ذلك قول الله -عزَّ وجل-:﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[التكوير:29]؛ فجعل مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله-عزَّ وجل-.

المشيئة يراد بها الإرادة الكونية، لا توصف الإرادة الشرعية بالمشيئة، وإنما توصف بالمحبة، وهذا التنبيه لماذا؟ لأنَّ من الناس من يقول: إن الله يشاءُ الإيمان مني، وأنا أشاء الكفر؛ فوقعت مشيئتي، ولم تقع مشيئة الله.

يقول: إن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الإيمان؛ فلما تعارضت المشيئتان غلبت مشيئة من؟ العبد؛ فكيف ذلك؟ هذا الذي جعل المعتزلة القدرية يخرجون الكفر عن كونه مراداً لله، حتى لا يثبتوا تعارض المشيئتين، مع غلبة مشيئة العبد.

وأصلُ الغلط أنهم وصفوا محبة الله، وتشريعه بالمشيئة، وهذا خطأ، الله أراد شرعًا الإيمان من الكافر، وهل الإرادة الشرعية لابد أن تقع؟ قد تقع، وقد لا تقع؛ فالله يحبُ الإيمان من الكافر، لكن ليس كل شيء يحبه الله لابد أن يقع، فهم

وصفوا المحبة والإرادة الشرعية بالمشيئة التي لابد أن تقع، فإذا شاء الله الإيمان من الكافر فلابد أن يقع الإيمان!

ومع ذلك في الحقيقة أن الإيمان لم يقع؛ فإذًا غلبت مشيئة الكافر مشيئة الله نقول: لا أنتم أخطأتم في إطلاق المشيئة على الإرادة الشرعية، والمحبة، فإذًا؛ الله شاء الإيمان من الكافر، ولم يحبهُ، ولم يرضه شرعًا، ولكن إذا لم يؤمن؛ فليس بلازم؛ لأن الإرادة الشرعية قد تقع، وقد لا تقع؛ ولذلك قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:99].

قال الله: لا أحد يستطيع أن يتخلف عن الإيمان لو شئت كونا أن يكون مؤمنا, ولما قلبها من كونها شرعية إلى كونها كونية، لما استطاع أن يتخلف عن الإيمان، لو شئت كونا أن يؤمنوا لآمنوا جميعاً، لا يمكن أن تتعارض مشيئتهم مع مشيئتي، ولكن الإيمان منهم لا أشاؤه كونًا، وإنما أحبه شرعًا؛ فقد يؤمن بعضهم ويكفر بعضهم، فالمشيئة لابد أن تقع، أما الإرادة الشرعية فقد تقع، وقد لا تقع، وهذا هو المبدأ الغلط الذي وقعت فيه القدرية، وهي الخلط بين المشيئة، والمحبة، والخلط بين الإرادة الكونية والشرعية.

47. الحسنات والسيئات تنسب إلى الله خلقًا وتقديرًا، وتنسب إلى العبد تسببا واكتسابا.

متى ما أطلق القرآن الحسنة والسيئة، اعلموا أنَّه يريد بها الأمور الكونية التي ينتفع بها الناس، أو يتضرر بها الناس.

فالمطر من الحسنات، والقحط من السيئات، الانتصار في الحروب من الحسنات، والهزيمة من السيئات، الزلزال سيئة، فمصطلح الحسنة والسيئة في القرآن، يعني الشيء النافع، والشيء الضار، لا يقصدُ بها المعصية، أو الطاعة فكما قال الله -عز وجل-:-﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾[النساء:78]، وكما قال الله -عز وجل-:﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[النساء:79].

فمتى ما وردت الحسنات والسيئات من القرآن؛ فاعلم أن المراد بها الأمور النافعة، أو المصائب الكونية، فالموت مصيبة من السيئات، والحياة والإنجاب من الحسنات، المرض من السيئات، والصحة من الحسنات.

إذاً فما يصيب الناس من الخيرات، وما يصيبهم من المضرات، هل ينسب إلى من؟ إلى لله، أو إلى أنفسهم؟ قالت هذه القاعدة: لا ننسبها إلى الله مطلقًا ولا ننسبها إلى المخلوقات مطلقًا، بل فيه تفصيلٍ؛ فالحسنات، والسيئات تقديرًا، وخلقًا، وإيجادًا تنسب إلى من؟ إلى الله.

فهو الذي خلق المطر والقحط، وخلقَ الانتصار والهزيمة، وخلق الصحة والمرض، وخلق الموت والحياة، وخلق القرب والبعد، والحب والبغض، الحسنات والسيئات، خلقًا وتقديرًا من الله، لكن إذا أصابتك سيئةٌ أي مصيبة؛ فهنا تنسب إليك أنت تسببًا، يعني بما كسبت يدك أنت، أي: أنك أنت المتسبب فيها، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[فصلت:46].

وإنما يصيب العبد من السيئات كالقحط بسبب شؤم معصية بني آدم، كالانهزام في الحروب، بسبب المعصية التي يرتكبونها مثلًا، أو الموت: موت الأولاد قد يكون بسبب شؤم معصية يرتكبها أبوهم.

المرض قد يكون بسبب معصية ترتكبها أنت؛ فإذًا، الحسنات والسيئات تنسب إلى الله، خلقًا وتقديرًا، وتنسب إلى العباد اكتسابا أو تسببًا؛ ولذلك وردت في القرآن آيتان، يظن الجاهل أنهما متعارضتان:

الآية الأولى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء:78].

فإذًا، فرّق بين الحسنات والسيئات، أم لم يفرق؟ أجيبوا يا إخوان، فرّق الله، هل رضي اللهُ بهذا التفريق، أو أنكره؟.

الجواب: أنكره؛ فقال: قل كل من عند الله، انتهت، الآية التي بعدها قال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[النساء:79].

فصَّل هذا؛ فكيف ينكر عليهم التفصيل ؛ وقد فصل هو؟! هذا يظن بعض الناس أنه متعارض، لا تعارض فيه؛ لأن نسبة الحسنات والسيئات في الآية الأولى نسبة خلق، وتقدير، وإيجاد وتقدير.

و نسبة الحسنات والسيئات في الآية الثانية: هي نسبة تحصيل، واكتساب، فلما أضاف المشركون السيئة إلى رسول الله تقديرًا، وتطيرا كما قال الله-عزَّ وجل- عن بني إسرائيل:﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾[الأعراف:131].

قال: ما أصابنا إلا بوجودك أنت بيننا، ووجود الصالح ليس سببًا للسيئات، بل سبب للحسنات؛ فلما كانت نسبتهم إليه نسبة تقديرية قال: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[النساء:78]، أي: خلقًا وإيجادا وتقديرا، لكن لما جاءت النسبة إلى الثانية صارت نسبة تحصيل واكتساب ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النساء:79] فضلًا.

﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[النساء:79] تحصيلًا، واكتسابًا، لا تقديرًا وإيجادًا، إذًا فالنسبة في الأولى نسبة تقدير؛ فأنكرها الله، والنسبة في الثانية نسبة تحصيلٍ واكتساب؛ فأقرَّها الله، فلا إشكال في ذلك إذًا، فالحسنات والسيئات تنسب إلى الله، أم إلى المخلوق؟ إلى الله تقديرًا، وإيجادا، وإلى المخلوق تسببًا واكتسابًا.

48. لا يكون في كون الله إلا ما يريد بإرادته الكونية.

كل هذا من مقتضيات الربوبية، فجميع ما تراه ماثلًا أمام عينيك في السماوات وفى الأرض مما هو موجودٌ في كون الله -عز وجل-، فإنه يجب عليك أن تعلم أنه لم يوجد إلا بعد أن أذن الله فيه كونًا، فكل موجودٍ فلا بد أن تدخله تحت دائرة الإرادة الكونية، لكن لابد أن تعلم أن الإرادة الكونية لا تستلزم محبة الله -عز وجل-، فإذا كان الموجود في الكون مما لا يحبه الله ولا يرضاه، فهو موجودٌ بالكونية فقط، لا الشرعية، كالكفر، والزنا، وسائر الذنوب، والمعاصي. وإذا كان الموجود في كون الله محبوبًا لله -عز وجل-، فزد على كونه كونيًا أنه شرعي، فهو كوني لوجوده في الكون، وشرعيٌ لمحبة الله له، ولذلك يجتمع الأمران، تجتمع الإرادتان أحيانًا في الشيء، كإيمان أبى بكر هو كوني باعتبار وجوده، ووقوعه كونًا، وشرعي؛ لأن الله يحبه ويرضاه، وقد تنفرد الكونية عن الشرعية، ككفر أبى لهب، أليس كذلك؟ فإنه موجود بإرادة الله الكونية، لكن الله لا يرضى لعباده الكفر، فليس كل شيء موجودٍ أمامك يعتبر داخلًا تحت المحبة، والرضا، فإنك إذا قلت ذلك أو اعتقدت ذلك فإنك تجد من المشاكل والأسئلة، ما لا جواب لك عليه، لكن كل شيءٍ موجود تنظر إليه، فإن كان مما يحبه الله ويرضاه، فهو موجود كونًا وشرعًا، وإذا كان مما لا يحبه الله ولا يرضاه، فهو موجود بالإرادة الكونية فقط، فإن قيل لك: هل المعاصي يريدها الله أو لا يريدها؟ الجواب: يريدها بإرادته الكونية، ولا يريدها بإرادته الشرعية، فإن قلت: ولماذا، وهل يتصور الانفصال بين الإرادتين؟ نقول: نعم، فإننا نحن في مراداتنا قد نريد شيئًا ولا نحبه، أليس كذلك؟ الذهاب للدوام يوميًا هذا شيءٌ نريده نحن، ولكن هل ثمة مَن يحبه؟ إلا نادرًا من الناس، لكنك تذهب له وتقتل محبة قلبك؛ لأنك تعلم المصلحة المترتبة على الذهاب إليه، كذلك الطلاب يذهبون إلى المدرسة أهو ذهاب محبة ورضا؟ الجواب: لا، لكنهم يعلمون المصالح المترتبة على ذهابهم، فهم يريدونها، ولا يحبونها، فإذًا الله -عز و جل- قضى الكفر بإرادته الكونية ولا يحبه بإرادته الشرعية لما يترتب عليه من المصالح، والحِكم، والعلل التي لا يعلمها على وجه التفصيل إلا مَن؟ إلا الله -تبارك وتعالى-، فإن قلت: وما تعلق هذا بتوحيد الربوبية؟ نقول: لأن لها تعلق بالقدر الذي هو فعل الله، وفعله من

مقتضيات ربوبيته، فمفعولاتهُ بفعله قد يريدها بإرادته الشرعية، وقد يريدها بإرادته الكونية.

49. الفعال لما يريد هو المستحق لكل معاني الربوبية، وهو مَن؟ الله -عز وجل-.

ودليل ذلك قول الله –تبارك وتعالى-: ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[هود:107]، وقول الله -تبارك وتعالى-: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[الأنبياء:23]، فالذي يستحق أن يكون ربّاً هو الذي يفعل ما يريده، من غير أخذ إذنٍ من أحد، ولا مشاورة أحد، وليست قدرته في فعله خاضعةً لشروطٍ ولا لأسباب._

50. أفعال الرب في خلقه إن كانت كما يريدون فواجبها الشكر، وإن كانت في غير ما يريدون فواجبها الصبر.

أفعال الله إن كانت في الشيء الذي نحبه، ونريده، وتهواه نفوسنا فواجبنا تجاه فعله هذا أن نشكره، وأن نحمده، وإذا كان فعله فينا مما لا نحبه ولا نريده، فواجبه الصبر، واحتساب الأجر، والرضا، كما في صحيح مسلم من حديث صهيب، قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر، وإن إصابته ضراء صبر، وكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»[1].

وهذا تقرير لهذه القاعدة، وهو دليلها.

وقال الله -عز وجل- ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾[التغابن:11]، إذًا هذا واجبه، يعلم أنها من الله فيرضى ويسلم.

51. من أنكر علو الله على خلقه فقد عطل ربوبيته.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير (2295/4) برقم (2999).

فكل من زعم بأن الله -عز و جل- ليس بعالٍ على خلقه علو ذات، فإنه قادح في ربوبيته -تبارك وتعالى-، وإن من أعجب العجيب أنه لم يؤمن بهذه الصفة علي مراد الله فيها إلا طائفة واحدة وهم أهل السنة والجماعة، وهي الصفة الوحيدة التي أثبتها الله في النصوص الشرعية بأكثر من ألف دليل، سماها ابن القيم الجيوش الإسلامية ثم جمعها في كتاب سماه (اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية)، يقصد تلك الأدلة الكثيرة في إثبات علو الله -عز وجل-، فالكتاب من أوله إلى آخره يتكلم عن صفةٍ واحدة، واستدل عليها من القرآن، ثم استدل عليها من السنة، ثم استدل عليها من الفطرة، ثم استدل عليها من العقل، والنقل، واستفاض في الاستدلال عليها حتى بيّن أن الأدلة عليها أكثر من ألف دليل، حتى إنه من كثرة أدلة علو الله لم يعد العلماء من أهل السنة يذكرونها بأفرادها، إنما يذكرونها بأنواعها، فيقولون: كل دليل يدل على أن الأشياء تنزل منه فهو دليل على علوه، كل دليل يدل على إثبات أن الأشياء تصعد إليه فهو دليل على علوه، من شكك، أو عطل الله عن علوه، فقال: إن الله ليس بعالٍ بذاته، إنما هو عين العالم متحدة ذاته في ذاته، أو أنه حال في كل مكان، فقد عطل ربوبية الله -عز وجل- لوجوب المباينة بين ذات الخالق وذات المخلوق، وأظن أخذنا شيئًا من ذلك قبل هذا، لكننا نربطها الآن بالعلو فنؤمن بأن الله عال بذاته، لماذا أقول: الله عال بذاته؟ لأن أهل البدع يثبتون العلو لله، ولكن علو القدر وعلو القهر، وهذا لا خلاف بيننا وبينهم في إثباته، لكن الخلاف بيننا هو علو الذات، فنحن نثبته على الوجه اللائق بالله فنعتقد - معاشر أهل السنة والجماعة - أن لله علوّاً بذاته، أن الله له العلو المطلق بذاته كما يليق بجلاله وعظمته، وهم ينكرون هذا، وسبب نكرانهم له أن العلو يستلزم إثبات الجهة، والجهة منتفية عن الله، وقد بينّا أن لفظ الجهة إثباتاً أونفياً لفظ مجمل، لا نثبته مطلقا، ولا ننفيه مطلقا، ولا ينبغي تعليق ما وردت به النصوص المتواترة على بعض العبارات المجملة المبتدعة، فمن عطل الله عن علو ذاته فقد عطل الله عن ربوبيته شاء أو أبى.

52. من عطل الله عن عموم علمه فقد عطل ربوبيته.

لأن من مقتضيات الربوبية عموم علمه -تبارك وتعالى-، فمن أنكر صفة العلم أصلًا، أو حرّفها، أو أخرجها عن مدلولها الصحيح كالمعتزلة، أو أثبت أصلها وأنكر كلها كالفلاسفة، فقد عطل الله -عز وجل- عن ربوبيته، إما كمالًا، أو جزءاً، فهاتان صفتان متلازمتان، من قدح فيهما كليهما، فقد قدح في ربوبية الله -عز وجل- كلها، ومن قدح في شيء من أجزائها فقد قدح في ربوبية الله بقدر القدح فيها، وهى علو الله وعلم الله؛ لأن من أخص خصائص الربوبية علوه على خلقه و مُباينته لهم، وعلمه بمن خلق؛ لأن الرب هو السيد، المالك، المتصرف، فكيف يملك وهو لا يعلم؟ وكيف يتصرف وهو لا يعلم؟ وكيف يدبر وهو لا يعلم؟ فحسن التدبير مناطه العلم، فإذًا فمن قدح في علم الله، فقد قدح في ربوبية الله؛ ولذلك تجد أن بعض الآباء وهو رب الدار إذا كان جاهلًا، وليست عنده القدرة التعليمية، ولم يتعلم، ولم يأخذ الدورات في التعليم، ربما يخطئ في تربية أولاده، والرب هو المربي، فإذا أنكرنا علم الله -عز وجل-، وقلنا: هو عليم بلا علم كما تقول المعتزلة، أو أنكرنا علم الله بالكليات، كما يقول الفلاسفة: كابن سينا، وغيره، فهؤلاء يقدحون في ربوبية الله -عز وجل- لأن من يدبر أمر هذا العالم، ويصرّفه، وأزمة أموره بين يديه، كيف يوصف بأنه ليس بعالم؟ هذا قدحٌ في ربوبيتهِ.

فإذاً هانان الصفتان عضوا عليهما بالنواجذ، والقدح فيهما قدح في ربوبية الله.

53. قل لله الشفاعة جميعًا.

وهذا؛ لأن المدبر والمتصرف في الدنيا والآخرة إنما هو الله -تبارك وتعالى-، ومن جمله التدبير، والتصريف في الآخرة، إقامة شيء اسمه (الشفاعة)، فلا يملك أحد أن يشفع بين يدي الله -عز وجل-، ولا أن يدبر أمر شيء من الشفاعات إلا بعد أخذ الإذن والرضا من الله -عز وجل-، فمن زعم أن مخلوقاً يملك الشفاعة استقلالًا بدون إذن الله، فقد اتخذ هذا المخلوق شريكاً مع الله؛ لأنه وصفه بالتدبير في الآخرة؛ ولذلك الشفاعة التي يظنها المشركون في أصنامهم، وأوثانهم منتفية، ودليل هذه القاعدة هي قول الله -عز وجل-: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر:44]، وقول الله -عز وجل-: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء:28]، وقول الله -

عز وجل-: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[البقرة:255]، فشفاعة متعلقة بروبيته؛ لأنها داخلة تحت تدبيره وتصريفه في أمر الناس في الآخرة، فلا يجوز أن نعتقد أن احدًا يملك هذه الشفاعة غير الله -تبارك وتعالى-، فلا يستطيعها ابتداءً، ولا استقلالاً، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولي صالح، حتى النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يُمكّن من الشفاعة العظمى إلا بعد أن يأتي فيخر ساجدًا تحت عرش الله، فيفتح الله عليها من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد من قبله حتى يقال له: يا محمد ارفع راسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع.

جاء الإذن، ربى أُمَتِي أمتي، ما في أحد يستطيع أن يشفع بين يدي الله -عز وجل- أبدًا؛ ولذلك ما يظنه المشركون في أوثانهم، ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[الزمر:3]، (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) فهم يثبتون الشفاعة لغير الله ملكاً استقلاليّاً بدون أمر الله، فوصفهم الله بالشرك، والكفر، و أبطل شفاعتهم بسبب هذا الاعتقاد، فمن أثبت الشفاعة الاستقلالية لغير الله، فقد اتخذه ربًا مع الله -عز وجل- والعياذ بالله.

54. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)﴾[يس:82].

وهذه قاعدة من قواعد الربوبية أيضًا؛ لأنها متعلقة بفعله -عز وجل-، فأمره بفعله، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، وهي قاعدة ودليل في نفس الوقت؛ لأنها متطابقة مع نص الدليل في قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[يس:82]، وفى آية أخرى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[النحل:40]، وقال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[آل عمران:59]،

ويقول الله -عز وجل- مبينًا عظيم قدرته، أن الأشياء تخضع له من حين ما تسمع منه (كن)، فتكون بأمره وقدرته: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾[فاطر:44]، لماذا بدأ بالسموات قبل الأرض هنا، مع أن هناك آيات أخرى بدأ فيها بالأرض قبل السماوات؟ قالوا: لأن

الأشياء، والأجرام الكبيرة التي تُعجز غالبا في السماوات أو في الأرض، فلما نفى عجزه بدأ بنفي العجز عن الأشياء الكبيرة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾[فاطر:44]، يعنى إذا لم يكن يعجزه شيء من الأجرام الهائلة في السموات، والتي الأرض لا تكون عندها إلا كقطعة حجر عند جبل كبير، فكيف يعجزه شيء في الأرض؟ لكن لما جاء في قضية الأعمال التي يفعلها الناس في الأرض، قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ﴾[يونس:61]؛ لأن الأعمال كلها في الأرض، وليست هناك في السماء أعمال مكلفين، إنما أعمال ملائكة، فإذا كان الأمر المراد نفيه في السماء، فيبدأ بالسماء قبل الأرض، وإذا كان الأمر المراد نفيه في الأرض، فيبدأ بالأرض قبل السماء، الشاهد من هذا أن الله -عز وجل- لا يعجزه شيء من أمر مملكته، ولا تدبيرها، ولا يحتاج إلى استشارة، ولا إلى استئذان، وإنما هي (كن)، فإذا أراد الشيء أن يكون ويتكون فيقول له: كن، فهذا من جملة ربوبيته وكمال قدرته -تبارك وتعالى-.

55. صفات الربوبية مستحقة لله تعالى قبل وجود آثارها.

وهو الذي يعنيه الإمام الطحاوي بقوله: له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق، فكما أنها لا يزال على صفاته أبديًا، فكذلك لا يزال عليها أزليّاً، يعنى ليس بعد خلق الخلق استحق اسم الخالق، بل هو مستحق للخالق وصفة الخلق قبل أن يوجد من يخلق، وليس اسمه الرحمن لم يستحقه إلا بعد وجود المرحوم، بل هو الرحمن قبل وجود المرحوم، وهو التواب قبل وجود الذنب، وهو الغفار قبل وجود الشيء الذي يغفر، فليس الآثار دليل الابتداء، فهو متصف بمعاني ربوبيته قبل وجود آثارها، فالخلق من معاني الربوبية، فهو موصوف بأنه خالق قبل أن يُخلق أحد، والملك من معاني الربوبية، فهو المالك اسمًا وصفة قبل وجود المملوك، فليس بعد وجود المملوكات استحق صفة الملك،

ولا بعد وجود المخلوقات استحق صفة الخلق، ولا بعد وجود المدبَّر والمتصرف فيه استحق صفة التدبير والتصريف، بل له معاني الربوبية قبل وجود آثارها.

توضيح: متى توصف بأنك متزوج؟ بعد الزواج، متى توصف بأنك أب؟ بعد الولادة، إذًا لم تستحق هذه الصفات إلا بعد وجود آثارها.

طيب، الله -عز وجل- متى استحق صفة الخلق؟ لا أزلًا ولا أبدًا، لا ينفك عنه هذا، لا أزلًا ولا أبدًا، ليس بعد وجود المخلوق صار خالقًا، ولا وجود المربوب صار ربًا، بل هو الرب قبل وجود المربوب، والخالق قبل وجود المخلوق، فهمتموها؟ لم؟ لأن هناك من الطوائف من يزعم بأن الله -عز وجل- إنما يتصف بهذه الصفات بعد وجود أثارها، وهذا خطأ محض في حق الربوبية، فإذًا مقتضيات الربوبية من الملك والأحياء، والإماتة، والتدبير، والخلق، والرزق، كلها لله متصف بها قبل وجود آثارها.

يقول العلماء: فالله تعالى يوصف بالربوبية بكل مقتضياتها بلا ابتداء ولا انتهاء.

فهو رب العالمين قبل وجود العالمين، وحال وجود العالمين، وبعد فناء العالمين، وهو الرازق قبل وجود المرزوق، وحال وجود المرزوق، وبعد فناء المرزوق، وهو المحيي والمميت قبل وجود حياة المخلوقين، وحال فنائهم عن بكرة أبيهم والله أعلم.

لا تتعلق صفاته أو ربوبيته بوجود أحد أو فناء أحد.

56. الله موصوف بالغنى الذاتي، كما أن المخلوق موصوف بالفقر الذاتي.

والغنى من مقتضيات ربوبيته؛ لأن الفقير المعدم يحتاج إلى غيره، والحاجة تتنافى مع الربوبية، فمن يحتاج لا يصلح أن يكون ربًا، فالله -عز وجل- هو غنيّ بذاته عن كل خلقه، من أجل ذلك لم يتخذ صاحبةً، ولا ولدًا، ولا وزيرًا، ولا خليفًا، يدبر شئون مملكته ويعينه أو يكون له ظهيرا على شيء من التدبير أو التصريف، فإذا قيل لك: لِم نزّه الله عز وجل- نفسه عن صفة الولادة، والزوجية، والوالدية، والمولودية، ولا والدة، ولا ولد، ولا زوجة، لم؟ لكمال غناه –عز

وجل- عن كل أحد، فلأنه الغني بذاته فلا يمكن في طرفة عين أن يحتاج إلى أحد من خلقه؛ ولذلك إياك أن تستشعر المنة على الله -عز وجل- في شيء من تعبداتك؛ لأن استشعارك بالمنة استشعار لحاجة الله -عز وجل- لهذه العبادة، أو هذا السجود، أو الركوع.

لله عبيد غيرك يركعون ويسجدون غير سجودك وركوعك، فليس محتاجا لا لعبادتك ولا ركوعك؛ لذلك يقول الله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾[يونس:23]، وقال الله -عز وجل-: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[الجاثية:15]، ويقول الله -عز وجل-: إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولا تبلغوا ضري فتضروني، وقال -عز وجل-: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات:57]،

وقال الله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾[الأنعام:14]، فكما أن الله هو الغنى بذاته عن كل أحد، فالمخلوق هو المفتقر لله الافتقار الذاتي، فلا يمكن أن تنفك صفة الغنى عن الله، للمخلوق طرفة عين، ولا يمكن أن ينفك فقر المخلوق عن الخالق طرفة عين، حتى وإن بلغت ما بلغت من الأموال ومن الصحة والعافية فلا تزال ذلك العبد المفتقر الافتقار الذاتي، الذي لا يمكن أن ينفك عنك بسبب كثرة مال، أو وفور صحة، أو كثرة أولاد، وعشيرة، أنت الفقير إلى الله -عز وجل- الفقر الذاتي، والله هو الغنى عنك الغنى الذاتي .

57. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44) ﴾[فاطر:44].

تجدون أغلب القواعد داخلة تحت دائرة التدبير والتصريف، أليس كذلك؟ الجواب: نعم، وهذا من مقتضيات ربوبيته لم؟ لأن العاجز لا يصلح أن يكون ربّاً، ولا خالقًا، ولا إله من دون الله -عز وجل-، ولذلك استدل الله على بطلان الإلاهية غيره بأنه عاجز، قال الله -عز وجل-: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا﴾[فاطر:14]،إذا تدل على العجز، قال الله عن إبراهيم: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾[مريم:42]، وقال الله -عز وجل-

: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[الأعراف:191]، أيضًا عجز، لو كانوا يخلقون أنفسهم لخلقوا أنفسهم، لكن هم عاجزون عن أن يخلقوا غيرهم ابتداءً، أو أن يخلقوا أنفسهم ابتداءً، إذًا هذا عجز، فاستدل الله بالعجز على بطلان الإلهية، فإذا كان عجز غيره دليلاً على بطلان إلاهيته، فهل يوصف ربنا بشيء من العجز؟ الجواب: لا، الله لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، فإياك أن تتصور أيها المعتوه اليائس أن العدو مهما بلغت قوته أنه يعجز الله -عز وجل- ، لا يمكن أبدًا، يعجزك أنت؟ نعم، لضعفك وقلة حيلتك أنت؟ نعم، لكن يعجز الله، الجواب: لا؛ ولذلك قال الله -عز وجل- معاتباً لنبيه يونس لما خرج من قومه مغاضبًا فولى عنهم مغاضبًا، قال: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾[الأنبياء:87]، أي نضيق عليه، فنادى في الظلمات، وكلما قام في قلبك استشعار أنك ستُعجز، يريك الله -عز وجل- من أسباب كونه ما يكسر نفسك في هذا الاعتقاد، فإذًا إياك أن ينقدح في قلبك شيء من هذا إن كنت تريد الله أن لا يكسرك، استشعر دائما أنه لا يعجزه شيء، انتبه، إياك أن تتصور أن الله –عز وجل- يعجزه شيء، ولا تزال وسائل الإعلام تتغنى بالقوة النووية عند إسرائيل وعند اليهود، ولا يزال الإعلام يخوفنا في قضهم وقضيضهم وعدتهم وعتادهم، ثم لما أراد الله أن يظهر ضعفهم وعجزهم، أحرق ديارهم بحرائق تنتقل بأمر الله -عز وجل- من مكان إلى مكان، كالنار في الهشيم، لا تتصور أن الله –عز وجل- يعجزه شيء، فإيمانك بعدم عجزه أبدا عن كل شيء هذا من مقتضيات ربوبيته.

58. قوة التوكل وضعفه تختلف باختلاف قوة وضعف مقتضيات الربوبية في قلبك.

بمعنى أن الله -عز وجل- أمرك أن تتوكل عليه في كل أمورك وشؤونك، أو ليس كذلك؟ الجواب بلى، وقال الله -عز وجل-: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:23]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقال الله –عز وجل-: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:3]، أنت لا تستطيع أن يقوى توكلك في قلبك إلا إذا كان إيمانك بمقتضيات ربوبيته تامًا، فمن مقتضيات ربوبيته عموم قدرته وقوته، فإذا كان الإيمان بقوة الله وقدرته ضعيفاً في قلبك، فسوف

يضعف توكلك، وكلما قوي الإيمان بقدرة الله وقوته كلما قوي توكلك، وقس ذلك بالمخلوق، لو قلت لك: اذهب إلى الدائرة الفلانية وأعط ملفك الحارس، فهو واسطة لك، هل سيكون في قلبك توكل عظيم على هذا الحارس؟ هل ستؤمن بإنهاء معاملتك بالكامل؟ الجواب: لا، لضعف ميزاته وصفاته في قلبك، فضعف توكلك عليه، لكن قلت لك: اذهب بهذا الملف وادخل على وزير الدائرة الفلانية، فسينهي معاملتك، أسيكون ذهابك كالذهاب الأول؟ الجواب: لا، لماذا؟ لعظم الصفات، فإذًا كل من أراد أن يتوكل على الله فليصحح إيمانه بمقتضيات ربوبية الله؛ لأنك كلما قوي إيمانك بأنه المتصرف ولا متصرف إلا هو، وأنه المدبر ولا مدبر إلا هو، وأنه حسبك، وأن أحداً لا يستطيع أن يغالب أمره ولا يرد قضاءه، فأقسم بالله سوف تذهب إلى أحلك المضائق، وسوف تقف عند أعظم الملوك جبروتًا؛ لأنك تعلم أن كل هذا يذوب في مقتضيات الربوبية التي كمل إيمانك بها، ولذلك لا نستغرب أن الحسن البصري وقف أمام جبار، وأن فلان العالم وقف أمام جبار، وقال له كلامًا والله لو عُرض على أحدنا لما فعل، لم؟ لأنه لما توكل ومضى كانت مقتضيات الربوبية التي من أجلها توكل، كانت قوية فصار توكله قويًا، لكن نحن توكلنا الآن ضعيف؛ لأن مقتضيات الربوبية في قلوبنا أصلًا ضعيفة، نحن إذا خصم علينا خفنا الفقر وربما يصاب الواحد بأمراض، وإذا خسر في تجارته نوم في المستشفى ثلاثة أيام، أو بدأ يضرب ببعض الإبر التي تهدّئ نفسه، وأصابه الاكتئاب، لم كل هذا؟ لأن مقتضيات الربوبية في قلوبنا ضعيفة، فضعف توكلنا بقدر ما ضعفت مقتضيات الربوبية في قلوبنا، على هذا فإذا رغبت في تقوية توكلك، فقوِّ إيمانك بمقتضيات الربوبية، فعلى قدر قوة ذلك يكون قوة توكلك، وأقسم بالله لو جربتموها، لوجدتم ذلك واقعًا صحيحًا، نحن فينا خور يا رجل، والله في هذا الزمان فينا خور، فينا ضعف، فينا كسل، هذا يسمونه: عجز الثقة، وسلاطة الفاجر، الفاجر توكل على هؤلاء الفجرة الذين يبسطون له الأمور، وقالوا: افعل في أرضنا ما تشاء من الفسق، لكن الطائع ليس وراءه ظهر، يقولون: مسكين ما له إلا الله، كيف هذه؟ ولا يوصف الفقير بأنه مسكين، واقف على باب الله، لكن لو كان واقفا على باب ملك ما قالوا: مسكين، قالوا: يا

حظه ما شاء الله دخل للملك، يا حظه ولله الملك خد خطابه، يا حظه الملك شكل لجنة له، يا حظه قالوا: يصرفون له دراهم، لكن لا أحد يدعو على باب الله، وأين التوكل؟ ولذلك الله –عز وجل- يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:3]، هذا التوكل لما قام في قلب إبراهيم، أخمد الله إحراق النار، لما القي في النار، قال أيش؟ حسبنا الله ونعم الوكيل، لم يقلها وهو مشكك، وما الذي سيجري، قالها بإيمان كامل بأن الله سينجيه، فصار الله أمامه: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[الأنبياء:69]، هذا التوكل هو الذي جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو مضطجع تحت شجره لما جاء المشرك، واخترط سيفه، ثم شهره في وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: من يمنعك منى؟ قال: الله، فاضطرب السيف وسقط، هذا التوكل هو الذي ستفتح به الدنيا يوم القيامة؛ لأن المهدي ومن معه سيفتحون الدنيا بالتكبير، لكنه تكبير مقرون بتوكل، الأمر إذاً صار يفعل في العدو أعظم من فعل السلاح، هذا التوكل هو الذي إذا صدر من المجاهدين (الله أكبر) هز عروش قلوب الأعداء، هذا التوكل، فإذا نحن لا نثق إلا بهذا، فصار توكلنا قوةً وضعفاً مبنيّاً على قوة إيماننا بمقتضيات الربوبية، فإذا رأيت في قلبك ضعفًا وعجزًا عن القيام بأمر بالمعروف أو نهي عن المنكر، خفت، هذا ضعف التوكل، أو أنك ضعفت عن التصريح بكلمة الحق، أو طلبت السلام بالسكوت، فاعلم أن ذلك نابع عن ضعف في الإيمان بمقتضيات الربوبية في قلبك؛ ولذلك قال الله -عز وجل-: : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:3]، ما معنى حسبه؟ كافيه، والله ليكفينك الله من ألد وأشد وأعتى وأفجر فاجر على وجه الأرض، لكنا مشكلتنا ضعف هذا المعنى في قلوبنا، فقوة التوكل وضعفه في القلب يختلف باختلاف قوة إيماننا بمقتضيات الربوبية وضعفها.

59. من قدح في إمكان البعث، فقد قدح في ربوبية الله، وبعبارة أخرى نقول: من عطل البعث فقد عطل الربوبية.

ولذلك نجد في الآيات أحيانا الله -عز وجل- يقرن بين إنكار البعث والكفر بالربوبية، مما يدل على أن من مقتضيات كونه ربًا أنه سيبعث الناس، فمن أنكر البعث، أو عطله، أو قدح فيه، أو شكك فيه، فقد شكك أو عطل في ربوبية الله -عز وجل- و برهان ذلك قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[الرعد:5].

فكفرهم بالربوبية مبني على كفرهم بالبعث لتلازمهما، وقال الله -عز وجل- في آيات متعددة، بل يستدل الله -عز وجل- على قدرته على البعث بإحياء الأرض بعد النبات، ويختمها بأن هذا من مقتضى ربوبيته -تبارك وتعالى-، كما قال الله -عز وجل -: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الروم:50]، والإحياء والإماتة من جملة مقتضيات ربوبيته.

60. المخلوق وإن عظمت منزلته لا يستحق شيئًا من خصائص ربوبية الله.

وأعظم مَن خَلق الله ثلاثة أصناف: الملائكة، والأنبياء، والمؤمنون الأولياء، فالملائكة لا تستحق شيئًا من معاني الربوبية، وكذلك الأنبياء لا يستحقون، وكذلك الأولياء، وقد استدل الله -عز وجل- على بطلان إلهية وربوبية الملائكة بكونها تخاف ويخشى عليها ويصيبها الفزع، وأنها عبيد مربوبون لا يسبقون الله بالقول ويفعلون ما يؤمرون، كقول الله -عز وجل-: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:23]، وهل الرب يخاف؟ الجواب: لا، هل الرب يفزع؟ الجواب: لا، هل الرب يخشى عليه من شدة الخوف؟ الجواب: لا، الملائكة حصل لهم كل ذلك، فإذًا لم تصلح أن تكون ربا ولا خالقا ولا إلاها مع الله -عز وجل-، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كالسلسلة على صفوان - قال علي:**

وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك»[1] ، وفي رواية أخرى من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا تكلم الله بالوحي وأخذت السموات رجفة عظيمة أو قال: رعدة عظيمة**»[2]، فإذا سمع الملائكة ذلك سقطوا وغُشي عليهم، ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ:23]، إذًا بما أن الملائكة يصيبها ذلك فلا تستحق شيئًا من معاني الربوبية، فإذا بطلت ربوبية الملائكة مع أنهم أعظم من خلق الله -عز وجل، فكيف بربوبية من دونهم؟ لا جرم أنها باطلة من باب أولى، أعظم الأنبياء على الإطلاق النبي –عليه الصلاة والسلام-، وقد استدل القرآن على بطلان ربوبيته بقوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[آل عمران:128]، فكيف يقال للرب: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:128]، فلما قال الله له ذلك، دل أنه لا يصلح أن يكون ربًا، ولا إلاها ولا معبوداً مع الله -عز وجل-، إنما هو نبي ورسول، بل إنه يوم (أحد) كسرت رباعيته، وشُج رأسه، وقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟ فنزلت: : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران:128]، هل الرب تفعل به ذلك؟ الجواب: لا، ولذلك استدل إبراهيم على بطلان إلاهية الأصنام بقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾[الأنبياء:58]، فإذًا لا ملك يصلح أن يكون رباً، ولا نبي يصلح أن يكون رباً، ولا ولي يصلح أن يكون ربا، فإذًا الربوبية لا يستحقها أحد وإن عظمت منزلته، فعظم المنزلة ليس بدليلٍ يسوغ لنا أن نصف المخلوق بشيء من خصائص الربوبية، لو نظرت إلى الرافضة لوجدت أن أعظم طريق جعلهم يضفون صفات الربوبية على آل البيت، هو كونهم من آل البيت، فيعظمونهم لأنهم آل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وأنهم أصحاب نسب وحسب وأنهم وأنهم إلى آخره، فإذًا جعلوا

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين} [الحجر: 18]، (80/6) برقم (4701).

[2] ينظر: تفسير ابن كثير ت: سلامة (516/6).

عظم منزلتهم طريقًا إلى إضفاء شيء من الربوبية عليهم، فتأتي هذه القاعدة ترد عليهم بقولك: المخلوق وإن عظمت منزلته فلا يستحق شيئًا من معاني الربوبية.

61. تمام الرضا بالقضاء على قدر تمام الرضا بالربوبية.

وأنتم تعلمون أنه ينبغي الرضا بالقضاء والقدر؛ لأن الرضا من تمام الرضا بربوبية الله -عز وجل-، فلو كنت مؤمنا بأنه هو ربك حقًا وصدقًا، وعظم الإيمان بمقتضيات ربوبيته في قلبك، فأقسم بالله لن تتسخط على قضائه؛ لأنك تعلم أن من مقتضيات ربوبيته أنه لا يريد بك إلا خيرا، ولا يقدر لعبده إلا ما فيه خير له لعاجله أوآجله، ففعل الله وقضاؤه خيرٌ كله، لو كنت مؤمنًا بهذه القضية لما تسخطت ورضيت، وأن قضاء الله خيرٌ للعبد كله، وعدل كله، ومصلحة كله، وحكمة كله، فلو كنت مؤمناً بحق وصدق، فلماذا تتسخط من قضاء الله؟ فإذًا كلما خف هذا الميزان من قلبك، كلما عظم تسخطك لقضاء الله -عز وجل- وقدره، فلو سألك سائل: لماذا أنا لا أرضى بقضاء الله؟ فقل: إنك لم ترض بربوبيته أصلًا، فلو كنت راضياً بربوبيته لتم رضاك بقضائه وقدره؛ ولذلك المتقرر عند العلماء أنه لا تطمئن نفوس الخلق عند حلول المصائب إلا إذا علمت بأن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وأن ما أخطاها لم يكن ليصيبها، إن من أصابها بهذه المصيبة هو الرب الحكم، العدل، الغفور، الرحيم الذي لا يفعل إلا لحكمة ومصلحة، وكل هذا من مقتضيات الربوبية، فإذًا أنت تعلل تخفيف المصيبة بأنها من مقتضيات الربوبية فتقول لمن مات ولده: يا أخي، ربك رحيم من مقتضيات الربوبية، تريد أن تخفف عليه المصاب فتذكره بربوبية الله له، فإذا قام في قلبه هذا المعنى خفت مصيبته، بل إنك أحيانا إذا جئت إلى رجل خسر أموالاً طائلة في التجارة، تقول له: يا أخي، لعل الله -عز وجل- أراد بك خيرًا، أو كان هذا المال ستحاسب به في الآخرة، فالله أراد أن يخلصك منه الآن، فأمر وهو من مقتضيات الربوبية بخسارتك حتى لا يكون حملًا عليك في الآخرة، ذكر المصاب بربوبية الله ومقتضيات أمره تخف مصيبته؛ ولذلك يقول -عليه الصلاة والسلام- كما في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**ليس منا من**

لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[1]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي مالك الأشعري، رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب**» [2]، فالنوح لا يكون إلا بسبب خفاء مقتضيات الربوبية على قلب العبد، ولذلك يا إخوان، يا سلام! لو تعلمون هذا لكان فيه خير عظيم، لكن مشكلة قلوبنا أنها تغفل، يغفّلها الشيطان عند المصائب، عند استشعار شيء من ذلك، يقول العلماء: فينبغي لكل مؤمن أن يرضى بقضاء الله، وأن لا يتردد في الرضا حتى ينتفي من حياته القلق والاضطراب، فلا يحزن العبد على ما فاته، ولا يتهيب من مستقبله، ويكون بذلك أسعد الناس؛ ولذلك أسعد الناس هو من لا يحزن على ما مضى، ولا يخاف مما هو آت، فيكون من أطيب الناس وأهدئهم بالله، فمن عرف أن ربه هو الله الحاكم، العادل، الذي لا يظلم أحداً، وأنه الرازق المعبود، فحينئذ يعيش في حياته سعيدا؛ لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، والله أعلم.

62. حياة الله وقيوميته من مقتضيات ربوبيته.

بل إن ابن تيمية، وابن القيم، يقرران بأن الحياة والقيومية هي أساس الربوبية، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾[الرحمن:26-27]، فاستدل ببقائه وحياتها على ربوبيته، وقال الله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[آل عمران:180]، فاستدل على ربوبيته ببقائه، قال الله -عز وجل-: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾[البقرة:255]، فاستدل بكمال حياته وقيوميته على ربوبيته، وألوهيته، فمدار أوصاف الكمال وجميع الأسماء الحسنى على هذين الاسمين العظيمين: الحي القيوم، ولذلك جعله كثير من أهل العلم

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب: ليس منا من شق الجيوب (81/2) برقم (1294) ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية (99/1) برقم (103).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة (644/2) برقم (934).

الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، فإن قلت ما دخل هذه القاعدة في ربوبية الله؟ نقول: لأن القيوم معناه القائم بنفسه، وهذا فعله في نفسه، القائم بغيره، وهذا فعله في خلقه، فإذًا القيومية ترجع إلى فعله في نفسه وغيره، وفعله من مقتضيات ربوبيته.

63. الإيمان بأسماء الله وصفاته من مقتضيات الإيمان بربوبيته.

وهذا واضح، فيجب علينا إذا كنا نؤمن بأنه الرب حقا، أن نؤمن بجميع ما سمى ووصف به نفسه في كتابه، أو سماه ووصفه به النبي -صلى الله عليه وسلم- في صحيح سنته من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، مع اعتقاد أن الله -عز وجل- ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فجميع بحوث أهل العلم في الأسماء والصفات كله ينصب في تصحيح الإيمان بالربوبية، ولذلك العلماء يجعلون توحيد الربوبية والأسماء والصفات نوعا واحداً، فيقولون: التوحيد ينقسم إلى قسمين، توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب، ماذا يقصدون بتوحيد المعرفة والإثبات؟ أي: توحيد الربوبية والأسماء والصفات، كما فعل أبو العباس ابن تيمية، وتلميذه الإمام العلامة ابن القيم، ويجعلون توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية واحداً؛ لتلازمهما، وتضمُّنِ كل واحد منهما للآخر، فأنت لماذا تؤمن بأنه الرب؟ لأنك تؤمن بأنه الله الحي القيوم القدير القوي العزيز السميع، إذا آمنت بأنه رب؛ لوجود هذه الأسماء الحسنى والصفات العلا.

64. لا سيد على الإطلاق إلا الله –عز وجل-.

فغير الله -تبارك وتعالى- وإن أطلق عليه سيدٌ، إلا أن سيادته هي مطلق السيادة بعضها، وأن السيادة المطلقة مقصورة على الله -عز وجل- في قوله: إنما السيد الله، فهي السيادة المطلقة، لا مطلق السيادة، فكما أنه رب كل شيء ومليكه، فهو سيد كل شيء وخالقه -تبارك وتعالى-، ولذلك قرر العلماء أن لفظ السيد معرف بالألف واللام لا يصح إطلاقه على غير الله -عز وجل-، وفي حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، لما جاء بعض الناس إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-

فقال: أنت سيدنا وابن سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك وتعالى»[1]، فإذًا العبد يطلق عليه السيد ولكن بشرطين، الشرط الأول: أن يعتقد أنه مطلق السيادة لا السيادة المطلقة، والشرط الثاني: أن تكون مجردة عن الألف واللام؛ ولذلك سيد اسم صحيح، لكن السيد ليس بصحيح؛ لأنه لا يجوز التسمي بشيء من أسماء الله معرفًا بالألف واللام، فلا يطلق السيد معرفاً مطلقًا إلا على الله –تبارك وتعالى- ، فإن قلت: وكيف نقول في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» [2]، الجواب: أن إطلاق السيادة عليه إنما هي إطلاق وصف لا اسم، هذا واحد، و الشيء الثاني أنه قال: أنا سيد الناس يوم القيامة، فإذًا هي مطلق السيادة، لا السيادة المطلقة، فالسيد لكل شيء في الدنيا والآخرة، صاحب السيادة المطلقة التي لا أول لها ولا نهاية لها، إنما هو الله -تبارك وتعالى -، فإذًا السيادة المطلقة لا تطلق إلا على الله، وأما مطلق السيادة وصفًا فتطلق على المخلوق.

65. من ساوى غير الله بالله في شيء من خصائص ربوبيته فقد اتخذه شريكًا معه.

فمن زعم أن أحدًا من الخلق يخلق كخلق الله فقد كفر وأشرك في الربوبية، ومن زعم أن أحداً يملك تدبيراً وتصريفاً مع الله فقد كفر وأشرك في الربوبية، ومن زعم أن أحداً بيده النفع والضر استقلالًا وتقديرًا مع الله -عز وجل -فقد أشرك في الربوبية، وهذا معنى واضح.

66. ربوبية الله لخلقه عامة وخاصة.

فالربوبية العامة هي: ربوبية الله للمخلوقات كلها بلا استثناء، فهو رب الملائكة، ورب الإنس، ورب الجن، ورب المؤمنين والكفار، ورب الفجار، إذًا هو رب كل شيء بربوبيته العامة، والربوبية العامة: هي ربوبية اضطرار لا يستطيع

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح (254/4) برقم (4806).
[2] أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة بني إسرائيل (159/5) برقم (3148).

أحد أن يتخلص منها أبدًا، فهو ربك وإن لم تشأ أن يكون ربك، فهي لجميع الناس: برهم، وفاجرهم، مؤمنهم، وكافرهم، وهى عبارة عن خلقه للخلق، ورزقه لهم، و هدايته لما فيها مصالحهم التي بها بقاؤهم في الدنيا، وأما الربوبية الخاصة فهي: ربوبية الاختيار، وهى تربيته لأوليائه المؤمنين فقط، فإذًا إذا قيل لك هل الله رب الكفار؟ الجواب: هو ربهم بالربوبية العامة لا بالربوبية الخاصة، فالله -عز وجل- يربي عباده المؤمنين بربوبيته الخاصة، بالإيمان والتوفيق، والحفظ، والسداد، ويكملهم بالأخلاق الحسنة، ويزكيهم بالمعاني، والقيم الرفيعة، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق، والمصائب التي تحول بينه وبينهم، ولعل هذه الربوبية الخاصة هي من أعظم ما إذا دعا به العبد ربه استجاب له؛ ولذلك تأتى في الأدلة غير مسبوقة بياء النداء غالبًا كقوله: رب اغفر لي، أي بربوبيتك الخاصة، والربوبية الخاصة لا تسبق بياء النداء، إذا سبقت بياء النداء فالأغلب أنها تكون ربوبية عامة، ولذلك من لا يستجيب دعاءه في حديث أبى هريرة، لم يقل: ربى، ويمد يديه إلى السماء، وإنما قال: يا ربى يا ربى، أي: بروبيتك العامة؛ ولذلك أدعية الأنبياء في القرآن كلها بالربوبية لا بالألوهية، رب هب لي من لدنك وليًا، رب اغفر لي ولوالدي، فهذا لعله هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء ب(ربِّ)، أي: بروبيتك الخاصة، انتبهوا لهذا المعنى الذي سأذكره الآن، وهو أن ياء النداء غالبًا ينادى بها البعيد، لكن إذا حذفت و ناديت أحداً بدونها فكأنك تناديه وهو قريب، فقولهم: يا رب هذا يتنافى مع قولهم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة:186]، إذًا احذف ياء النداء فهو قريب منك.

67. القدرية مجوس هذه الأمة.

وهذا وصف وصفهم به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأنهم قدحوا في معنى من معاني ربوبية الله، وهو: أنهم وصفوا أحد المخلوقين بأنهم يخلقون أفعالهم، فإذًا سبب وصفهم بالمجوس؛ لاعتقادهم بأن المخلوق هو الذي يخلق فعله.

68. عبودية الربوبية عامة، وعبودية الألوهية خاصة.

وذلك لأن عبودية المخلوق للخالق تنقسم إلى ثلاثة أقسام: إلى عبودية عامة، وضابطها أن ترِد في الأدلة مطلقة غير مضافة إلى الله -عز وجل- لقول الله -عز وجل-: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[مريم:93]، فلم يضفها له، فالعبودية المذكورة في هذه الآية إنما هي العبودية العامة، وهذه العبودية يشترك فيها كافة الخلق: برُّهم، وفاجرهم، ومؤمنهم، وكافرهم، لكنها عبودية لا تقتضى الرضا، ولا الجنة، ولا الرحمة، ولا المغفرة، وأما العبودية الثانية: هي العبودية الخاصة، وهى عبودية ألوهية، وهى عبودية عباد الله الصالحين، وهم كل من تعبد لله -عز وجل- بشرعه، وأخلص لله في عبادته، وضابطها في الأدلة أنها ترد مضافة إلى الله، كقول الله -عز وجل-: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[الفرقان:63]، وهناك عبودية أعظم من هذه هي عبودية خاصة الخاصة، وهى أيضًا قسم من أقسام عبودية الألوهية، وهى للأنبياء والمرسلين الذين لا يباريهم ولا يدانيهم أحدٌ في عباداتهم لله -عز وجل-، قال الله -عز وجل-: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾[ص:41]، أي بعبودية خاصة الخاصة، وقال –عز وجل- عن نوح:﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[الإسراء:3]، أي بعبودية خاصة الخاصة، فأي عبادة تضاف إلى النبي فالله -عز وجل- يريدها عبودية خاصة الخاصة، وأي عبادة تضاف إلى عباده المؤمنين، فإن الله يريدها خاصة الخاصة، فأما العبودية التي تضاف له مطلقة، فهي عبودية العامة، فإذًا صارت العبودية تنقسم إلى ثلاثة أقسام، أو نقول: من باب الاختصار إلى قسمين: عبودية ربوبية عامة، وإلى عبودية ألوهية، وعبودية الألوهية تنقسم إلى: عبودية الألوهية العامة، وإلى عبودية خاصة الخاصة.

69. توحيد الربوبية عملٌ قلبي، وتوحيد الألوهية عملٌ قلبيٌ بدني.

فالربوبية عمل قلبي لا يتعدى القلب؛ ولذا سميت: توحيد المعرفة والإثبات؛ لأن معناه عن المعرفة والإثبات، أو سماه بعضهم: التوحيد العلمي؛ لأن مبناه على العلم الذي يقوم في القلب، فهو عمل قلبي فقط، وأما توحيد الألوهية فلا، فهو عمل قلبي ولكن يضاف على ذلك أنه أيضًا عمل بدني، فلا يكفى في توحيد

الألوهية عمل قلبي فقط، بل يتعداه إلى السلوك، وإلى التعبد، وإلى الذبح، والنذر، والركوع، والسجود، هذه كلها ألوهيات بدنية، مع الرجاء، الرهبة، الرغبة، كلها ألوهيات قلبية، فإذًا يطلب في توحيد الربوبية عمل القلب فقط، وهو الإيمان، ويطلب في الألوهية عمل القلب والجوارح.

70. كل قولٍ يوهم التشريك في الربوبية فالواجب منعه.

ولذلك منع النبي -صلى الله عليه وسلم- قول من قال: ما شاء الله و شئت، قال: أجعلتني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده، والمشيئة من مقتضيات الربوبية، فلا يجوز لك أن تقول ما شاء الله وشئت، حسبي الله وأنت، أنا في حسب الله وحسبك، توكلت على الله وعليك، بل إن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى أن يقول أحدنا: عبدي وأمتي؛ لأنه لفظ يوهم التشريك في الربوبية، وإنما يقول: فتاي وفتاتي، أو يقول: غلامي، بل لا يجوز للسيد أن يقول لعبده: يا خالد، أطعم ربك، أي: سيدك، وضّئ ربك، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**لا يقل أحدكم: اسق ربك، أطعم ربك، وضئ ربك، ولا يقل أحدكم: ربي، وليقل: سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي فتاتي غلامي**»[1]، فهذا القول محرم، لم؟ لأنه لفظ يوهم التشريك في العبودية، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضا، يقول -صلى الله عليه وسلم-: «**إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك» زاد ابن أبي شيبة في روايته «لا مالك إلا الله عز وجل**» [2]، وعند الفرس: شاهان شاه، أي: ملك الأملاك، لم منعت؟ لأنه لفظ يوهم التشريك في الربوبية، فإذًا أخذنا من هذا قاعدة، كل لفظ يوهم التشريك، أي: تشريك المخلوق مع الخالق في ربوبيته، فالواجب منعهُ.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي (150/3) برقم (2552)، ومسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظة العبد، والأمة، والمولى، والسيد (1765/4) برقم (2249).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب أبغض الأسماء إلى الله (45/8) برقم (6206) ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، وبملك الملوك (174/6) برقم (5734).

71. لا خصومة في توحيد الربوبية.

فإن الخصومة بين الأمم وأنبيائها لم تكن على أن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، الذي سخر السماوات والأرض، والشمس والقمر، فالأمم مع أنبيائها لم تختلف في شيء من مقتضيات ربوبية الله -عز وجل-، إنما الأمم اختلفت في توحيد الألوهية، فالخصومة ليست في ربوبية الله لخلقه، إنما في تأله الخلق لربهم.

72. الربوبية تطلق في النصوص أحيانًا، ويراد بها الألوهية.

ولذلك الألوهية والربوبية، كالإسلام والإيمان، إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، فإذا قيل: الرب وحده، دخل معه الإله، وإذا قيل: الإله، دخل معه الرب، لكن إذا قلت: رب وإله، من ربك؟ ومن إلهك؟ فهنا يحمل كل واحد منهما على معنى مستقل، أحيانًا تجد في النصوص لفظ الربوبية (ربنا ربى ربكم) والله لا يريد بها حقيقة الربوبية التي نتكلم عنها الآن، إنما يريد بها أي: معبودي وإلاهي، فإن قلت: كيف أعرف ذلك؟ أقول: أعرف بدلالة السياق، خذوا أمثلة من القرآن والسنة، كقول الملَكين في القبر: من ربك؟ يسألان عن الربوبية أو عن الألوهية؟ عن الألوهية؛ لأن مقتضيات الربوبية الكل يؤمن بها؛ فإذا كنت ستسأل في القبر: من خلقك؟ من رزقك؟ من علمك؟ من أحياك؟ من أماتك؟ كان الجميع أجاب، فالسؤال عن الألوهية، لا عن الربوبية، كيف عرفناها؟ بدلالة السياق، وأيضا قول الله –عز وجل-:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[الأحقاف:13]، هنا معبودنا الله، فالربوبية هنا ربوبية ألوهية؛ لأن الجميع كلهم يقولون: ربنا الله بمعنى: خالقنا الله، رازقنا الله، مدبرنا الله، محيينا الله، مميتنا الله، لكن لا يحصل بعدها الاستقامة، وكذلك قول الله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾[الأنعام:164]، فدلالة السياق تدل على أنه إله؛ لأنه قاله في معرض الإنكار على من أشركوا، مع أن الذين أشركوا وأنكر عليهم يقرون بالربوبية، فكيف يقول: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾[الأنعام:164]، وهو يريد حقيقة المالك الخالق المتصرف، إذًا هذا الإنكار يدل بدلالة السياق على أن المقصود هو إله، ومنها أيضًا قوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا

اللَّهُ﴾[الحج:40]، ما المقصود بقوله: الربوبية هنا؟ أي إلهنا الله، فأطلق الربوبية وأراد بها الألوهية؛ لأنهم لو قالوا ربنا الله بمعنى خالقنا ورازقنا، لم أخرجهم قومهم، إذ قومهم أصلًا يقولون بذلك؟ فلماذا أخرجوهم لما قالوا ربنا الله؟ لأنهم اعترفوا بالألوهية وآمنوا بوحدانية الله في ألوهيته، فلذلك أخرجهم قومهم، فإذًا دلالة السياق تفيدك أحيانًا أن الربوبية هنا يراد بها الألوهية.

73. توحيد الربوبية لم ينكره أحد باطنا.

وهذه قاعدة من قواعد الربوبية قررها أهل السنة باتفاقهم، فلا يمكن أن ينكر أحد توحيد الربوبية باطنًا؛ لأنه من العلوم الفطرية، وإنما عرف إنكاره ظاهرا من باب الشقوة والعناد من بعض الخلق كالدهرية الذين قالوا: ما يهلكنا إلا الدهر، وكفرعون الذي قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[القصص:38]، وكالشيوعية المعاصرة الذين قالوا: لا إله، والحياة مادة، وأنه ليس ثمة إله فوق السماوات، فهؤلاء ينكرون الربوبية ظاهرًا، لكن متى ما حلت عليهم الضرورة رجعت الفطرة إلى الله، أو لم ترجع فطرة فرعون إلى الله لما غرق، قال: أمنت، لا إله إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين.

74. كل لفظ يتضمن التسخط على القدر فالواجب منعه، أو تقول: فمحرمٌ.

فإن قلت: وما علاقة هذه القاعدة بتوحيد الربوبية؟ من يقول لي: ما العلاقة؟ كل لفظ يتضمن التسخط على قدر الله فمحرم؛ لأن القدر فعل الله، فإذا تسخط على قدر الله فقد تسخط على فعل الله، والتسخط على فعله تسخط على ربوبيته؛ ولذلك حرم الشارع ضرب الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بدعوة الجاهلية، كما قال -صلى الله عليه وسلم-: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوة الجاهلية**»[1]، وفي الصحيحين من حديث أبى موسى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- «**برئ من الصالقة والحالقة والشاقة**»[2]، وفي صحيح مسلم من

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة (81/2) برقم (1296) ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية (70/1) برقم (298).

حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**»[1]، وهذا عقوبة لمن تسخط في قدر الله الذي هو فعله.

75. من سب الدهر فقد آذى الله.

وعلاقتها بالربوبية، هي أن ما أوجب سب الدهر إنما هو شيء من التدبير والتصريف لله في هذا الدهر، فرجع سبك على من خلقه، وصنعه، ودبر الأمر وصرّفه فيه؛ لأن المتقرر عند العلماء أن سب الصنعة سبٌّ للصانع، فإذا سببت الدهر الذي هو صنعة الله وخلقه، فقد سببت الله وآذيته؛ لأنك لم تسبه إلا لعدم موافقتك لتقدير الله -عز وجل-، وتدبيره، وتصريفه في هذا الدهر، فعاد سبك إلى قدحٍ في معنى من معاني الربوبية، ودليل هذه القاعدة نفس النص، فهي قاعدة ونص، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»[2]. ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر**»[3]، ولعلنا نكتفي بهذا القدر من القواعد، وبه ننتهي ولله الحمد والمنة من القسم الأول وهو (توحيد الربوبية، وما يتعلق به من التفصيل والقواعد، والاستدلالات).

---

[1] سبق تخريجه.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب: لا تسبوا الدهر (41/8) برقم (6182)، ومسلم في صحيحه، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، (45/7) برقم(6003). واللفظ لمسلم.

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب {وما يهلكنا إلا الدهر} [الجاثية: 24] الآية (133/6) برقم (4826).

قواعــــد توحيـــد الألوهيــة

1. توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية.

وهذا بإجماع أهل السنة والجماعة، ومعناها؛ أنَّ مَن أقر أنَّ الله هو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، فلا داعيَ أن نتأكد منهُ، أهو مؤمن بتوحيد الربوبية أو لا؟ لأن مجرد إقراره بالألوهية كافٍ عن تقريره بالربوبية، إذ أنهُ أصلًا لم يؤمن بواحدنية الله في ألوهيتهِ إلا بعد أن علم أنهُ الخالق، الرازق، المدبر، المحيي، المميت، فإيمانهُ بالألوهيةِ إنما هو نتيجة لإيمانه بتوحيد الربوبية، فمَن آمن بالألوهيةِ، فإنهُ مؤمن بتوحيد الربوبية ولا شك، فلا داعيَ لتقريرهِ بتوحيد الربوبية استقلالًا.

2. لا إله إلا الله.

وهذه القاعدة ستستغربونها، لكنها أعظم قاعدةٍ في الوجود، على الإطلاق، وهي أفخم قاعدةٍ، وأهم قاعدةٍ، ومن أجلها خلق الله السموات والأرض، وقام سوق الجنة والنار، وانقسم الناس إلى مؤمنينَ وكفار، فهذه أعظم قاعدة نطبقها في حياتنا، وهي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وهي الكلمة التي نزلت بها الكتب، وأرسلت بها الرسل كما سيأتينا إن شاء الله، يقول الله –عز وجل-: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[آل عمران:18]، وقال الله –عز وجل-: -:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد:19]، والأدلة التي تدل على فضلها كثيرةٌ من الكتاب والسنة مذكورة في غير هذا الموضع؛ لأن المقام مقام اختصار فقط، وهذه الكلمة العظيمة مبنية على ركنين: على النفي في قولك: (لا إله) وهو نفي لجميع المعبودات من دون الله –عز وجل-، والركن الثاني الإثبات في قولهِ: (إلا الله) وهو إثبات العلاقة الحقة لله –تبارك وتعالى-، إذ أن توحيد الألوهية لا تقوم أركانهُ إلا على الجمع بين النفي والإثبات.

يقول الناظم:

فالنفيُ قولك: لا إله لدى الورى... هو مستحقٌّ للعبادة ثاني

غير الإله، وذلك الإثبات في... تلك الشهادة يا أخا العرفانِ.

3. توحيد الألوهية هو التوحيد الذي حصلت فيه الخصومة بين الأمم وانبيائها.

فالأمم وأنبياؤها لم يختلفوا في مسألة توحيد الربوبية، وإنما اختلفوا في توحيد الألوهية، والدليل على ذلك قول الله –عز وجل-: -:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴾ [الصافات:35-36]، ويقول الله –عز وجل- عنهم في بيان هذه الخصومة: -:

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[ص:5]، فإذًا، الخصومة إنما حصلت في هذه القضية، في توحيد الألوهية.

4. لا إسلام إلا بالإقرار بالألوهية.

فلا يحكم على العبد بأنهُ دخل في الإسلام وأنهُ موصوفٌ بالإيمان والإسلام إلا إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأنهُ لا مستحق للعبادة في هذا الوجود إلا واحد فقط وهو الله -تبارك وتعالى-، والدليل على ذلك حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله**» [1]. ويقول النبي –صلى الله عليه وسلم- كما في حديث طارق بن أشيم عند مسلم: «**من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله، ودمه، وحسابه على الله**»[2]. وفي رواية الإمام البخاري من حديث أنس –رضي الله عنه-: «**فإذا قالوا: لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، حرمت**

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: {فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم} [التوبة: 5] (14/1) برقم (25)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله (51/1) برقم (20).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله (53/1) برقم (23).

علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها»[1]، وفي روايةٍ له أيضا من حديث البراء رضي الله عنه: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته**» [2]، وقد أجمع العلماء من أهل السنة والجماعة على أن العبد متى ما قال لا إله إلا الله حكم لهُ بأنهُ مسلمٌ ظاهرا، فإن كان نطق بها قلبهُ بطنًا فهو مسلمٌ ظاهرًا وباطنًا.

5. ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

وهذه قاعدةٌ ودليل، وهي عبارةٌ عن معنى لا إله إلا الله، فلا يجوز لنا أن نفسر كلمة التوحيد إلا بهذا المعنى القرآني، أي أنهُ لا معبود بحقٍ إلا الله –تبارك وتعالى-، وجميع ما عبد من دون الله –تبارك وتعالى- فإنهُ باطل، وإنما المعبود بالحق إلهٌ واحدٌ لا شريك لهُ هو الله –عز وجل-، فهذه الآية قاعدة في بيان معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وذلك لأن أهل البدع يفسرون هذه الكلمة بشيء من مقتضيات الربوبية، وهذا من أعظم الخطأ الذي وقعوا فيه، فيقولون: معنى (لا إله إلا الله) أي: لا قادر على الاختراع إلا الله، وهذا معنى صحيحٌ في ذاتهِ لكن ليس هو المعنى الصحيح لكلمة التوحيد، ومنهم مَن يقول لا خالق إلا الله، وهذا المعنى صحيح لكن ليس هو المعنى الصحيح لكلمة التوحيد، ومنهم مَن يقول لا مبدع للأشياء إلا الله، وهذا معنىً صحيح، ولكن ليس هو المعنى الصحيح لكلمة التوحيد؛ لأن جميع هذه التفسيرات تفسيراتٌ تتعلق بتوحيد الربوبية، ونحن في توحيد الألوهية، فهي كلمة ألوهية لا ربوبية، كلمة التوحيد كلمة ألوهية لا ربوبية، وتفسيرها مبني على هذه الآية والقاعدة التي تبين أن الله هو المعبود بالحق في قولهِ: -:﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾، وتبين أن جميع ما عبد من دون الله، فعبادتهُ باطلة، وذلك في قولهِ: -:﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾[لقمان:30] أي ما يعبدون من دون الله هو الباطل، فما عبد من دون الله فلم يعبد بالحق وإنما عبد

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة (87/1) برقم (392).
[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة، (87/1) برقم (391).

بالجهلِ، والظلمِ، والبغيِ، والتسلط، والعدوان.

6. توحيد الألوهية هو التوحيد الذي أرسلت به الرسل، ونزلت به الكتب.

توحيد الألوهية هو التوحيد الذي نزلت به الكتبُ، وأرسلت به الرسل، ودليل ذلك قول الله –عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:36]، فقولهُ: أن اعبدوا الله هو الإثبات في كلمة التوحيد (إلا الله)، وقولهُ: (واجتنبوا الطاغوت) هو النفيُ في كلمة التوحيد (لا إله)، ويقول الله –عز وجل-: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:25]، فبين الله في هذه الآيات أن وظيفة الرسل هي عبادة الله وحدهُ دون ما سواهُ، وقال نوح لقومهِ: اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ، وقال هود لقومهِ: اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ، وقال صالح لقومهِ: اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ، وقال شعيب لقومهِ: اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ، وجميع الرسل إنما زبدةُ رسالتهم، وأول ما يفتتحون به دعوتهم هي الدعوة إلى التوحيد، ولا يبدؤون بشيء غيره مطلقًا، فإذًا، الرسل لم تبعث بتوحيد الربوبية إلا من باب التقرير والاستدلال والبرهان على المطلوب الأعظم الذي هو توحيد الألوهية كما بينا سابقًا.

7. العبادةُ حقٌ صرفٌ محضٌ لله –عز وجل-.

ومعنى ذلك أنهُ لا يجوز أن يصرف شيءٌ من التعبدات لا لملكٍ مقربٍ، ولا لنبيٍ مرسلٍ، ولا لوليٍ صالح، وبرهانها قول الله –عز وجل-: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا ربكم﴾[البقرة:21]، وقول الله –تبارك وتعالى-: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات:56]، وقول الله –عز وجل-: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل:36]، وقول الله –تبارك وتعالى-: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾، وقال الله –عز وجل-: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾[آل عمران:18]، والأدلةُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًا، فأي قولٍ أو فعلٍ يدخل في مسمى العبادة، فلا يجوز لك أن تصرفهُ لغير الله –

تبارك وتعالى-، ومن صرف شيئًا من التعبدات لغير الله فقد أشرك.

8. لا يخلدُ في النارِ أحدٌ معهُ أصل التوحيد الألوهية.

فمَن مات وخرج من هذه الدنيا، ومعهُ أصل التوحيد أي توحيد الألوهية؛ فإنهُ وإن عذب في النار بسبب شيء من الكبائر لم يغفره الله –عز وجل-، ولم تنلهُ الشفاعة، فإنهُ لا يخلد في النار الخلود الأبدي المطلق، وإنما يعذب فيها بقدر ذنوبهِ ثم يخرج منها إلى الجنة، فمَن كان معه أصل هذا التوحيد فهو حزامُ أمان من الخلود الأبدي المطلق في النار، ودليل ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**مَن كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله، دخل الجنة يومًا من الدهر وإن أصابه قبل ذلك ما أصابهُ**»[1]، وفي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه، يقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة " قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر**»[2]. ليس معنى ذلك أنه سيدخل الجنة ابتداءً لا، لكن مآلهُ أن يدخل الجنة؛ لأنهُ مات ومعهُ أصل هذا التوحيد، فسواءً عذب على زناهُ وسرقته أو لم يعذب فإنهُ سيدخل الجنة، إما ابتداءً إذا غفر الله لهُ كبيرتهُ، وإما انتقالًا إذا لم يغفر الله كبيرتهُ، فلا يظنن أهل الإرجاء أن هذا الحديث ينفعهُم في عقيدة الرجاء، وإنما هو دليلٌ على أنَّ مَن مات ومعهُ أصل لا إله إلا الله، فسيدخل الجنة وإن أصابهُ شيءٌ من العذاب على زناهُ وعلى سرقتهِ، فإذًا مَن مات ومعهُ أصل هذا التوحيد فهو داخلٌ للجنة جزمًا، سواءً أدخلها ابتداءً أو انتقالًا، وسيأتينا أنَّ دخول الجنة ينقسم إلى قسمين بعد قليل إن شاء الله، وفي صحيح البخاري من

---

[1] أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الجنائز، ذكر العلة التي من أجلها أمر بهذا الأمر (272/7) برقم (3004).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب الثياب البيض، (149/7) برقم(5827) ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات مشركا دخل النار (95/1) برقم (94).

حديث أنس رضي الله عنه، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**يخرج من النارِ مَن قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن برة من خير**» [1]، ما الذي أنجاه من النار؟ أن معهُ أصل هذا التوحيد، ويخرج من النار مَن قال: لا إله إلا الله وفي قلبهِ وزن شعيرة من خير، والمراد بالخير أصل هذا التوحيد، فإذًا الموت على أصل هذا التوحيد لا يحرم العبد على النار مطلقًا، وإنما يحرم الخلود الأبدي في النار، وإن عذب العبدُ على شيءٍ من الذنوب والمعاصي.

9. توحيد الألوهية هو أول دعوة الرسل.

وقد ذكرت لكم الدليل على ذلك أنَّ نوحًا قال لقومهِ أول ما قال: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، وكذلك قالها مَن بعده من الأنبياء والرسل في أول مفتتح دعوتهم لأممهم: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، فهذا توجيه لنا أيها الدعاة أنهُ لا ينبغي أن نشغل الناس بأمور فقهية وعندهم مخالفات عقدية، ولا ينبغي أن نلتهّي عن تقرير هذا التوحيد في قلوب الناس بأمورٍ سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، فأول ما ينبغي للداعية أن يقرره في قلوب الناس هو تصحيح التوحيد لا سيما توحيد الألوهية إن كان يريد أن تكون دعوتهُ على منهاج النبوة.

وبما أن هذا التوحيد مبنيٌّ على صرف العبادة لله، فلا بد أن نذكر جملًا من القواعد المتعلقة بالعبادة وكيف تعرف العبادة؟ وما يضادها من البدع.

10. كل ما يحبهُ الله ويرضاه فهو عبادة.

فالأقوال والأعمال التي يحبها الله ويرضاها تدخل في مسمى التعبدات كالإيمان والتوحيد، والصلاة والزكاة، والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانات، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والمواثيق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والتعلم والتعليم، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، كل ذلك يدخل في حيز العبادة لما؟ لأنها أمورٌ

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه (17/1) برقم (44).

يحبها اللهُ ويرضاها.

11. العبادات توقيفية في ثبوتها على النصوص.

فلا حق لك أن تخترع عبادة لا دليل عليها وتأمر الناس أن يتعبدوا الله –عز وجل– بها، ودليل هذه القاعدة قول الله –تبارك وتعالى-: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾[الشورى:21]، والإذن هنا هو الإذن الشرعي؛ لأن الإذن المضاف إلى الله ينقسم إلى قسمين: إلى إذنٍ كوني، وإلى إذنٍ شرعي، فالمقصود بالإذن في هذه الآية، أي: الإذن الشرعي، ويدل عليها أيضًا ما في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منهُ فهو ردٌّ»[1]. وفي رواية لمسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أيضا: «مَن عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[2].

12. الله يعبد بما شرع، ولا يعبد بالأهواء والبدع.

فإن الله لا يقبلُ ولا يرفع شيئًا من الأعمال إلا إذا كان قائمًا على ساق لإخلاص والمتابعة للنبي –صلى الله عليه وسلم- وهذا متفقٌ عليه بين أهل العلم، وقد وردت في القرآن آياتٌ كثيرة تذم اتباع الأهواء، وتحذر من اتباع الهوى، بل إنَّ الله –عز وجل- جعل الهوى إلهاً متبعًا، كما قال –تبارك وتعالى-: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾[الفرقان:43]، فإذًا لا يجوز أن نعبد الله، لا بقولٍ ولا بعملٍ إلا إذا كان مشروعًا، وأما الأهواء والبدع فلا يقبل الله –عز وجل- منها شيئًا.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (3/ 184)، برقم (2697)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، (132/5) برقم (4589).

[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (132/5) برقم (4590).

13. كلُ ما لا يعلمُ إلا من جهة الشارع فهو عبادة.

كصفة الصلاة لا تعلم إلا من جهة الشارع، فإذًا الصلاة عبادة، والوضوء لا يعلم إلا من جهة الشارع فهو عبادة، وصفة صلاة الجنازة لا تعلم إلا من قبل الشارع فهي عبادة، وصفة الحجِ لا تعلم إلا من قِبل الشارع فهي عبادة، والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تعلم إلا من قبل الشارع أي باعتبار صفتها فهي عبادة، وهكذا كل شيءٍ لا يعلم إلا من جهة الشرع فهو عبادة، وهي من قواعد أبي العباس ابن تيميه -رحمه الله تعالى-.

14. كل بدعة في الدين فهي ضلالة.

ما علاقة هذه القواعد بتوحيد الألوهية؟ لأن توحيد الألوهية مبناه على العبادات، فإذًا لا بد أن نعرف حقيقتها وما يضادها، كل بدعة في الدين فهي ضلالة، أيّ اختراعٍ في أمرٍ من أمور الدين، فإنهُ يوصف بأنهُ بدعة، وليس في الدين بدعةٌ حسنةٌ، وإنما البدع في الدين كلها سيئة، والدليل على ذلك حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**وكل بدعةٍ ضلالة**»[1]، وحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**مَن عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌ**»[2]، وهذا مجمعٌ عليه بين أهل العلم من أهل السنة والجماعة رحمهم الله تعالى، والخلاف فيها حادثٌ.

15. كل إحداث في الدين فهو رد.

ودليلها حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منهُ فهو رد**»[3] ، والإحداث في الدين لهُ عدة صور:

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (592/2) برقم (867).

[2] سبق تخريجه.

[3] سبق تخريجه.

الأولى: أن ننشأ عبادة لا جنس لها في الشرع، كالذين يتعبدون بمعاشرة الغلمان الملاح، أو يتعبدون بالنظر إلى وجوه المُرد، أو يتعبدون بمعاشرة الأفاعي طلبًا للكرامة، أو يتعبدون بضرب الدفوفِ، هذه العبادات ليس لها أصلٌ في الشرع أصلًا، وهذا الإحداثُ يغنينا عنهُ قاعدة: **الأصل في جنس العبادة التوقيف.**

الصورة الثانية: الإحداث في سبب العبادة، فتجد أنَّ من الناس من يربط عبادة بسببٍ لا دليل على سببيتهِ، كالذين يتعبدون الله في الصوم في يومٍ يعتقدون فضيلة صومهِ ولا دليل على هذه الأفضلية، فإذًا ربطوا عبادة بسبب، البدعة ليست في ذات العبادة وإنما في سببها، فهو إحداثٌ في السبب، ويكفينا في هذا الباب قاعدة تقول: الأصل في سببية العبادة التوقيف.

الصورة الثالثة: الإحداث في صفة العبادة، أي: أنهم يأتون إلى عبادةٍ شرعية، ويحدثون في صفاتها كالصلاة المسماة (بصلاة الرغائب)، أو(الصلاة الألفية)، أو (صلاة التسابيح)، على القول بأنها لا أصل لها، أو ما يسمونه (بصلاة القضاء العمري)، ونحو ذلك.

فهم يحدثون صفةً جديدة لا دليل عليها، فالإحداث الآن في صفة العبادة، ويكفينا في هذا الباب قاعدةٌ تقول: الأصل في صفة العبادة التوقيف.

الصورة الرابعة: الإحداثُ في مكان العبادة، وهي أن يأتي المبتدع إلى عبادةٌ شرعية ويجزم أنَّ فعلها في هذا المكان بعينهِ أفضل من فعلها في المكان الآخر، ولا دليل يدل على أفضلية التعبد لله –عز وجل- في هذا المكان، كالذين يزعمون أفضلية الذبح لله عند قبر الولي، أو يزعمون أفضلية دعاء الله عند قبر الولي، فهم لا يذبحون للولي، ولا يدعون الولي من دون الله، وإنما يزعمون أن فعل هذه العبادات في هذا المكان أفضل، فإذًا الإحداث هنا في ربط العبادة بمكان لا دليل عليه، ويكفينا في هذا الباب قاعدة تقول: الأصل في مكان العبادة التوقيف على الأدلة.

الصورة الخامسة: الإحداث في زمان العبادة، وهي أن يأتي إنسانٌ ويربط عبادةً بزمان لا دليل عليها، ويكفينا في هذا الباب قاعدةٌ تقول: الأصل في زمان العبادة التوقيف.

الصورة السادسة: الإحداث في مقدار العبادة، كالتعبد لله –عز وجل- بالأذكار بعددٍ معين لا دليل عليه، ويكفينا في هذا الباب قاعدة تقول: الأصل في التقدير التعبدي التوقيف، فإذًا صارت العبادة توقيفية بكل متعلقاتها، فالأصل في العبادة التوقيف في كل متعلقاتها، سواءً جنسها أو سببها أو صفتها أو زمانها أو مكانها أو مقدارها.

16. مشروعية الشيء بأصلهِ لا تستلزم مشروعيتهُ بوصفهِ.

وهي قاعدة من قواعد توحيد الألوهية التي تحفظ التعبد لله –عز وجل-؛ لأن من أهل البدع مَن يأتي إلي عبادةٍ مشروعة بالأدلة ثم يضيف عليها وصفًا لا دليل عليه إما وصف هيئة أو وصف زمان أو وصف مقدار أو وصف سبب أو وصف مكان، فإذا أنكرت عليه هذا الوصف استدل عليك بالأدلة التي تثبت الأصل، فترد أنت عليه بهذه القاعدة: أن الأدلة التي ذكرتها أيها المبتدع إنما تدل على الأصل، ودليل الأصل للأصل ويبقى الوصف شيئًا زائدًا يحتاج إلى دليلٍ آخر، فلا حق لك أن تستدل على مشروعية الوصف البدعي بالدليل الذي يدل على الأصل الشرعي.

17. اقتصادٌ في سبيلٍ وسنة خيرٌ من اجتهادٍ في مخالفة وبدعة.

وقد نص على هذه القاعدة بعض الصحابة، واتفق عليها التابعون والأئمة رحمهم الله تعالى، فليست العبرة عند الله كثرة العمل وكثرة الاجتهاد على غير هدى ولا سبيلٍ، ولا سنة، فقليلُ العملِ بإخلاصٍ ومتابعة، خيرٌ من كثيرهِ إذا كان جارياً على مخالفةٍ وبدعة.

18. لا انتفاع بكلمة التوحيد إلا بتحقيق شروطها وانتفاء نواقضها، أي: موانعها.

وهذا مجمعٌ عليه بين أهل السنة والجماعة، فلا يُكتفى بقول العبد: لا إله إلا الله؛ لأن الأدلة دلت على أن الانتفاع بهذه الكلمة مشروطٌ بشروط، وهي الشروط الثمانية التي تعرفونها، والتي جمعها لكم الناظم بقولهِ:

وشروطها سبع إليك بيانها...العلم والإخلاص للرحمان

وكذا المحبة واليقين قبولها...والصدق والتسليم يا إخواني

وأما الكفر بالطاغوت فسيأتينا فيه قاعدة خاصة، ودليل هذه الشروط معلومٌ لديكم إن شاء الله، فمن دليل اشتراط العلم قول الله –عز وجل-: ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[الزخرف:86]، وقول الله –عز وجل-: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[محمد:19]، وفي صحيح مسلم من حديث عثمان رضي الله عنه، يقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: «**مَن مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**»[1]، ودليل الإخلاص قول الله –عز وجل-: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾[الزمر:11]، وقوله –عز وجل-: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾[الزمر:14]، وقول الله –عز وجل-: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾[البينة:5]، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**أسعد الناس بشفاعتي مَن قال: لا إله إلا الله خالصًا من قِبل نفسه**»[2]، ودليل اليقين قول الله –عز وجل-: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾[الحجرات:15]، وقل الله –عز وجل-: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[إبراهيم:10]، وحديث أبي هريرة أو أبي سعيد رضي الله عنهما، عند مسلم، أن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**أشهد أنَّ لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍ فيهما فيحجب عن الجنة**»[3]، وما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «**يا أبا هريرة: اذهب فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبهُ فبشرهُ بالجنة**»[4]، ودليل المحبة قول الله –عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (55/1) برقم (26).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (117/8) برقم (6570).

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، (56/1) برقم (27).

[4] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (59/1) برقم (31).

﴾[البقرة:165]، وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**ثلاثٌ مَن كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، مَن كان الله ورسولهُ أحب إليه مما سواهما**»[1]، وأما دليل الصدق فهو قول الله –عز وجل-: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾[الزمر:33]، ولم يكتف الله –عز وجل- بالمجيء بالصدق حتى أمر بالتصديق بهِ، وقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: «**ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبهِ إلا حرمه الله على النار**»[2]. متفقٌ عليه من حديث أنس –رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، ودليل القبول قول الله –عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[الصافات:35]، أي لا تقبل قلوبهم هذا الكلام، ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[الصافات:36]، وكذلك حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- قال: «**من قبل مني الكلمة التي عرضت على عمي، فردها علي، فهي له نجاة**»[3]. رواه أحمد في المسند، وفي الصحيحين من حديث سعيد المسيب بن حزن عن أبيه: قال: «**لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله". فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله**»[4].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، (12/1) برقم (16), ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (66/1) برقم (43).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا (37/1) برقم (128)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، (61/1) برقم (32). واللفظ للبخاري.

[3] أخرجه الإمام أحمد في مسند الخلفاء الراشدين، من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، (201/1) برقم(20).

[4]أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، (52/5) برقم (3884)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله (54/1) برقم (24).

وأما دليل الانقياد، فهو قول الله –عز وجل-: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾[لقمان:22]، فلا ينتفع العبدُ بهذه الكلمة إلا إذا قالها محققًا لشروطِها.

19. مَن كفر بالطاغوت وآمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى.

ودليل ذلك قول الله –عز وجل-: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:256]، والعروة الوثقى: المقصود بها كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، وقال الله –عز وجل-: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾[النساء:60]، فإذًا من عقيدتنا الكفر بالطاغوت، ويقول الله –عز وجل-: -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾[النساء:51]، وفي صحيح مسلم من حديث طارق بن أشيم رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**مَن قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله فقد حرم ماله ودمه وحسابه على الله**»[1]، والطاغوت هو كل ما تجاوز به العبدُ حدهُ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاع.

20. الإله هو الذي يألههُ القلبُ بكمال الحب، والتعظيم، والإجلال، والإكرام، والخوف، والرجاء.

وهذه من قواعد شيخ الإسلام ابن تيميه –رحمه الله تعالى- في كتابهِ (العبودية) فكل عبادة تصرفها لله –عز وجل- فيجب لزامًا أن تكون مشتملة على هذه الأركان، فنحن نعبد الله محبةً، وإكرامًا، وخوفًا، ورجاءً، وإجلالًا، وتعظيمًا، فأي عبادة انفردت عن واحد من هذه الأركان، فإنها تعتبر عبادة ناقصة، فإذا

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله (53/1) برقم (23).

قيل لك: لمَ تصلي؟ قل: خوفًا، ورجاءً، ومحبةً، وإجلالًا، وتعظيمًا، لمَ تزكي؟ خوفًا، ورجاءً، ومحبةً، وإجلالًا، وتعظيمًا، وهكذا في سائر العبادات.

21. مَن سوى غير الله بالله في شيء من خصائص ألوهيته، فقد اشرك في توحيد الألوهية.

أتذكرون أن هذه القاعدة مرت علينا في الربوبية؟ الجواب: بلى، مرت علينا ولكن قلنا هناك في شيءٍ من خصائص ربوبيتهِ، وهنا نقول: فيها من خصائص ألوهيته، فمَن ذبح لغير الله كما يذبح لله فقد ساو غير الله بالله في عبادة الذبح، ومَن دعا غير الله كما يدعو الله فقد ساوى غير الله بالله في عبادة الدعاء، ومَن ركع أو سجد لغير الله، فقد ساوى غير الله بالله في هذه العبادات، فكل مَن صرف شيئًا من العبادة لغير الله –عز وجل- فقد ساو غير الله بالله في هذا الأمر، ودليل هذه القاعدة قول الله –عز وجل- عن أهل النار: إنهم قالوا: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء:97-98]، وقول الله –عز وجل-: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾[البقرة:22]، أي أشباهاً ونظراء تساونهم به.

22. شرك الألوهية فرعٌ عن شرك الربوبية.

أظنها واضحة والله، وأنا أقيدها كدت أحذفها لوضوحها, يعني أنك لو سألت أي إنسانٍ صرف شيئًا من خصائص الألوهية لغير الله، لمَ صرفتها؟ لمَ عبدت هذا الوثن؟ لمَ عبدت البقرة؟ لمَ عبدت هذا الولي؟ لمَ عبدت هذا النبي؟ فإنهُ سيعلل عبادتهُ بشيء يخص الربوبية، فيقول: أنا أعبده لأنهُ يملك النفع والضر، أو يقول: أعبدهُ لأنه سيشفع لي يوم القيامة، أو أعبدهُ لأني أطلب منه رزقا، أو أعبدهُ لأني أطلب منهُ نصرا، فهو يعلل عبادته وصرفهُ شيئاً من خصائص الألوهية لغير الله بشيءٍ من مقتضيات ربوبية الله –عز وجل-، وقد ذكرنا هذا في قاعدة: الشرك في الربوبية مقدمة الشرك في الألوهية، فإذًا مضمون هذا أنَّ الإنسانَ إذا وقع في شرك الألوهية، فهذا من الأدلة على وقوعه قبل هذا في شرك الربوبية.

23. الشرك أكبر الكبائر وأظلم الظلم على الإطلاق.

فهو اظلم الظلم، وأكبر الكبائر، وأعظم ما نهاك الله عنهُ، وأقبح القبائح على الإطلاق، ودليل ذلك قول الله –عز وجل-: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:13]، وقول الله –عز وجل-: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[الأحقاف:5]، وحديث أبي بكرة رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: الإشراك بالله**» الحديث[1]. وفي حديث ابن مسعودٍ في الصحيحين يقول: «**سألت النبي –صلى الله عليه وسلم- أي الذنب أعظم عند الله –عز وجل-؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[2]، وفي حديث عمير ابن قتادة المعروف عن رجل أدرك النبي –صلى الله عليه وسلم- أنهُ قال: «**يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: هن سبعٌ أعظمها الإشراك بالله**»[3]، وفي حديث عمرو ابن العاص يقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: «**من لقي الله، وهو لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ولم تضره معه خطيئة، كما لو لقيه وهو مشرك به دخل النار، ولم تنفعه معه حسنة**»[4]. أخرجهُ أحمد في المسند.

24. مَن صرف شيئاً لغير الله على وجهٍ لا يليق صرفهُ إلا لله فقد أشركَ.

وبناءاً على ذلك، فمن استعان بغير الله في الأمر الذي لا يقدرُ عليه إلا الله، فقد كفر وأشرك؛ لأن الاستعانة على هذا الوجه لا يجوز صرفها إلا لله، ومَن ذبح

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور (172/3) برقم (2654)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها (91/1) برقم (87).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا} [البقرة: 22] (152/9)، برقم (7520)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده (90/1) برقم (86).

[3]

[4] أخرجه الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (155/11) برقم (6586).

لغير الله تعبدًا وتعظيمًا فقد أشرك؛ لأن الذبح تعظيمًا وتعبدًا على هذا الوجه لا يصرف إلا لله –عز وجل- وعلى ذلك فروعٌ كثيرة.

25. مَن صرف دعاء العبادة لغير الله فقد أشرك.

فمن صلى لغير الله فقد أشرك، ومَن تصدق لغير وجه الله فقد أشرك، ومن حج لغير الله فقد أشرك، ومَن اعتمر لغير الله فقد أشرك، ومَن طاف بالقبر أو بالولي فقد أشرك، فلا تفصيل في صرف دعاء العبادة، وبينت لكم سابقًا أن دعاء العبادة هو أن يفعل العبد عبادة مشروعة يرجو بها وجه الله –عز وجل- وثوابهُ والدار الأخرة، فحقيقتهُ أنهُ دعا، لكن أخرج دعاءهُ على صورة عبادة، فهو دعاء عبادة.

26. مَن دعا غير الله دعاء مسألةٍ فيما لا يقدر عليه غير الله، فقد أشرك.

لقول الله –عز وجل-: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾[الأحقاف:5]، وقول الله –تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[البقرة:186]، وقال الله –عز وجل-: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر:60]، فالتفصيل ليس في دعاء العبادة وإنما في دعاء المسألة، فالذين يسألون الأموات هؤلاء مشركون، والذين يسألون الأحياء الغائبين عنهم أمرًا لا يقدر عليه إلا الله فهؤلاء مشركون أيضًا.

27. الشرك اكبر وأصغر.

وهذا بإجماع أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج الذين يجعلون الشرك صورة واحدة وهو الأكبر.

28. الكفر كفران أصغر وأكبر.

وهذا بإجماع أهل السنة، خلافًا للخوارج أيضًا الذين يجعلون الكفر نوعًا واحدًا وهو الكفر الأكبر.

29. لا يوجب الخلود الأبديّ وحبوط الأعمال والبغضاء والبراء المطلق إلا الكفر والشرك الأكبر.

فليس بيننا وبين مَن وقع في هذا الشرك الأكبر أو الكفر الأكبر، لا مطلق المحبة، ولا مطلق الموالاة، ولا مطلق المودة، ووقوعهم في هذا الشرك والكفر الأكبرين يوجب حبوط الأعمال كلها والخلود الأبدي المطلق في النار، وهو الشرك الذي أجمع العلماء على أنه لا يدخل في حيز المغفرة، يقول الله –عز وجل-: -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾[النساء:47]، أي الشرك الأكبر في أصح القولين، ويقول الله –عزز وجل- عن إبراهيم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة:4]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، يقول الله –عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾[المائدة:50]، أي لكفرهم وشركهم، وقال الله –عز وجل-: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:28]، أي لكفرهم وشركهم، وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**الدواوين عند الله –عز وجل- ثلاثة:... فديوان لا يغفر الله –عز وجل- منهُ شيئًا**، ثم ذكر في آخر الحديث أنه: **ديوان الشرك**»[1].

أي الشرك الأكبر، قال الله –تبارك وتعالى- عن عيسى: إنهُ قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾[المائدة:72].

30. كل ما كان وسيلةً للشرك الأكبر ووصفه الشارع بأنه شركٌ، فأصغر، أي: أنه شرك أصغر.

فالشرك الأصغر حقيقته ما اجتمع فيه وصفان:

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في مسند النساء، من حديث الصديقة عائشة بنت الصدّيق رضي الله عنهما، (155/43) برقم (26031).

الوصف الأول: أن الشارع وصفه بأنه شرك، فلا يجوز لنا أن نصف ذنبًا من الذنوب بأنهُ شركٌ إلا وعلى هذا الوصف دليل من الشرع؛ لأن المتقرر عند أهل السنة أن الوصف بالتحريم لا يستلزم الوصف بالشرك، والوصف بالشرك يستلزم الوصف بالتحريم، فليس كل حرام يعتبر شركا، وكل شرك يعتبر حراما.

الوصف الثاني: أن يكون وسيلة لشيء من الشرك الأكبر، فما كان وسيلةً للشرك الأكبر ووصفه الشارع بانه شركٌ، فإنه يعتبر شركاً اصغر، كالحلف بغير الله – عز وجل- فهو شركٌ أصغر؛ لأن الشارع وصفهُ بأنهُ شركٌ كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قالِ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»[1]. وهو وسيلةٌ للشرك الأكبر، وكالتمائم فإنها شركٌ أصغر؛ لأن الشارع وصفها بأنها شركٌ، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الرقى والتمائم والتولة شركٌ**»[2]. وهي وسيلة للشرك الأكبر، وكالطيرة فهي شركٌ أصغر؛ لأن الشارع وصفها بأنها شركٌ، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**الطيرةُ شركٌ**»[3]. وهي وسيلة للشرك الأكبر، وهكذا...

31. الكفر المُنَكّر في الأدلة كفرٌ أصغر.

وهذا من قواعد أبي العباس ابن تيميه –رحمه الله- وهو من جملة المميزات بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر، فمتى ما ورد عن الشارع قولهُ: كفرٌ، أو قولهُ: فقد كفر، فاعلم أنه يريد الكفر الأصغر، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (162/3) برقم (1535) وقال: "حديث حسن".

[2] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في تعليق التمائم، (9/4) برقم (3883)، وابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب تعليق التمائم، (1166/2) برقم (3530).

[3] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في الطيرة، (17/4) برقم (3910)، وابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة، (1170/2) برقم (3538).

رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**اثنتان بالناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت**»[1]. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[2]. وكما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[3]. وكما في حديث جرير رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**أيما عبدٍ أبَق** [أي: فر من مواليه] **فقد كفر حتى يرجع إليهم**»[4]. وأما الكفر الأكبر، فإنهُ غالبًا ما يرِد في الأدلة معرّفًا بالألف واللام.

32. الشرك الأصغر ينقلب إلى أكبر إذا عظم التنديد وقويت المساواة.

فالشرك الأصغر لا يبقى شركًا أصغر غالبًا، وإنما ينقلبُ من كونه أصغر إلى أكبر إذا عظم التنديد وقويت المساواة في قلبك أيها الإنسان، فالحلف بغير الله هو شركٌ أصغر بالأصالة، لكن إذا قوي التعظيم في قلبك فيكون أكبر، والطيرة شركٌ أصغر، لكن إذا أضفيت على ما تطيرت به أنه الفاعل بنفسهِ فقد عظمت المساواة فيعتبر شركًا أكبر، وعلى ذلك أمثلة كثيرة.

33. السحر بالمعنى الشرعي لا يكون إلا كفرا.

وذلك لأن السحر له حقيقتان: حقيقة لغوية وحقيقة شرعية، فأما حقيقة السحر الشرعية: فإن الساحر لا يصل إلى رتبة السحر إلا بعد أن يكفر ويشرك بالله –عز وجل-، وكلما عظمت صورة كفره وشركه كلما عظم تسخير الجن

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة على الميت (82/1) برقم (67).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى (176/2) برقم (1739)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» (81/1) بر قم (65).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن (15/8) برقم (6044)، ، باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» (81/1) برقم (64).

[4] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تسمية العبد الآبق كافرا (83/1) برقم (68).

والشياطين لهُ، فالساحر هل هو كافر أو لا؟ تقول: أما الساحر بالحقيقة الشرعية فإنهُ يكون كافرًا من غير تفصيل؛ لقول الله –عز وجل-: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾[البقرة:102]، فجعل الله –عز وجل- مجرد تعليم السحر كفرًا وزندقةً وردة، ثم قال الله –عز وجل-: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[البقرة:101]، أي تعلمه، فالسحر تعلماً وتعليمًا كفرٌ، فالمعلم له كافر، والمتعلم له كافر، ولذلك نفي الله –عز وجل- الحظ والنصيب والخلاق عن الساحر في قوله –عز وجل-: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾[البقرة:102] أي تعلمه ورضي به واسترسل معه ودان له، ﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾[البقرة:102] فهذا نكرة في سياق النفي ولا يطلق هذا إلا في حق الكافر الكفر الأكبر؛ لأن من مات على شيءٍ من الذنوب والمعاصي فلهُ مطلق الخلاق، وأما من مات على الكفر فليس له ولا مطلق الخلاق، فلما نفى الله –عز وجل- عن الساحر مطلق الخلاق علمنا أنه بسحرهِ قد كفر.

34. مَن أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم-.

وهذه قاعدةٌ ودليل، فقد نهانا النبي –صلى الله عليه وسلم- عن الإتيان للكهان والسحرة، وعن الإيمان بهم، وعن سؤالهم، وعن تصديقهم، يقول النبي –صلى الله عليه وسلم-: «**من أتى عرافا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»[1]. رواه مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي –صلى الله عليه وسلم-، وفي حديث أبي هريرة في السنن بإسنادٍ جيد يقول –صلى الله عله وسلم-: «**مَن أتى عرافًا أو كاهنًا فسأله فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد –صلى الله عليه وسلم-**»[2]. وفي حديث عمران بن الحصين رضي الله عنهما،

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (1751/4) برقم (2230).

[2] أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض (199/1) برقم (135)، وابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة وسننها، باب النهي عن إتيان الحائض (209/1) برقم (639).

عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**ليس منا من تكهن أو تُكهن له**»[1]. وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي، أنه سأل النبي –صلى الله عليه وسلم- عن الكهان، فقال: «**لا تأتهم**» وقال: «**ليسوا بشيء**»[2]. فإن قلت: هل الكفر المذكور في قول النبي –صلى الله عليه وسلم- فيمن صدّق الكاهن: (فقد كفر بما أنزل على محمد) أهو الكفر الأكبر أم الكفر الأصغر؟ أقول: جوابهُ في القاعدة التي بعدها.

35. تصديق الكاهن في الغيب المطلق كفرٌ أكبر، وفي الغيب النسبي كفرٌ أصغر.

وقد بينت لكم سابقًا أن الغيب ينقسم على قسمين: إلى غيب مطلق وهو الغيب الذي غاب عن كل المخلوقات، واختص الله –عز وجل- بعلمهِ، فلا يعلمه لا ملك مقرب ولا نبي مرسلٌ ولا وليٌ صالح، وأما الغيب النسبي فهو الذي يغيب عن بعضهم لا عن كلهم، فإذا كان الأمر الذي صدقت الكاهن فيه مما يتعلق بشيء من أمور الغيب المطلق، فقد جعلتهُ مساويًا لله –عز وجل- في خصيصة ربوبيتهِ وهي علمه بالغيب المطلق، فهذا كفرٌ أكبر؛ إذ لا شبهة في ذلك، وأما إذا كان الأمر الذي صدقته فيه من قبيل الغيب النسبي فكفرك كفرٌ أصغر؛ لوجود الشبهة، فلعدم وجود الشبهة في القسم الأول جعلناه أكبر، ولوجود الشبهة في القسم الثاني جعلناه أصغر، وهذا قولٌ وسطٌ بين مَن حمل الكفر الوارد في الحديث في قوله: (قد كفر بما أنزل على محمد)، على أنه الكفر الأصغر مطلقًا، أو أنه الكفر الأكبر مطلقا، وخير الأمور أوساطها.

36. مَن نذر لغير الله فقد أشرك.

وذلك لأن النذر عبادة؛ لأن الله -عز وجل- مدح الموفين به، والله لا يمدح إلا على ما يحبه ويرضاه، وكل ما يحبه الله ويرضاه فهو عبادة، قال الله -عز وجل-: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[الإنسان:7]، وقال الله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ

[1] أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب العين، (162/18) برقم (355).
[2] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، (1750/4) برقم (2228).

نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[البقرة:270]، وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه**»[1] . فبما أن الله أمر بالوفاء بالنذر، إذًا نعلم من ذلك أن النذر عبادة ، فمن صرفها لغير الله فقد أشرك؛ فالذي ينذر للملائكة أو ينذر للأنبياء أو ينذر للأولياء أو ينذر للقبور أو للكهوف والمغارات والأشجار والأحجار؛ فإنه خالع ربقة الإسلام من عنقه بالكلية ، فالشرك في صرف النذر ليس فيه شرك أصغر، وإنما مباشرة يقع في الشرك الأكبر ، والله أعلم .

37. النذر عبادة باعتبار صرفه لله وباعتبار الوفاء به لا باعتبار أصل إيقاعه وإنشائه.

قد يقول لنا قائل: كيف يكون النذر عبادة مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عنه؟ وكيف ينهى عما هو عبادة! وذلك في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل**»[2].

فكيف تقول إنه عبادة وقد ثبت النهي عنه؟ نقول: لا إشكال في ذلك، والجواب في هذه القاعدة التي سوف أذكرها لكم؛ ولكن قبل أن أذكر لفظها لابد أن نشرحها أولًا، النذر لابد أن نفرق فيه بين ثلاثة أقسام:

القسم الأول: باعتبار من يعقد به، أو يصرف لمن؟

القسم الثاني: باعتبار الوفاء به بعد عقده.

القسم الثالث: باعتبار أصل إيقاعه أو إنشائه.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة (142/8) برقم (6696).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب الوفاء بالنذر (141/8) برقم (6693)، ومسلم في صحيحه، كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا (1261/3) برقم (1639). واللفظ لمسلم.

أما النذر باعتبار من يعقد به فهو عبادة فلا يجوز عقده إلا بالله –عز وجل- ولله، وهو الذي نقول فيه: من صرف النذر لغير الله؛ فقد أشرك، فلا يعقد النذر لغير الله، فقل: نذر لله، إياك أن تقول نذر للبدوي ولا للنبي ولا للملك ولا للولي، إذاً، فالنذر عبادة؛ باعتبار صرفه لله، هذه واحدة، وإذا عقدته لله، فيجب عليك إذا كان نذر طاعة أن توفي به، فإذًا هو عبادة لله باعتبار الوفاء به، إذا كان طاعة؛ لأن الشارع أمرك به؛ حين قال كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[1]. وجعل الله الوفاء بالنذر من صفات أهل الجنة في قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[الإنسان:7]، إذًا هاتان جهتان من جهات النذر هو عبادة فيهما، وأما النذر باعتبار أصل إيقاعه وإنشائه؛ بمعنى أن الإنسان مثلًا يقول: أنا أريد أن أعبد الله بعبادة، أي عبادة؛ ركوع، سجود، لا، ثقيلةٌ عليّ، صدقة، أيضاً ما عندي فقراء، إذاً بما أن النذر عبادة؛ سأنشئ النذر حتى أتعبد لله به.

النذر يا هذا، أصل إيقاعه محرم؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن إنشائه، فإذًا تجمع بين الأدلة التي تمدح الناذرين، والتي تنهى عن النذر بهذا التفصيل، فالمدح إنما ينصب على عقده بالله، وعلى الوفاء به، والنهي ينصب على أصل إنشائه وإيقاعه.

أضرب لكم مثالًا آخر قريباً من النذر، وهو (الحلف)، أوليس الحلف عبادة، فكونك تحلف بالله هذا عبادة، كونك توفي الكفارة أو توفي بمقتضى يمينك، هذا عبادة، لكن كونك تنشئ الحلف، يقول الله: ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾[المائدة:89]، وقال الشيخ محمد - رحمه الله-: باب ما جاء في كثرة الحلف، إذًا إنشاء الحلف ليس بعبادة، لكن كونك تحلف إذا أردت أن تحلف بالله، مضطرًا أو محتاجا، هذا عبادة، وكونك توفي به بمقتضى يمينك، هذا عبادة، أو تكفر إذا حلفت وحنثت، عبادة.

لكن باعتبار أصل إنشاء اليمين؛ يعني ما رأيكم إذا جئت إنسانًا يقول: والله والله والله... تقول له: ما هذا؟ يقول: أنا أعبد الله، فالحلف عبادة.

---

[1] سبق تخريجه.

هل فعله صحيح؟ الجواب: لا.

القاعدة: النذر عبادة باعتبار صرفه لله، واعتبار الوفاء به، لا باعتبار أصل إنشائه.

وهذا من باب الجمع بين الأدلة التي تنهى عن النذر، والأدلة التي تمدح الوفاء به، فالأدلة التي تمدح النذر وتخبر بأنه عبادة إنما هو في صرفه لله، وفي الوفاء به إذا كان نذر طاعة، وأما باعتبار أصل إنشائه وإيقاعه فمنهي عنه، ولذلك كم من إنسان نذر إنشاء شيء ثقيل على نفسه، ثم صار يطرق أبواب العلماء يبحث عن مخرج له؟ لمَ تكلف نفسك يا أخي شيئاً لم يكلفك الله عز وجل به؟

سئلت قبل يومين؛ عن إنسان نذر أنه إذا نجح في الثانوية بامتياز أنه يصوم يوما ويفطر يوما؟ ما تظنون الجواب؟

يجب الوفاء به إلى أن يموت وهو يصوم يوما ويفطر يوما، لمَ يعجز نفسه، لم ينه عنه، بالعكس هذا أفضل الصيام، فهو لم ينذر طاعة، بل نذر أفضل الصيام، إلا إذا عجز عنه يوما لعجز أو مرض؛ فحينئذ كفارة النذر كفارة يمين. لكن ما دام قادرا على الصيام فيصوم.

لما أوقع نفسه في هذا الحرج؟! لأنه ارتكب النهي، فيماذا؟ في أصل إنشائه.

38. من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه.

ودليلها نفس لفظها من حديث عائشة -رضي الله عنها- أخرجه البخاري.

واعلموا وفقكم الله أن النذر لا يجب الوفاء به؛ إلا إذا كان نذر طاعة فقط، وأما بقية النذر فلا يخلو من أحوال؛ فإن كان نذر معصية فلا يجوز الوفاء به إجماعا، كما سيأتينا في قاعدة بعد قليل. وأما إذا كان نذر لجاج وغضب يعني أن الحامل له على النذر هو الخصومة أو الغضب، فهذا يخير بين الوفاء أو الكفارة، وأما إذا كان نذره نذر شيء مباح نذر لله عليّ أن ألبس ثوبي أو أركب سيارتي أو أشتري هذى السلعة؛ فنذر المباح لا يلزم الوفاء به، وإنما العبد فيه مخير بين الوفاء وبين الكفارة.

بقينا في قسم رابع: وهو النذر المطلق الذي لم يسمه كقوله نذر لله علي ويسكت، فهذا يخير بين أن يصرفه إلى شيء معين أو يبرئ ذمته بالكفارة. إذا لا تصف الوفاء بالنذر بأنه واجب إلا إذا كان المنذور طاعة، فإن قلت وما كفارة النذر الشركي؟ الجواب لا كفارة فيه إلا النطق بالشهادة.

فإن قلت وما الفرق بين نذر المعصية الذي أوجبت فيه الكفارة، وبين النذر الشركِ الذي لم توجب فيه الكفارة؟ نذر الشرك: هو (النذر المصروف ابتداء لغير الله)، وأما نذر المعصية: (فهو النذر المصروف ابتداء لله لكن على أمر محرم).

وأضرب لكم مثالين وأنتم تحددونها أهي نذر شرك أم نذر معصية، قال رجل نذر لله عليه أن يشرب خمرا؛ هذا نذر معصية. طيب، نذر للسيد البدوي أن أصوم يوما وأفطر يوما؛ صيام يا رجل! هذا هو نذر شرك، هذا هو الفرق بين نذر الشرك ونذر المعصية.

39. لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين.

وهذه القاعدة نص حديث نبوي مرفوع للنبي –صلى الله عليه وسلم- من حديث عائشة رضي الله عنها، يقول فيه: «**لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين**»[1]. ونذر المعصية هو النذر المصروف لله ابتداء لكن على أمر محرم شرعاً. أجمع العلماء على حرمة الوفاء به، وتبرأ ذمة الإنسان منه بكفارة اليمين المعروفة.

40. مَن ذبح لغير الله تعبدًا وتعظيماً، فقد أشرك الشرك الأكبر.

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية (232/3) برقم (3290)، والترمذي في سننه، أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نذر في معصية (155/3) برقم (1524)، والنسائي في سننه، كتاب الأيمان والنذور، كفارة النذر(26/7) برقم (3835)، وابن ماجه في سننه، كتاب الكفارات، باب في النذر في المعصية، (686/1) برقم (2125). وصححه الألباني.

وذلك لأن الذبح أقسام: القسم الشركي منها هو أن تذبح لغير الله، بقصد تعظيمه والتعبد له، أي أن تتعبد للمذبوح له من دون الله -عز وجل-، هذا القسم هو الذي يعتبر صرفه لغير الله شركاً.

وأما الذبح لإكرام الضيف هو مأمور به شرعا إما أمر إيجاب أو أمر استحباب، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعبد الرحمن بن عوف: «**أولم ولو بشاة**» [1].

وأما الذبح بقصد الاستمتاع باللحم الذي يسمونه ذبح الثلاجة، فهذا مباح.

إذًا الذبح لغير الله لا يدخل في دائرة الاعتقاد إلا إذا كان قصد الذابح التعبد بهذا الذبح لغير الله -عز وجل- ودليلها قول الله -عز وجل-: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[الكوثر:2]، فخص الله عز وجل في هذه الآية أعظم العبادتين المالية وهي الذبح، والبدنية وهي الصلاة، فكما أنه لا يصلى إلا لله، فكذلك لا ينحر ولا يذبح إلا لله، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾[الأنعام:162-163]، نسكي أي ذبحي، فدل على أن من ذبح لغير الله فقد اتخذ مع الله شريكا آخر.

41. لا تفعل عبادة لله في مكان يفعل فيه جنسها لغير الله.

فلا يجوز أن نذبح لله بمكان يذبح فيه لغيره، ولا أن نصلي لله في مكان يصلى فيه لغير الله، ولا أن نذكر الله في مكان يذكر فيه غير اسم الله -عز وجل-، ودليلها قول الله -عز وجل- لنبيه في حق مسجد الضرار: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[التوبة:108]، فنهاه عن الصلاة في هذا المكان الذي سيصلى فيه لغير الله، أو لم يبن أساساً لله ، وأخرج أبو داوود في سننه بإسناد، على شرط مسلم من حديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه: «**نذر رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينحر إبلا ببوانة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هل كان فيها وثن من أوثان**

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الوليمة ولو بشاة، (24/7) برقم (5167)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب الصداق، وجواز كونه تعليم قرآن، وخاتم حديد، وغير ذلك من قليل وكثير، واستحباب كونه خمسمائة درهم لمن لا يجحف به (1042/2) برقم (1427).

الجاهلية يعبد؟» قالوا: لا، قال: «هل كان فيها عيد من أعيادهم؟»، قالوا: لا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم» [1].

لم اختص السؤال عن هذا المكان في مسألة العيد ووجود الوثن؟ الجواب: لأن عادة المشركين عند أوثانهم أن يذبحوا القرابين، وعادة الشركيين في أعيادهم أن يذبحوا أيضًا، فلما علم النبي سلامة هذا المكان من وجود الذبح فيه لغير الله، أجاز الذبح فيه لله -عز وجل-، وهذا النهي ليس نهي مقاصد، وإنما نهي وسائل عن إحياء سنة المشركين في الذبح لغير الله، أو في الصلاة لغير الله.

42. مَن خاف من غير الله خوف تعبد وسر، فقد أشرك الشرك الأكبر.

كما هي حال المشركين مع أوثانهم فإنهم كانوا يخافون الأوثان خوف تعبد وسر، أما قولنا: خوف تعبد فهو خوف يتعبدون به لهذه الأوثان، وأما قولنا: وسر، أي: ليس هناك أسباب حسية ظاهرة توجب أن تخاف منه، وإنما أنت اعتقدت سرّاً في قلبك وجود هذه الأسباب؛ فخفت، إذاً سبب الخوف سرّي ليس ظاهرا ولا واقعا، كالخوف من شجرة أن تصيبك بسوء أو الخوف من ميت فتجدك عند قبره خائفا منه، كما قال قوم سيدنا هود له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِنْ دُونِهِ﴾[هود:54-55]، فجعل خوفهم منها نوع تعبد.

فإن قلت: أو لسنا نخاف من الجن؟ الجواب: الخوف من الجن ينقسم إلى قسمين: خوف طبيعي لا لوم على الإنسان فيه، كأن يخاف من المكان الخالي، أو يخاف من أن يفاجئه جن، أو إذا قيل: إن في هذا المكان جنًا؛ خاف من الإتيان إليه، هذا كخوف العبد من اللصوص أو من النار والحية، هذا خوف طبَعي؛ أما من يخاف من الجن خوف سر، أن يصيبوه بأي ضرر لم يقدره الله -عز وجل- أو خوفا مبنيا على أن الجن تملك نوعا من التدبير والتصريف بدون إذن الله-عز وجل-، فانقلب الخوف من خوف طبعي إلى خوف سر وتعبد. وهذا الخوف لا يجوز أن

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر (238/3) برقم (3313).

يصرف لغير الله -تبارك وتعالى-، فمن صرف شيئا من خوف التعبد أو السر لغير الله؛ فقد اتخذه شريكا مع الله -تبارك وتعالى-، ولذلك يقول الله –عز وجل-: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:175]، فعلق الإيمان على توحيده بالخوف، وقال الله –عز وجل-: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[التوبة:13].

43. مَن توكل على غير الله في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد أشرك الشرك الأكبر.

لقوله -عز وجل-: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:23]، وقوله أيضا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَلِ المُؤْمِنِينَ﴾[التوبة:51]، وقوله –عز وجل-: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:3].

44. من استعان بغير الله، في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك الشرك الأكبر.

فالاستعانة تكون عبادة إذا كانت في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله، وأما الاستعانة بالمخلوق في الأمر الذي يقدر عليه المخلوق، فهذا ليس بعبادة ولا يعتبر صرفه لغير الله من الشرك.

45. من استعاذ بغير الله في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد أشرك الشرك الأكبر.

ومعني ذلك أن الاستعاذة بغير الله تنقسم إلى قسمين: استعاذة بغير الله في الأمر الذي يقدر عليه المخلوق فهذا ليس من العبادة، ولا بأس به ولا حرج؛ وأما الاستعاذة بغير الله في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله فهذا هو المحذور والذي يعتبر شركا أكبر، وبناء على هذا **فالاستعاذة بالأموات** تعتبر شركا أكبر بلا تفصيل، **والاستعاذة بالأحياء الغائبين** تعتبر شركا أكبر، بلا تفصيل، **وأما الاستعاذة بالأحياء الحاضرين**، فإن كانت في أمر مقدور، فلا بأس، وإن كانت في أمر غير مقدور، فهي شرك.

<u>ومن القواعد أيضًا:</u> من استغاث بغير الله في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله؛ فقد أشرك الشرك الأكبر.

<u>ومن القواعد أيضًا:</u> من أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، فقد كفر.

وإذا سمعت العلماء يقولون: المعلوم من الدين بالضرورة؛ يعني أن الأدلة تواترت على إثباته، وثبت واشتهر العلم به، فلم يعد العلم مقصورا على أهل العلم، وإنما صار العلم به مشتهرًا حتى صار من العلوم الضرورية التي لا تكاد تنكر، فيعلمه الصغار والكبار والعلماء و العوام وتواترت عليه الأدلة، فمن أنكر هذا فقد كفر، حتى ولو كان إنكار شيء حلال كمن قال إن الماء حرام، هنا أنكر معلوما من الدين بالضرورة؛ وهو حل الماء فهو كافر، أو قال: إن الخبز حرام، فيكون كافراً، أو أنكر واجبًا معلومًا من الدين بالضرورة، كمن أنكر وجوب الصلوات، أو أنكر وجوب الزكاة، أو أنكر وجوب الصوم والحج، أو كان إنكاراً لما هو حرام من الدين بالضرورة؛ كمن أنكر تحريم الزنا أو تحريم السرقة أو تحريم شرب الخمر ونحوها من المحرمات. فإذا كان الشيء المعلوم معلوما من الدين بالضرورة، فمن أنكره فقد كفر.

<u>ومن القواعد أيضًا:</u> الأصل استواء الخوف والرجاء في قلب المؤمن، إلا إذا اقتضت المصلحة ترجيح أحدهما.

وذلك لأن المؤمن يعبد الله -عز وجل- بالخوف والرجاء، وهي التي عبر القرآن عنها بالرغب والرهب في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[الأنبياء:90]، أي: يعبدوننا، فلا يعبد الله بالخوف وحده؛ لأنه موجب للقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، ولا يعبد بالرجاء وحده؛ لأنه موجب للأمن من مكر الله، والوقوع في معصية الله، وإنما المؤمن يعبد الله خائفا وراجيا.

فالوعيدية من الخوارج والمعتزلة عبدوا الله بماذا؟ بالخوف فقط.

والمرجئة عبدوا الله بماذا؟ بالرجاء فقط، فضلوا في تعبداتهم، وأما عبادة أهل السنة؛ فهي عبادة مستقيمة على الصراط المستقيم؛ لأنهم جمعوا في تعبداتهم بين

الخوف والرجاء، هل يمكن أن نغلب أحدهما؟ الجواب: يغلب أحدهما إذا اقتضت المصلحة تغليب الرجاء، الأصل الاستواء.

مثاله: عند الموت دل الدليل على تغليب جانب الرجاء؛ لحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**» [1].

المثال الثاني: عند التوبة من الذنوب والمعاصي، نغلب الخوف أم نغلب الرجاء؟ نغلب الرجاء؛ لأن التائب إذا غلب الخوف، قنط من رحمة الله أن يتوب عليه.

المثال الثالث: عند وفور الصحة والمال، وقرب المعصية يُغلّب العبد ماذا؟ جانب الخوف؛ لأنه لو غلب جانب الرجاء في هذه الحالة وقع في الغرور.

46. دخول الجنة لأهل التوحيد ابتدائي وانتقالي.

أما قولنا: ابتدائي، فمعناه: أن تكون الجنة هي أول دورهم، وأما قولنا: انتقالي، فمعناه: أن تكون الجنة هي ثاني دورهم.

إذًا، من مات على أصل التوحيد فسيدخل الجنة، إما ابتداء وإما انتقالا، فيدخل أهل التوحيد الجنة ابتداء إذا غفر الله لهم كبائرهم، إذا مات العبد على شيء منها، ويدخل الجنة انتقالا إذا لم يتب الله عليه ولم يغفرها له، فإنه يعذب في النار ما شاء الله أن يعذب، ثم يخرج إلى الجنة انتقالا.

إذًا، من مات على أصل التوحيد، فسيدخل الجنة إما دخولاً ابتدائيّاً، أو دخولاً انتقاليّاً.

47. تحريم الجنة في الأدلة على من معه أصل الإيمان، يراد به مطلق التحريم لا التحريم المطلق.

كالأدلة التي تخبر بأن الجنة حرام على من فعل كذا وكذا غير الشرك. كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال:

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (2205/4) برقم (2877).

«**لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر**» [1]. فمتى ما رأيت الأدلة تحرم الجنة على أحدٍ من أهل الكبائر، فاعلم أنه لا يراد بها التحريم المطلق كتحريم الجنة على أهل الشرك الأكبر، أو الكفر الأكبر أو النفاق الأكبر، لا، وإنما يراد بها مطلق التحريم، يعنى بعض التحريم لا كله، فإذا مات الإنسان على شيء من الكبر، فالجنة عليه حرام مطلق التحريم لا التحريم المطلق. لا يدخل الجنة قتّات؛ المقصود بها مطلق التحريم لا التحريم المطلق؛ فإن قلت: ولماذا تقرر هذه القاعدة؟ فأقول: حتى يتميز مذهبنا عن مذهب الخوارج، الذين يحملون التحريم في حق أصحاب الكبائر على التحريم المطلق، وبه استدلوا على كفر صاحب الكبيرة، وأنه لا حظ له في الجنة أبدا.

48. ما كان كفرًا، بالذات فلا يشترط فيه الاستحلال، وما ليس بكفر بالذات، فيشترط فيه الاستحلال.

أعني في التكفير به، ومذهبنا الذي قررته هذه القاعدة وسط بين مذهب الوعيدية والمرجئة، أما المرجئة فيشترطون الاستحلال مطلقا من غير تفصيل، حتى لو سجدت تحت الصنم وهذا كفر، فلا يكفرك المرجئة إلا إذا سألوك: أأنت تستحل السجود لغير الله أم لا؟ ولو أنك استغثت بغير الله، دعوته في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله، فإنهم لا يبادرون بتكفيرك إلا بعد أن يسألوك: أأنت تستحل دعاء غير الله أم لا تستحل؟ وهذا مذهب إرجائي خبيث باطل. وقابلهم الوعيدية الذين يكفرون بالذنب مطلقا، سواء استحل أو لم يستحل، فمن زنى كفر ولو كان معتقدا حرمة الزنى، ومن سرق كفر ولو كان معتقدا حرمة السرقة، فالأولون يشترطون الاستحلال مطلقا، والوعيدية لا يشترطون الاستحلال مطلقا.

فجاء أهل السنة، وقالوا: هناك ذنوب لا نشترط في التكفير بها استحلالها، وهي ما كان كفرا بالذات، وهناك ذنوب لا نكفر بها إلا إذا استحلها فاعلها؛ وهي ما ليس بكفر بالذات، وبناء على ذلك فمن سجد لغير الله فقد كفر، ولو لم يستحل، ومن دعا غير الله في الأمر الذي لا يقدر عليه إلا الله فقد كفر، ولو لم يستحل،

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (93/1) برقم (91).

لكن من زنى لم يكفر إلا إذا كان مستحلا للزنا، ومن سرق فلا يكفر إلا إذا كان مستحلا للسرقة، وهذا مذهب وسط واضح بين هذين المذهبين الضالين.

49. لا يُحلف إلا بالله أو بصفة من صفاته؛ وذلك لأن الحلف عبادة، فلا يصرف إلا لله -تبارك وتعالى-.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**» [1]. وفي حديث ابن عمر رضي الله عنه، أيضا، يقول صلى الله عليه وسلم: «**لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت**» [2]. ونهى–صلى الله عليه وسلم- عن الحلف بالأنداد والأوثان والطواغيت، وفي حديث بريدة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من حلف بالأمانة فليس منا**» [3]. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله**» [4]. فإن قلت: هل الحلف بالله هو شرك أكبر أو أصغر؟ فهو أصغر بالأصالة لكن إذا قوي وعظم التنديد بالمساواة في القلب حتى عظم المحلوف به كتعظيم الله فقد أشرك الشرك الأكبر، وأما قوله في حديث طلحة رضي الله عنه، عند مسلم في صحيحه: «**أفلح وأبيه إن صدق**» [5]. فهي لفظة شاذة، والحفاظ يروونها: (أفلح إن صدق) .

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه، أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله (162/3) برقم (1535) وقال: "حديث حسن".

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها (120/9) برقم (7401)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى (1267/3) برقم (1646).

[3] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالأمانة (223/3) برقم (3253).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلا (27/8) برقم (6107)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب من حلف باللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله (1267/3) برقم (1647).

[5] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام (41/1) برقم (11).

50. لا يجوز الحلف بالمخلوق، وإن علت منزلته.

ذلك أن من الناس من إذا أنكرنا عليه الحلف بالنبي، قال: هو رسول الله، فنقول: حتى وإن كان رسول الله؛ فإنه لا يجوز أن نتجاوز بمنزلته إلى منزلة الربوبية، أو نضفي عليه شيئاً من خصائص الألوهية.

وأما الرواية المنقولة عن الشيخ أحمد في جواز الحلف بالنبي، فإنها لا تصح عنه، وإن صحت فليس قول أحد من الناس كائنا من كان بحجة على دين الله -عز وجل-، فلا يجوز الحلف بجبريل ولا بميكائيل ولا بإسرافيل ولا بحياتك ولا بالعيش والملح والأمانة ورأس أبيك ورأس أمك ورأس الشغالة، ولا يجوز الحلف بالوطن ولا بالملوك والأمراء ولا بأجدادك وأسلافك ولا بقبيلتك. مهما عظم المحلوف به، فلا يزال يحرم الحلف به.

51. الشرك والكفر إن اجتمعا افترقا وإن افترقا اجتمعا.

فهما كلفظَي الإيمان والإسلام، وكلفظَي الاستغفار والتوبة، وكلفظَي الفقير والمسكين، بل وكلفظَي القضاء والقدر، فهذه الألفاظ لها معنى عند اجتماعها، ولها معنى عند افتراقها فإذا ذكر في الأدلة الشرك وحده دخل معه الكفر كقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[النساء:48]، أي وأن يكفر به وإذا ذكر الكفر وحده دخل معه الشرك تبعا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾[النساء:167]، أي وأشركوا وصدوا، وأما إذا كفر وشرك؛ فهنا يكون معنى الشرك ما كان فيه تنديد ومساواة، ويكون معنى الكفر ما كان فيه جحود وتعطيل. فتارك الصلاة كافر أو مشرك؟ كافر من جحد شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة، كافر أو مشرك؟ كافر لأن كفره مبني على جحود وتعطيل، لكن من دعا غير الله مشرك؛ لأن فيه مساواة، فما كان يحمل طابع التنديد والمساواة فهو شرك، وما كان يحمل طابع الجحود والتعطيل والإنكار فهو كفر. هذا أصح أقوال أهل العلم في هذه المسألة.

52. لا تنفع كلمة التوحيد مع الوقوع فيما يناقضها.

فلو أن الإنسان قال: لا إله إلا الله ووقع في شيء من نواقضها، فلو قالها ألف مرة ما نفعته؛ ولو أنه كلما توضأ أحدث، فلا تنفعه الطهارة، فهو حينئذ كالذي يقول: لا إله إلا الله ويقع في الشرك الأكبر، فإنها لا تنفعه، أو يقول: لا إله إلا الله، ويدعو ويستغيث بغير الله، ويتخذهم وسائط في الدعاء والاستغاثة بما بينه وبين الله فلا تنفعه، أو كالذي يقول: لا إله إلا الله، ويتعامل بالسحر تعلما وتعليما فهي لا تنفعه، أو كالذي يقول: لا إله إلا الله ويظاهر الكفار أو يواليهم أو يعاونهم على المسلمين، فإنها لا تنفعه، إذا كانت موالاة اعتقاد ومعاونة اعتقاد، على تفصيل مذكور في غير هذا الموضع، وإذا قال: لا إله إلا الله وهو يسخر أو يستهزئ بشيء من الدين، فإنها لا تنفعه، وإذا قال: لا إله إلا الله وهو مبغض بغض قلب لشيء مما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فإنها لا تنفعه، وإذا قال: لا إله إلا الله وهو معرض عن الدين الإعراض المطلق، فلا يتعلمه ولا يعمل به، فإنها أيضا لا تنفعه، وهكذا. وهنا يتم دراسة نواقض الإسلام العشرة.

53. الشرك الأكبر محبط لجميع الأعمال إن مات مصرًا عليه.

وقد دلت الأدلة على أن حبوط العمل ينقسم إلى قسمين: إلى مطلق الحبوط، والحبوط المطلق، فلا يحبط الأعمال الحبوط المطلق إلا الشرك الأكبر إذا مات إنسان عليه، وأما مطلق الحبوط، فهو كل ذنب غير الشرك دل الدليل على أنه يحبط العمل، كترك صلاة العصر في حديث بريدة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**» [1]. يقصد مطلق الحبوط أي عمل يومه، لا الحبوط المطلق، فلا يحبط جميع الأعمال إلا الشرك، قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[الزمر:65].

54. مَن اتخذ بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويستغيث بهم ويتوكل عليهم، كفر إجماعاً.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب من ترك العصر (115/1) برقم (553).

لقول الله -عز وجل-: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾[الأحقاف:5]، فسمى الله دعاءهم والاستغاثة بهم عبادة.

55. مَن استهزأ بالله أو برسوله أو بآياته أو بما جاء به الشرع كفر إجماعاً.

لقول الله -عز وجل-: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:65-66]، فوصفهم الله -عز وجل- بالكفر بعد الإيمان؛ بسبب أنهم استهزؤوا.

والاستهزاء ينقسم إلى قسمين: استهزاء صريح، واستهزاء خفي، أما الاستهزاء الصريح: فكسبّ الله أو سب رسوله أو سب شيء من الشريعة، أو السخرية باللحية أو بتقصير الثياب أو بالزواج بأكثر من أربع أو بحجاب المرأة، ونحو ذلك، فهذا كفر أكبر، وهو علامة الشرك والكفر، كما قال -عز وجل-: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[المائدة:58]، وأما النوع الآخر وهو أكثره، وهو الاستهزاء الخفي كغمزة بالعين استهزاء أو إخراج اللسان وإدخاله استهزاءاً، أو إشارة باليد أو بالرأس، فهي كفر أيضاً؛ لعموم الأدلة.

56. مَن تولى الكفار موالاة قلبية، فقد كفر.

وهذه محلّ خلاف كثير من أهل الإسلام، فمن من أهل الإسلام من يجعل كل صور الموالاة صغيرها وكبيرها من الكفر الأكبر، ومن أهل العلم من يجعل الموالاة من الكفر الأصغر، ومن أهل العلم من فصل في ذلك و توسط قوله وهو الصحيح عندي إن شاء الله، وسواء إن كان هو القول الصحيح عندك أو لا، فلا حق لك أن تبغضني ولا أن تحاربني ولا أن تغضب عليّ ولا أن تسفهني؛ لأن الخلاف في هذه المسألة خلاف دائر بين أهل السنة أنفسهم، والمتقرر عندنا أن كل خلاف في دائرة مذهب أهل السنة والجماعة، فلا يعتبر من مسائل العقيدة الكبار التي يوالى ويعادى عليها، فالقول الصحيح عندي في هذه المسألة، أن من

صور الموالاة ما يعتبر كفرًا أكبر، ومنها ما يعتبر كفرًا أصغر، وجريمة من الجرائم، وعظيمة من العظائم، لكن لا يصل بصاحبه إلى الكفر الأكبر، ومن صور الموالاة ما هو جائز، ومنها ما ليس بموالاة أصلا، ولكن أنت بفهمك الفاسد جعلته موالاة، فالقاعدة تنص على أن الموالاة تعتبر ناقضا من نواقض الإسلام، إذا كانت نابعة عن قلب، وهي موالاة الباطن، وأما الموالاة في الظاهر منفردة عن موالاة الباطن؛ فقد دل الدليل على أنها كبيرة ومحرمة؛ ولكن لا تصل بصاحبها إلى الكفر الأكبر.

وسواء وافقتني أو خالفتني فهذا اجتهاد؛ فاحترمني وأحترمك، وأحبني وأحبك؛ لأن من الناس من يجعل مسألة خلافية هي كلَّ الدين، فأنت محترم عنده وطالب علم عنده ومؤدب عنده، وتستحق أن يجلس عندك لطلب العلم إذا وافقته في هذه المسألة الخلافية، ولكن متى ما خالفته فسيصب عليك جام غضبه وسيهجرك ويهجر حلقاتك، هذا سفه؛ ولذلك قول الله -عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[المائدة:51]، محمول على الموالاة القلبية جمعاً بينه وبين حديث حاطب، وقول الله -عز وجل-: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:28]، وافهم كلمة (من دون) لو أنه والاهم ووالى المؤمنين، لكانت موالاته لهم مع المؤمنين، وليست من دون المؤمنين، فإذا كلمة (من دون) لها مدلولها، وهي أنه لم يبق في قلبه أصلاً لا مطلق المحبة، ولا مطلق الموالاة ولا مطلق النصرة لعباده المؤمنين، وإنما انصرف أصلا قلبا وقالبا ظاهرا وباطنا للكفار، فإذا والاهم من دون المؤمنين، ولم يوالهم مع المؤمنين، فـ(الموالاة مع) لها شأنها، و(الموالاة من دون) لها شأنها.

ولذلك الله -عز وجل- في قصة حاطب أخبر أن ما فعله حاطب موالاة، قال تعالى في الآية التي اتفق المفسرون على أنها نزلت في حاطب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[الممتحنة:1]، فسمى كتابة حاطب للكفار موالاة، لكن الموالاة التي فعلها حاطب ليست من الموالاة الكفرية، وإنما من الموالاة المحرمة التي هي من الكبائر، بدليل عدة أمور:

الأمر الأول: أن الله نادى حاطبا، ومن كان في منزلته بنداء الإيمان في أول الآية، فدل ذلك على عدم خروجه من الإسلام.

الأمر الثاني: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- استفسر حاطباً عن نوع هذه الموالاة، فلو كانت كل صور الموالاة كفرا لما كان لاستفساره داع.

الأمر الثالث: حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه صلى الله عليه وسلم قال: «**وما يدريك يا عمر لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[1]. فدل ذلك على أن الموالاة والمودة التي صدرت من حاطب، من جملة ما يُكفّره شهوده بدرا، فلو كانت كفرًا، لما كفرها شهود بدر.

وأراد الخوارج أن يحاولوا تأويل هذا النص، لكن أكثر أهل السنة يصرون على أنه من جملة الأدلة التي تدل على أن ناقض الموالاة ليس ناقضا في كل صوره، وأما الموالاة الجائزة فهي موالاة الاضطرار؛ لقول الله –عز وجل-: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[آل عمران:28]، فهو يظهر موالاة تقية حتى يتخلص من أسرهم أو ينفك من ظلمهم، وحبسهم.

وأما القسم الرابع: فهي صور من الموالاة أدخلها بعض الناس، وجعلوها موالاة وليست بموالاة، كافتتاح سفارات للبلاد الكافرة في بلاد المسلمين، من قال لك: إن هذا موالاة؟ أو كمعاونة الكفار إذا حل عليهم شيء من مصائب الدنيا كالزلازل أو الفيضانات أو الحرائق، فإن من أهل الإسلام من يجعل مجرد معاونتنا لهم موالاة. وهذا فيه نظر, من الذي قال لك ذلك؟ لا أقصد الحرائق التي في إسرائيل، أسأل الله أن يزيدها، ولا يجوز لأحد أن يعينهم فيها؛ لأن من أعانهم على إطفائها فكأنه يقر وجودهم في هذا المكان المغصوب أصلاً، فدعوها تحرقهم أعلاهم وأسفلهم؛ لكن أنا أتكلم عمن ليس بيننا وبينهم حرب من الناس، من يجعل مجرد البر والإقساط للكافر الذي ليس بحربي موالاة، وهذا خطأ، وأين أنت من قول الله -عز وجل-: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، (59/4) برقم (3007).

يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:8]، فهذا هو الراجح عندي، وافقتني الحمد لله خالفتني لك اجتهادك، وأنا أحترمه، ولي اجتهادي والحق لي أن تحترمني، لكن هل يوجب بيننا تهاجرا، هل يوجب بيننا ضغينة وتحاقدا، هل يوجب بيننا تدابرا و تباغضا؟ الجواب: لا، فلنتأدب بآداب الخلاف قبل أن نبحث في مسائل الخلاف، فنحن إلى معرفة أدب الخلاف أحوج إلى معرفة الراجح من الخلاف. إذًا، الموالاة التي تعتبر ناقضا هي الموالاة باطنا وظاهرا...

57. كل ناقض مبني على التفصيل، فلا يجوز إطلاق التكفير به.

معناها أن من النواقض ما يقرره أهل العلم بأنه ناقض، ولكن لا يقصدونه ناقضا في كل صوره، وإنما في بعض صوره فقط، كناقض الإعراض، هل من أعرض عن شيء من شريعة الله يعتبر كافرا؟ الجواب لا، لأن الكفر في الإعراض المطلق، لا مطلق الإعراض، فإذاً، لا يجوز لك أن تقول: من أعرض عن شريعة الله فقد كفر؛ لأنه ناقض يبنى على التفصيل، فلا تطلق التكفير به، لا سيما في هذا الزمان يا إخوان، الذي قد يسمع هذا الإطلاق والإجمال أناس ليس عندهم خلفيات تفصيلية ولا علمية، فيظنون أنه كفر في كل صوره، وأما إطلاق الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذه النواقض في النواقض العشرة، فإنما ألفها لطلبة العلم في زمانه، الذين يعرفون تفاصيل هذه النواقض فهو أراد أن يختصرها لهم في هذه النواقض العشرة، أنتم معي في هذا، وكذلك الموالاة ليست ناقضة في كل صورها، وإنما في بعضها دون بعض، وكذلك الحكم بغير ما أنزل الله ليس ناقضا في كل صوره، وإنما في بعض صوره دون بعض. وقد ناقشني رجل في تركيا عن هذا، وغلظ علي في القول، قال: بل من حكم بغير ما أنزل الله فقد كفر، أنا أعلم أنه متحمس؛ لأنه لم يكن في قلبه إلا الطغاة الذين استبدلوا شريعة الله استبدالا مطلق. فقلت له: أأنت تقر بهذا الكلام بأن من حكم بغير ما أنزل الله فقد كفر في كل الصور؟ قال: نعم في كل الصور، قلت: طيب. ما رأيك لو أنك جمعت بين ابنك وابنتك في فراش واحد بعد بلوغ سبع، وحكمت عليهما أن يناما في فراش واحد، هل حكمت عليهما بحكم الله ورسوله ولا حكمت بغير حكم

الشريعة؟ قال: بغير حكم الشريعة، قلت: إذًا أنت حكمت على نفسك بأنك كافر، لو أن ابنك أخطأ خطأ لا حد فيه وجلدته أحد عشر سوطًا، وفي حديث أبي بردة رضي الله عنه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «**لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله**»[1]. تعتبر كافرا بسوط واحد. قال: لا، أنا ما أقصد هذا. قلت: أنا أعلم أنك ما تقصد، إذاً حتى التكفير بالحكم بغير ما أنزل الله عندك فيه تفصيل، فلا يحملنك حال الطغاة من الحكام والرؤساء في هذا الزمان أن تجمل القول في هذا الناقض، وإنما لابد فيه من التفصيل، إذاً هذه قاعدة عظيمة يا إخوان، كل ناقض يبنى التكفير به على التفصيل، فلا يجوز إطلاق التكفير به.

58. لا يدخل الجنة مشرك.

لقول الله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[المائدة:72]، أي: التحريم المطلق الدائم، وحديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «**وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة**»[2]. ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمر: «**يا عمر، اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون**»[3]. والأدلة على هذا كثيرة.

59. مَنْ أعرض عن الشريعة الإعراض المطلق لا يتعلّمها ولا يعمل بها، فقد كَفَر.

أي: الكفر الأكبر، والدليل على ذلك قول الله - عزّ وجلّ-:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ}[الأحقاف:3].

والإعراض ينقسم إلى قسمين:

---

[1]أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب: كم التعزير والأدب (174/8) برقم (6850), ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قدر أسواط التعزير (1332/3) برقم(1708) .

[2]أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر (72/4) برقم (3062)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (200/1) برقم (221). واللفظ لمسلم.

[3] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول، وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (107/1) برقم (114).

- الإعراض المُطلق الكامل.
- مُطلق الإعراض فالذي يُعتبرُ رِدّة وكفرًا هو الإعراض المُطلق، لا مطلق الإعراض.

60. جنس العمل ركنٌ في الإيمان، لا آحاده إلا بدليل.

وقد أجمع أهل السنة على أن العمل داخل في مسمى الإيمان، وأنّه ركنٌ من أركانه، ولكن العمل الذي هو ركن في الإيمان هو جنس الأعمال، وأما آحاد العمل فليست شرطًا في صحة الإيمان، ولا في وجوده إلاَّ إذا دلَّ الدليل على كُفرِ مَنْ ترك هذا العمل, بخصوصهِ, كالصلاة.

فإذا شهد الإنسان الشهادتين، ثم اكتفى من الإسلام بتلك الشهادتين، فلم يقم بعملٍ من الأعمال الخاصة بالشريعة كالصلاة، أو الزكاة، أو الحج، أو العمرة وغيرها، فقد تركَ جنس العمل، فحقيقته أنّه كافرٌ، وليس بمؤمن.

وأما إذا نطق بالشهادتين، وجاء ببعض الأعمال الشرعية، ولكنّه تَخلّف عن بعضها، فلم يحج مثلًا أو لم يُزكِّ، فهذا تارك لآحاد العمل، وتركه آحاد العمل لا يعتبر كُفرًا، ولا ناقضاً من نواقض التوحيد، إلا إذا دلَّ الدليل على أن مَنْ ترك هذا العمل بعلمهِ فقد كَفرَ، وهذا فرقان ما بيننا وبين الوعيدية الذين يجعلون العمل ركنًا في الإيمان، ولكن الركن عند الوعيدية هو آحاد العمل وليس جنس العمل، فلابد من تفريق بين مذهبنا ومذهبهم، فإذا ترك الرجل عملًا واحدًا عند الوعيدية كَفرَ، وأما عند أهل السنة فلا يكفر، وإنما ينقص من إيمانه بقدر ما تركه من أعماله.

61. مَنْ اعتقد أن في وسعه الخروج عن شريعة محمد-صلى الله عليه وسلم- فقد كَفر.

فشريعة محمد-صلى الله عليه وسلم- لا يسع أحداً أن يخرج عنها مطلقًا، مهما بلغ من الولاية، والإيمان، والعقيدة والتوحيد والأعمال الصالحة.

فلا يجوز لنا أن نعتقد أن أحدًا من الناس إذا بلغ رتبة من رتب الولاية أنّه يخرج عن مقتضى الشريعة وتسقط عنه التكاليف، إلا إذا كان مجنونًا، فالمجنون لا تكليف عليه باتفاق العلماء، وأما قولهم بأن "الخضر" خرج عن مقتضى شريعة موسى، فهذا ليس بصحيح؛ لأن "الخضر" نبي مُستقل، وليس هو من بني إسرائيل الذين بعث إليهم موسى-عليه الصلاة والسلام- فلم يكن "الخضر" مُلزمًا باتباع شريعته.

62. مَنْ أبغض ما جاء به النبي-صلى الله عليه وسلم- بُغض تشريعٍ فقد كفر.

وقولنا: (بُغض تشريع) يخرج بغضًا لاعتبارات أخرى ككراهية الوضوء في زمن الشتاء البارد، وكراهية بعض الطباع للجهاد، كما قال الله-عزّ وجلّ-: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ}[البقرة:216]، فهو كراهية طبع لا تشريع، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: **«إسباغ الوضوء على المكاره»**[1]. أي كراهة طبع لا تشريع، وككراهية المرأة أن يتزوج عليها زوجها امرأة أخرى، فهي كراهة طبع وغيرة، لا كراهة تشريع، لكن مَنْ أبغض الشريعة؛ لأنها شرع فقد كفر.

63. الرياء يحبط العمل إن كان من أصله، أو طرأ واسترسل معه.

لقول الله-عزّ وجلّ-: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[هود:15-16].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، يقول النبي-صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربّه -عزّ وجلّ- أنّه قال: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمل**

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (219/1) برقم (251).

عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[1] . فإذا كان الرياء من أصل العمل وهو الباعث عليه، فإن العمل كُلّه حابط، وإذا طرأ في أثناء العمل واسترسل معه ورضي به وعمل بمقتضاه؛ فإن العمل حابطٌ أيضًا، وأما إذا طرأ ودافعه وجاهده، فهو مأجور؛ لقول الله - عزّ وجلّ -: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}[العنكبوت:69].

64. لا يجتمع الإيمان مع الكفر الأكبر، وهذا مجمع عليه بين أهل العلم.

لأن النقيضين لا يجتمعان، والكفر الأكبر يناقض الإيمان مناقضة تامة، فمَنْ كان مؤمنًا فليس بكافر كفراً أكبر، ومَنْ كان كافرًا فلا يجوز وصفه بأنه مؤمن.

65. **شعب الكفر والشرك الأصغرين لا تتنافى مع وجود أصل الإيمان في القلب، وهذا بإجماع أهل السنة والجماعة.**

فإذا وقع الإنسان في الشرك أو الكفر الأصغرين؛ فإنما ينقص إيمانه الواجب الذي لا تحصل النجاة يوم القيامة إلا به، وأما أصل إيمانه؛ فهو باقٍ في قلبه.

66. الأصل في تصوير ذوات الأرواح التحريم، إلا ما دعا إليه داعي الضرورة أو الحاجة الملحة.

لأنه وسيلة من وسائل الشرك، كما قال الناظم:

فالشرك والتصوير مرتضعان...

وقد تواترت الأدلة في النهي عن التصوير كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- **قال: «مَنْ صور صورة في الدنيا، كُلّف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»**[2] . وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي- صلى الله عليه وسلم-: **«أشد الناس عذابًا**

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (2289/4) برقم (2985).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ (169/7) برقم (5963)،

يوم القيامة المصورون»[1] . وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، يقول-صلى الله عليه وسلم-:«إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة»[2] . فالتصوير محرم كله، سواء أكان تصوير النحت أو تصوير الرسم، أو التصوير بالآلات الحديثة كالتصوير الفوتوغرافي.

67. يجتمع في العبد الواحد موجب الثواب والعقاب، وموجب الإكرام والإهانة.

خلافًا للخوارج الذين قالوا: لا يمكن أن يجتمع فيه موجبان متناقضان، فقد يمدح العبد ببعض الخصال، ويذمُّ على بعضها، ويثاب يوم القيامة على بعض الأعمال الصالحة، ويستحق العقاب على بعض الأعمال القبيحة، هذا بإجماع أهل السنة والجماعة.

68. التكفير بالوصف العام لا يستلزم تكفير المعين إلا بعد ثبوت الشروط وانتفاء الموانع.

وذلك لأن أهل السنة مجمعون على التفريق بين الفعل والفاعل، فيعطون للفعل حكمًا على ما تقضيه الأدلة، وينتظرون بنقل الحكم من الفعل إلى الفاعل، حتى يتأكدوا من ثبوت الشروط وانتفاء الموانع، والشروط هي العقل والبلوغ والعلم والاختيار والقصد وعدم التأويل، فمثلاً إذا توافرت هذه الشروط نقلنا الحكم من الفعل إلى فاعله، وإذا انخرم شرط منها، فيبقى الحكم مقتصرًا على الفعل، ولا ينقل إلى فاعله، خلافًا للخوارج الذين يعتقدون وجود التلازم الذاتي بين الحكم على الفعل وفاعله.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة (167/7) برقم (5950)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة (1670/3) برقم (2109).

[2] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب هل يرجع إذا رأى منكرا في الدعوة (25/7) برقم (5181)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة (1669/3) برقم (2107).

69. لا تكفير باللوازم إلا بعد عرضها، وقبولها.

خلافًا للخوارج الذين يكفرون باللوازم مطلقًا بلا شرط، وأما أهل السنة فيكفرون بلوازم الأقوال بشرطين: الشرط الأول أن تعرض هذه اللوازم على القائل، والشرط الثاني: أن يلتزمها ويقبلها، ويدين بها، فمتى ما عرضت والتزم، كفر.

70. التكفير بالاجتهاد ليس بملزم للغير.

وهذا بإجماع أهل السنة والجماعة، خلافا للخوارج الذين يحكمون بالكفر على كل مَنْ لم يقبل تكفير مَنْ كفروه اجتهادا، وهذا خطأ، فإذا حكمت على أحد أنه كافر، وكان مبدأ حكمك الاجتهاد، فلا حق لك أن تكفر مَنْ خالفك في هذا الاجتهاد؛ لأن هذا الاجتهاد اجتهادك، ليس بنص يلزم غيرك باتباعه.

71. مَنْ لم يكفر الكفار المنصوص على كفرهم، أو المجمع عليه فقد كفر.

فإذا دلّت الأدلة الشرعية على كفر أحدٍ بعينه، فلا يجوز الشك في كفره، فمَنْ شك في كفر من دلّ الدليل على كفره بعينه، فقد كفر؛ لأنه مكذب للأدلة، ومَنْ لم يكفر مَنْ أجمع العلماء على كفره إجماعًا قطعيًا فقد كفر؛ لأن منكر الإجماع القطعي كافرٌ، وأما مَنْ خالفك ولم يكفر مَنْ كفرته أنتَ اجتهاداً، فإنه لا يجوز تطبيق هذه القاعدة عليه.

72. مَنْ سبَّ نبيًا ممن ثبتت نبوته فقد كفر.

لأن مقتضى الاعتراف والإقرار والإيمان بنبوته، تعظيمه وتعزيره وتوقيره وتقديره واحترامه، والسبُّ يتنافى مع هذه المقتضيات، فلم يسبه إلا لشكه بأنه نبي.

73. يغتفر في المقاصد التبعية، ما لا يغتفر في المقاصد الأصلية الأساسية؟

فإذا وصل الإنسان رحمه؛ ليكثر ماله ويزاد في عمره، فإن كان قصده لهذا من القصد الأول فعمله مردود، وإن كان قصدها بالقصد التبعي وكان أول مقاصده التعبد لله وامتثاله لأمره في صلة الرحم فلا حرج عليه، إذ يغتفر في التوابع ما لا يغتفر في المقاصد، ولو أن الإنسان تصدق بنية التعبد لله بالقصد الأول، وقصد في القصد الثاني شفاء مريضه، فإنه لا بأس ولا حرج عليه، ولو أن الإنسان دخل كلية شرعية ليتعلم العلم الشرعي ليعمل به ويعلم غيره بالقصد الأول، ثم نوى بالقصد الثاني التفوق على زملائه أو أخذ شهادة أو وظيفة فلا حرج، ومَنْ جاهد لإعلاء كلمة الله بالقصد الأول ثم قصد بالقصد التبعي شيئًا من الغنيمة فلا حرج، إذ يغتفر في التوابع ما لا يغتفر في المقاصد.

74. شرك المتأخرين أعظم وأغلظ من شرك الأولين.

وقد علل العلماء هذا الأصل بعلتين:

العلة الأولى: أن شرك الأولين كان في الرخاء دون الشدة، كما قال-تعالى-:{فَإذا رَكبوُا في الفلك دعوا الله مُخلصين لهُ الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون}[العنكبوت:65]، وأما شرك المتأخرين فيكون في الرخاء، وفي الشدة، بل ربما شرك المتأخرين في الشدة أغلب من شركهم في الرخاء.

العلة الثانية: أن المشركين الأوائل كانوا يقصرون عبادتهم على عِلية القوم، فمنهم مَنْ كان يعبد الأنبياء، ومنهم مَنْ كان يعبد الملائكة، ومنهم مَنْ كان يعبد الأولياء، وأما شرك المتأخرين؛ فوسع فيه الدائرة حتى عبد المجانين، والدراويش، والفسقة، والملوك الظلمة والبقر، بل حتى عبدت فروج النساء.

من أجل ذلك قال العلماء: إن الشرك الواقع في المتأخرين أعظم من الشرك الواقع في الأولين، وعلى كل حال فكلما تأخر الزمان، وأبعد عن عصر النبوة، كلما عظمت البدع وعظم الشرك.

75. لا محبوب لذاته إلا الله وحده لا شريك له.

فالله-عزّ وجلّ- يحبونه المؤمنون لذاته، ولأسمائه ولصفاته ولأفعاله، وأما غيره فإنما يحبّه لشيء آخر لا لذاته، فنحن نحب رسول الله؛ لأنّه رسول الله، ولأنه آخر الأنبياء، إلى غير ذلك من صفاته وخصاله، وأن تحب أباك؛ لأنه أبوك، وتحب زوجتك؛ لأنها زوجتك، إذًا فإنه لا يحب لذاته إلا الله-سبحانه وتعالى- لا شريك له فيها.

76. الخوف الجبلي (أي الطبيعي الفطري) لا يُلام عليه العبد.

كالخوف من الجن في بعض صوره، والخوف من اللصوص، والخوف من السجن، والخوف من الملوك الظلمة، والخوف من النار والحية، فهذا لا يلام عليه العبد، وقد قال الله-عزّ وجلّ- عن نبيه موسى:{فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ}[الشعراء:21]، أي الخوف من الملوك الظلمة.

77. المحبة الفطرية ليست بموالاة، فلا يلام عليها العبد.

فإذا تزوج الإنسان المسلم امرأة من أهل الكتاب وأحبها فمحبته هذه ليست لدينها ولا لموالاتها، وإنما هي محبة الزوج لزوجته، فهي محبة فطرية، وإذا أحبّ المؤمن أباه المشرك فهي محبة فطرية ليست محبة دين ولا عقيدة، وإذا أحبّ الإنسان أخاه المشرك محبة فطرة وجبلة، فلا يلام عليها العبد.

78. الأصل في التمائم المنع.

فإن كانت من التمائم الشركية فهو متفق على منعها، وإن كانت من القرآن أو الأدعية، أو التعاويذ الشرعية، ففيها نوع خلاف، والأصح منعها؛ لعموم الأدلة، ولسد الذرائع، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: يقول النبي-صلى الله عليه وسلم-:«**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**»[1]. وفي حديث عقبة ابن

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطب، باب في تعليق التمائم (9/4) برقم (3883)، وابن ماجه في سننه، كتاب الطب، باب تعليق التمائم (1166/2) برقم (3530).

عامر مرفوعا، يقول: «**مَنْ تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومَن تعلق ودعاً فلا ودع الله له**»[1]. وفي رواية: «**مَنْ تعلق تميمة فقد أشرك**»[2].

79. إن كان أثر المعلق حقيقيًا فليس بتميمة، وإن كان خياليًا فرضيّاً، فهو تميمة.

فليس كل شيء يعلقه الإنسان على جسده، أو في بيته، أو في سيارته أو دابته، أو على باب بيته، يعتبر تميمة إلا إذا اعتقد فيه أنه يجلب خيرًا أو يدفع شرًا، وكان في حقيقة الأمر لا أثر له، وإنما معلقه هو الذي فرض هذا الأثر من عند نفسه، كمَنْ يعلق خيطًا لاتقاء الحمى، أو يعلق تعويذة لدفع العين أو السحر أو أذى الجن، فلبس النظارة ليس بتميمة لأن أثرها حقيقي، وقلادة المرأة ليست بتميمة لأن أثرها حقيقي، وهو التجمل.

80. واضع البركة هو الله وحده لا شريك له.

فوضع البركة في الزمان أو المكان أو الذات من خصائص الله-عزّ وجلّ- فلا يستطيع المخلوقون عن بكرة أبيهم أن يضعوا شيئًا من البركة، فخالق البركة في الذوات، والأعيان، والأزمان إنما هو الله، وهو المخصوص بوصف التبارك، فلا يجوز إطلاق وصف التبارك على غيره من المخلوقات، فالله هو الذي يبارك، والعبد هو المبارك.

81. لا يجوز التبرك بالشيء إلا بدليل.

فالأصل في التبرك بالأعيان التوقيف على النص، والأصل في التبرك بالأمكنة التوقيف على النص، والأصل في التبرك بالأزمنة التوقيف على النص؛ لأن وجود البركة أمر غيبي، وأمور الغيب توقيفية على النصوص، فلا قياس، ولا رأي ولا اجتهاد في باب البركة.

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في مسند الشاميين، من حديث عقبة بن عامر الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم (623/28) برقم (17404).

[2] أخرجه الإمام أحمد في مسند الشاميين، من حديث عقبة بن عامر الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم (637/28) برقم (17422).

82. البركة الذاتية منتقلة، والبركة المعنوية لازمة.

ونعني بالبركة الذاتية أي تلك البركة التي تنتقل إلى كل شيء مسها، كبركة النبي-صلى الله عليه وسلم- فقد كان الصحابة يتبركون بوضوئه، وثيابه وعرقه، ونخامته، وشعره، والتبرك بالنبي-صلى الله عليه وسلم- ذاته يجوز في حياته، وبعد مماته إذا تيقنّا أن الأثر من ضِمن آثاره، وأما غيره من بركات الأولياء كبركة أبي بكر، وبركة عمر، والمهاجرين، والأنصار، والتابعين، والأئمة، والدعاة، والعباد والزهاد وأهل التقى والورع؛ فبركتهم معنوية لازمة لا تتجاوز أجسادهم.

ولذلك لم يكن الصحابة يتصرفون مع بركة أبي بكر كما كانوا يتصرفون مع بركة النبي-صلى الله عليه وسلم- وكل زمان ثبتت بركته فهي معنوية وكل مكان ثبتت بركته فهي معنوية، فبركة رمضان معنوية، وبركة العشر الأول من ذي الحجة، وبركة عاشوراء معنوية، وبركة يوم عرفة معنوية، وهذا بركة كل زمان وبركة المسجد الحرام معنوية، وبركة المسجد الأقصى معنوية، وبركة مسجد المدينة معنوية لازمة لا تفارق مكانها، وهذا كله مكان.

83. دعاء الصفة كفر إجماعاً.

فإن الصفة لا تدعى، وإنما يدعى بها، فمَنْ دعا صفة من صفات الله فقال :يا رحمة الله أغيثيني، يا وجه الله ارزقني، يا قدرة الله انصريني، فقد كفر، حكى هذه القاعدة أبو العباس ابن تيمية في كتابه العظيم (الاستغاثة).

84. كل ما كان وسيلة للشرك فالواجب سده، حماية لجناب التوحيد.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب-رحمه الله- باب حماية التوحيد، وسد كل طريق يوصل إليه، فيحرم بناء المساجد على القبور، أو إدخال القبور في المسجد المبني حماية لجناب التوحيد وسدًا لذرائع الشرك، ويحرم رفع القبر فوق الشبر أو البناء عليه حماية للتوحيد، وسدًا لذرائع الشرك، ويحرم تجصيص القبور والكتابة عليها حماية لجناب التوحيد وسدًا لذرائع الشرك، ويحرم الذبح لله عند قبر الولي، حماية للتوحيد وسدًا لذرائع الشرك، ويحرم دعاء الله عند

قبر الولي سدًا لذرائع الشرك، ويحرم الإقسام على الله بأحد مخلوقاته سدًا لذرائع الشرك، ويحرم قرن الخالق بالمخلوق في أمور المشيئة بـواو العطف، كقولك: (ما شاء الله وشئت) سدًا للشرك الأكبر، وحماية لجناب التوحيد، وهكذا كل وسائل الشرك.

85. الأصل في الأعياد التوقيف على الأدلة.

والأعياد لها علاقة بتوحيد الألوهية، أليس كذلك؟

لأنه يذبح فيها، ويفعل شيء من التعبدات فيها، فلا يجوز لك أن تعتقد عيدًا في يوم من الأيام إلا وعلى ذلك دليل من الشرع، ففي سنن أبي داوود بإسنادٍ صحيح من حديث أنس- رضي الله عنه- قال: قدم النبي-صلى الله عليه وسلم- المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، وقال: «**إن الله قد أبدلكم بهما خيرًا منهما: يوم الأضحى، ويوم الفطر**»[1]. وبناءًا على ذلك فأعياد الميلاد بدعة ومنكر، والأعياد الوطنية بدعة ومنكر، وأعياد رأس السنة بدعة ومنكر، وعيد الاحتفال بذكرى الزواج بدعة ومنكر، وما يسمى بعيد الحب بدعة ومنكر، وهذه قاعدة تعرف بها العيد المشروع من العيد الممنوع.

86. مَنْ خصص زمانًا بشيءٍ يرجع إلى أمر حدث فيه، فقد اتخذ هذا الزمان عيدًا.

كالذين يخصصون يوم مولدهم باحتفال، فإنهم يحتفلون لأمر حصل في هذا اليوم وهو ولادتهم، والذين يحتفلون باليوم في مولد النبي-صلى الله عليه وسلم- فاحتفالهم يعتبر عيدًا؛ لأنهم خصصوا هذا الزمان لأمر حدث في مثل هذا اليوم.

والذين يحتفلون بذكرى زواجهم فإنهم يخصصون هذا الاحتفال لهذا اليوم لأمر حصل في هذا اليوم، وكتخصيص الأنصار قبل مجيء الإسلام الأيام التي حصل لهم الانتصار فيها بأعياد يلعبون فيها، فنهاهم النبي-صلى الله عليه وسلم- عن

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه، تفريع أبواب الجمعة، باب صلاة العيدين، (295/1) برقم (1134).

هذا الاحتفال؛ لأنهم يخصصون زماناً لأمر حصل في هذا اليوم، وبناءًا على ذلك فمَنْ خصص زمانًا بشيءٍ لا لأمر حصل في مثل هذا اليوم، كأسبوع الشجرة، وأسبوع المرور، واليوم العالمي للغة، واليوم العالمي للمعلم؛ فهذا التخصيص في هذه الأيام ليس لأمر حصل في هذا اليوم، وإنما هو من باب التنظيم والترتيب، فلا حرج ولا بأس به، إن ترك سدًا للذريعة فلا بأس وهو حسن، ولكن إن فعل فلا نرى فيه حرجًا، فالأعياد الوطنية على هذا التخصيص، على هذه القاعدة لأنهم يخصصون الاحتفال في هذا اليوم لأمر حصل في هذا اليوم، وما يسمى بأعياد النكسة أيضًا بدعة؛ لأنهم يخصصون هذا اليوم في حزن تنكس فيه أعلام الدولة لأمر حصل في هذا اليوم.

87. الأصل فيما يفعل في المقابر التوقيف على الأدلة.

وهذا من أعظم الأبواب إذا أحكمنا سدها سقطت صور من الشرك كثيرة، فإن أول مبدأ الشرك ومنطلقه إنما كان من المقابر وسوء التعامل مع القبور، فلابد من سد هذا الباب، فلا يجوز أن نفعل في مقابر المسلمين إلا ما دلّ الدليل على جوازه، فالبناء في المقابر على القبور محرم، والكتابة على القبور محرمة، والصدقة في المقابر اعتقادا لفضيلتها محرمة، ونصب السرادق للعزاء في المقابر محرمة، والعكوف على القبور الليالي ذوات العدد محرم، وكتابة تاريخ وفاة الميت محرم، وتشجيرها محرم، وإسراجها محرم، فإذا أحكمنا هذا الباب وجعلناه على التوقيف، فإننا سوف نسد صورًا من الشرك كثيرة، كما قال الناظم:

فإذا سددنا ذلك الباب الذي...جاءت لنا منه قبائح بدعة

فستنتهي صور من الشرك الذي...عمت به البلواء في المعمورة.

88. الأصل في التوسل التوقيف على الأدلة.

لأن التوسل مبناه على ما يحبه الله من الوسائل، ومحبة الله غيب، وأمور الغيب توقيفية على النص، فلا يجوز لك أن تتوسل لله إلا بوسيلة دلّ عليها الدليل كالتوسل إلى الله بأسمائه، وبصفاته، وبذكر الحال، وبدعاء الرجل الحي الحاضر القادر، وبالعمل الصالح، وأما ما عداها فلا يجوز أن يتوسل إلى الله-عزّ وجلّ-

به؛ لعدم وجود الدليل الدال على الجواز والباب توقيفي، فالتوسل إلى الله بذات أحد من الخلق بدعة، والتوسل إلى الله بجاه أحد من الخلق بدعة؛ لعدم وجود الدليل.

89. كلما كان العبد أعظم تحقيقًا للتوحيد، كلما كان أعظم حفظاً وحراسة عند الله وملائكته.

فالله يحفظ أهل التوحيد، وحفظ الله لأهل التوحيد يتفاوت بتفاوت التوحيد والإيمان؛ ولذلك كان أعظم المخلوقين حفظًا هم الأنبياء؛ لكمال توحيدهم، ثم يأتي المؤمنون على مراتب، وكذلك الملائكة تحفظ أهل التوحيد بأمر الله، وأسعدنا بكثرة حفظ الملائكة، هو أسعدنا تحقيقًا للتوحيد.

(فمَنْ كان أعظم تحقيقًا للتوحيد كان أحفظ عند الملائكة من غيره) وهذه من قواعد أبي العباس ابن تيمية -رحمه الله-.

90. الأصل في الشفاعة التوقيف على الأدلة.

فلا يجوز لك أن تعتقد في ثبوت شفاعة يوم القيامة إلا وعلى ذلك الاعتقاد دليل من الشرع، فما أثبته الشارع من الشفاعات نعتقده ونؤمن به، وندين الله-عزّ وجلّ- به، وما لم يثبته الشارع من الشفاعات فلا يجوز اعتقاد قيامه يوم القيامة، فالشفاعة التي يظنها المشركون في أصنامهم منتفية لنفي الأدلة لها.

91. **لا شفاعة في غير أهل التوحيد.**

لقول الله-عزّ وجلّ- عن أهل الشرك:{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[المدثر:48]، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- قال: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة مَنْ قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قِبل نفسه**»[1].

92. لا شفاعة في كافر إلا بدليل.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (117/8) برقم (6570).

لقول الله-عزّ وجلّ-:{فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}[المدثر:48]، ولم تدل الأدلة بانتفاع كافر بالشفاعة أبدًا إلا في واحد من الكفرة، وهو أبو طالب، فيشفع فيه رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وتكون شفاعته فيه شفاعة تخفيف لا إخراج؛ لقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: لمّا قيل له هل نفعت أبا طالب بشيء؟ كما في حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال: «**نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[1]. وأما بقية الكفار فلا يشفع فيهم أبدًا.

93. لا شفاعة يوم القيامة إلا بالإذن، والرضا.

لقول الله-تبارك وتعالى-: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى}[النجم:26]، وقول الله-عزّ وجلّ-: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}[البقرة:255]، وقول الله-عزّ وجلّ-: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}[الأنبياء:28]، وهذا بإجماع أهل السنة، والجماعة.

94. التوحيد أعظم الحسنات في ميزان العبد.

فأعظم ما يوضع في ميزان العبد في ميزانه يوم القيامة التوحيد والإيمان؛ لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي-صلى الله عليه وسلم قال: «**قال موسى عليه السلام: يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به، قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك، يقول هذا، قال: قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت يا رب، إنما أريد شيئا تخصني به، قال: يا موسى لو كان السماوات السبع، وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله**»[2]. وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي-صلى الله عليه وسلم

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (52/5) برقم (3883)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شفاعة النبى -صلى الله عليه وسلم- لأبى طالب والتخفيف عنه بسببه (134/1) برقم (531).

[2] أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح والذكر (710/1) برقم (1936)، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

قال: **« يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر له تسعة وتسعون سجلا، كل سجل مد البصر، ثم يقول الله عز وجل: هل تنكر من هذا شيئا؟ فيقول: لا، يا رب، فيقول: أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا، ثم يقول: ألك عذر، ألك حسنة؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنات، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، قال: فيقول: يا رب ما هذه البطاقة، مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، قال محمد بن يحيى: " البطاقة: الرقعة، وأهل مصر يقولون للرقعة: بطاقة»**[1].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، يقول النبي-صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن أخيه نوح-عليه الصلاة والسلام-: إنه قال، وهو يعلم قومه، أي يعلم أهل الإيمان: **«لو أن السماوات السبع والأرضين السبع كانت حلقة، ووضعت لا إله إلا الله عليها، لفصمتها، أو قال: لقصمتها»**[2].

ولا يذكر مع اسم الله شيء أبدًا، يا إخواني، فمَنْ كان معه حسنة التوحيد، فليبشر بخيري الدنيا والآخرة.

95. مَنْ حقق التوحيد التحقيق المطلق دخل الجنة بلا حساب، ولا عذاب.

ولذلك يقول الله-عزّ وجلّ-:{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[النحل:120]، وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال:**«فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»**. ثم قام النبي-صلى الله عليه وسلم- ودخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم

---

[1] أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله (321/4) برقم (2639)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (1437/2) برقم (4300), واللفظ له.

[2] أخرجه الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (670/11) برقم (7101), وقال الأرنؤوط: "إسناده صحيح".

الذين صحبوا النبي-صلى الله عليه وسلم-، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام، وماتوا ولم يشركوا بالله شيئًا، ثم خرج النبي-صلى الله عليه وسلم- فسئل عنهم؟ فقال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون وعلى الله يتوكلون**»[1]. أي بسبب تحقيقهم التحقيق المطلق للتوحيد، استحقوا دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب، ولا يكمل التحقيق بالتوحيد إلا بالابتعاد عن ثلاثة أشياء:

1- أن يبتعد عن الشرك كله أكبره وأصغره، فمَنْ وقع في الشرك الأكبر أو الأصغر؛ فلم يحقق التوحيد.

2- الأمر الثاني: أن يبتعد عن البدع بكل أنواعها عقدية أو عملية، مكفرة أو مفسقة، قولية أو عملية، فمَنْ وقع في شيء من البدعة فلم يحقق التوحيد الكامل.

3- الثالث: الابتعاد عن الذنوب، وموبقات الآثام، أي كبائر الذنوب، فمَنْ وقع في شيءٍ من الكبائر، فإنه لا يعتبر محققًا للتوحيد التحقيق المطلوب.

96. كُلّ ما كان من عبادات الكفار، أو عاداتهم المختصة بهم فيحرم التشبه بهم فيها.

وهذه القاعدة لعلّها آخر قاعدة في هذه الدورة، وأظن أننا مررنا على أكثر الموضوعات التوحيدية.

وهذا مجمع عليه بين أهل العلم-رحمهم الله- فلا يجوز أن نتشبه بالكفار في صِنفين من الأشياء:

الصنف الأول: ما كان من قبيل طقوسهم الشركية الوثنية أو تعبداتهم البدعية الخرافية. **الصنف الثاني:** لا يجوز أن نتشبه بهم بعاداتهم التي عرفوا، واختصوا بها، وأما إذا كان أصلًا من عاداتهم ثم أخذه المسلمون، وانتشر بينهم، ولم يكن

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو (126/7) برقم (5705).

لذلك مخالف في شيءٍ من الأدلة فلا بأس به، كركوب السيارة، ولبس الساعة، ولبس البنطال، والبدلة عند بعض الأعراف.

وبهذا نكون قد أتممنا هذه الدورة المباركة التي أسأل الله-عزّ وجلّ- أن يطرح فيها البركة، وأن يفتح لها أبواب سماواته، وأن يتقبلها بقبول حسن، وأن ينبت ثمراتها في قلوبنا من أعذب الثمرات، وأن يرزقني وإياكم فيها الإخلاص في القول والاستماع، ويجعلني وإياكم هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلين، وأن يغفر لنا زللنا وخللنا وتقصيرنا في العلم والعمل والدعوة، وأوصيكم يا إخواني أن لا تكون هذه القواعد رهينة الأوراق، أو الصدور فإن المسلمين من أحوج ما يحتاجونه في هذا الزمان مثل هذا النوع من التعليم فلا تنشغلوا عنهم بسياسات أو بأخبار أو بزوجة، أو بشيءٍ من صوارف الدنيا وشهواتها، بل عليكم أن تقبلوا بقلوبكم، وظواهركم على تعليم الناس لا سيما في مسائل التوحيد، أستغفر الله وأتوب إليه من زلل اللسان، والجنان والبنان(ثلاثا).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قــواعـــد توحيـــد الأسماء والصفات

1. لا مجال للعقل في الغيبيات.

وذلك لأن الله –عزَّ وجل- لما خلق العقل جعل له حدوداً وطاقات لا يزال تفكيره سليما ما دام داخل حدوده وطاقاته، لكن متى ما أخرجه العبد عن دائرة استقباله فإنه سوف يكون حائرًا تائهًا في بحرٍ خضم لا يهتدي سبيلا، فإن العقل ضعيف وباب الغيب واسع كما أن الجوال له منطقة استقبال، فمتى ما أخرجت الجوال عن منطقة استقباله صار حديدة لا يستقبل ولا يرسل.

فكذلك العقل جعل الله -عزَّ وجل- له منطقة استقبال وهي الأمور المشاهدة العالم الحسي، ولكن متى ما أخرجته عن هذا العالم إلى عالم آخر، فإنه سوف يأتيك بالحيرة والشبه والشكوك والخيالات والأوهام وفساد الاعتقاد. ولذلك يجب علينا أن نتفق على هذا الأصل العظيم المتفق عليه بين المسلمين وهو أن: مسائل الغيب يجب حجب العقل عن التوغل فيها، فلا حق لك أن تقحم عقلك في استكشاف شيء مما أخفاه الله -عزَّ وجل- عنك إلا في حدود ما أخبرك به الدليل فقط، فليكن عقلك تابعاً للنقل في أبواب الغيب، إياك أن يسبق عقلك النقل ثم تضل وتتوه.

ولذلك أعظم من خالف في هذا الباب بل في جميع أبواب الشريعة إنما لأنهم قدموا عقولهم العاجزة الضعيفة على النقل، فباب الغيب إياك أن تتعرض له بعقلك؛ ولذلك كم من العوالم الغيبية والمسائل الغيبية التي أنكرها كثير من الطوائف والفرق بسبب أن عقولهم لم تستطع استكشافها، فهؤلاء الفلاسفة المسمون بالفلاسفة المشائين هؤلاء ينكرون عالم الملائكة، لم؟ لأن عقولهم لم تهتد لهذا العالم، وسبب إنكارهم أنهم أقحموا عقولهم في باب الغيب، وكثيرٌ من الطوائف أيضا تنكر وجود الجن وعالم الشياطين؛ لأنه لا تستطيع عقولهم أن تدرك حقيقة هذا العالم؛ فالفلاسفة يقولون: إنه لا حقيقة لعالم للملائكة، وإنما هي عبارة عن قوى الخير في الإنسان.

ولا حقيقة لعالم الجن والشياطين، وإنما هو قوى الشر في الإنسان. لم أنكروا؟ لأنهم أقحموا عقولهم في باب الغيب، وعذاب القبر أنكره كثير من الطوائف،

لم؟ لأننا نفتح قبر الكافر لا نرى عذابا، ونفتح قبر المؤمن لا نرى نعيمًا، لماذا تفتح؟ ألا يكفيك خبر الله -عز وجل-؟ فلا تقحم عقلك في باب الغيبيات.

الأسماء والصفات أنكروا كثيراً منها بسبب أنهم توغلوا بعقولهم الضعيفة العاجزة في باب الغيب، فمثلًا صفة الاستواء على العرش أنكرها كثيرٌ من الطوائف، بل كل الطوائف البدعية أنكرتها، فلم تثبتها إلا طائفة واحدة وهم أهل السنة والجماعة.

سبب الإنكار أنهم أقحموا عقولهم في التوغل في كيفية الاستواء على العرش فقالوا: إذا استوى الله على العرش فيلزم منه أن يكون محتاجًا إلى العرش، ويلزم منه أننا لو أبعدنا العرش عن الرب لخرّ كما ذكروه في كتبهم، فإذاً يلزم من ذلك أن الاستواء لا حقيقة له، وإنما المقصود به الاستيلاء، ما الذي جعلهم ينكرون ويحرفون الصفات ويجحدونها؟ لأنهم طلبوا كيفيتها بعقولهم، وكيفيتها أمر غيبي.

إذًا لا بد أن نتفق على هذا الأصل: لا مجال للعقل في الغيبيات، لا تسأل كيف صفات الله؟ كيف وجه الله؟ كيف عين الله؟ كيف استواء الله؟ كيف علو الله؟ كيف عذاب القبر؟ كيف الجنة؟ كيف نعيمها؟ كيف النار؟ كيف عذابها؟ كيف جحيمها؟ ما المسئول عنها بأعلم من السائل، لا ندري إنما هي غيبيات أخفى الله– عزَّ وجل - عنا أصولها وأخبرنا بأسمائها، فنثبت ما أثبت الله- عز وجل -من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونحجب عقولنا عن التوغل في الغيبيات، وأقسم بالله ثم أقسم بالله، أنَّ من عمل بهذه القاعدة فسيأمن على عقيدته في صدره، وسوف تكون له حزام أمانٍ من الزيغ والضلال .

ولذلك أغلب أهل البدع إنما ضلوا في باب الأسماء والصفات لهذه العلة، وهي أنهم أرادوا بعقولهم العاجزة الضعيفة أن يستنبطوا ما خفي وغاب عنهم، لا عقل في باب الغيبيات، لا مدخل للعقل في باب الغيبيات .

فإن قلت: هل هذه القاعدة على إطلاقها؟ فإننا نرى أهل العلم يقولون: إن وجود الله دل عليه النقل والعقل، فأدخلوا العقل في وجود الله ووجوده غيبي فكيف تقول؟ كذلك يقولون: إن علم الله ثابت له بالنقل والعقل والحس والفطرة؛ العقل

أدخلوه وأدخلوا الحس والفطرة، كيف تقول أنت لا عقل في الغيبيات؟ كذلك هم يقولون: إن إثبات يوم القيامة، إثبات البعث والنشور يوم القيامة ثابت بالنقل والعقل، العقل يستطيع إثبات البعث، كيف العلماء من أهل السنة والجماعة يدخلون العقل في مسائل الغيب وأنت تعلمنا أن أول قاعدة أن لا مجال للعقل في الغيبيات؟

أقول: اعلم رحمك الله قاعدةً مهمة أن العقل في باب الغيب تبعي لا استقلالي، من يشرح لي هذه القاعدة: أن العقل في باب الغيبيات تبعي لا استقلالي؟ فقاعدتي التي أقررها إنما في نفي إدخال العقل ابتداءً في مسألة غيبية، بمعنى أن نجعله دليلا استقلاليًا لم يسبق بإثبات النص، وأما أن يكون الاستدلال بالعقل أمراً تبعيًا فيما أثبته النص، فهذا من باب تكثير الاستدلال، ولا ينكره أهل السنة والجماعة أبدا، فإذًا أصل إثبات وجود الله النقل، والعقل له مدخل في ذلك، وأصل إثبات عذاب القبر النقل والعقل له مدخل في ذلك، وأصل إثبات البعث النقل والعقل له مدخل في ذلك، أصل إثبات صفة العلم النقل والعقل له مدخل في ذلك، إذًا مدخل العقل عند أهل السنة والجماعة ليس مدخلا ابتدائيًا استقلاليًا أصليًا وإنما هو تبعي ثانوي، وإنما يكون تبعيا، وإذاً أهل السنة إذا سمعتهم في مسائل غيبية يقولون: دليلها العقل، فاعلم أنهم يريدون به العقل التبعي لا العقل الاستقلالي الابتدائي.

2. كل فهم في الأسماء والصفات على خلاف فهم السلف الصالح في باب الأسماء والصفات فباطل.

وهذه قاعدة متفق عليها بين أهل العلم-رحمهم الله تعالى- وأقصد بأهل العلم أي أهل السنة والجماعة، وذلك لأن **عقيدتنا مبنية على ثلاثة أركان:**

الركن الأول: ألا نأخذها إلا من الكتاب والسنة.

الركن الثاني: ألا نفهم أدلة الكتاب والسنة العقدية إلا على فهم السلف الصالح، فلا ندخل في هذا الباب متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، ولا نقدم عقولنا على النقول ولا على فهم السلف؛ ولذلك خذوها مني أصلًا: الفهم في أدلة العقيدة

توقيفي لا يجوز الاجتهاد فيه، في قول الله –عز وجل-:﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[الفجر:22]، لا يجوز لك أن تجتهد بفهمك؛ لأن الفهم توقيفي، ماذا فهم الصحابة؟ أنه مجيءٌ حقيقي لائق بجلاله وعظمته؛ إذًا لا يليق اجتهاد، لو فهمت في هذه الآية فهمًا مخالفاً لفهم السلف، فإن ما فهمته يعتبر باطلًا؛ لأن كل فهمٍ في أدلة الأسماء والصفات على خلاف فهم السلف فهو باطل.

والله العظيم لا يستطيع الإنسان أن ينتفع الانتفاع الكامل بكتاب الله إلا إذا فهمه على فهم السلف الصالح، بل إنك لو فهمت آيةً على خلاف فهم السلف، فإنك وإن ذكرتها في درسك ألف مرة، فأنت كذاب دجال ما استدللت بالقرآن، لا يستطيع الإنسان أن ينتفع بالقرآن إلا إذا فهمه على فهم السلف الصالح، ولا يُكتب عند الله أنه مستدل بالقرآن إلا إذا فهمه على فهم السلف الصالح. لمَ؟ لأنه ليس كل من قال: قال الله يكون مصيبًا في الاستدلال.

عندنا أمران وهما دليلٌ وتنزيل:

الدليل هو القرآن، والتنزيل هو: المعنى، فليس كل من أصاب الدليل أصاب التنزيل، ولذلك فالخوارج ألا يستدلون على قتل المسلمين بالأدلة من القرآن**!** أصابوا في الدليل ولكن أخطؤوا في التنزيل، فالقرآن لم يأت لمجرد دليل، وإنما جاء لدلالة وتنزيل، فمن أصاب في الدلالة وأخطأ في التنزيل فما أخذ بالقرآن، لا يوصف الإنسان بأنه عاملٌ بالقرآن إلا إذا أخذه دلالةً وتنزيلًا.

فإذا قلت:﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[الفجر:22]، المجيء هنا معناه إرادة الثواب، فنقول: ما أخذت بالقرآن، وما آمنت حقيقةً بهذه الآية، لما؟ لأنك وإن أصبت في الدليل لكنك أخطأت في الاستدلال والتنزيل؛ **فإذًا من أراد أن يأخذ بالقرآن حقيقةً فالواجب عليه أمران: أن يستدل بألفاظه وأن يصيب في تنزيلاته**؛ ولذلك قول الله-عزَّ وجل-:﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:5]، لا اجتهاد في فهمها، فهمها توقيفي، إياك أن تبتغي غير سبيل المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فيوليك الله ما توليت ويصليك جهنم وساءت مصيرا، إياك أن تتبع غير سبيل المؤمنين في فهمهم، فهم أكمل الأمة فهومًا وأعمقها علمًا، وإن هناك دعوات فاجرة تريد من الأمة أن تبعدهم عن فهم الصحابة، ويقولون: لماذا

تلزموننا بفهوم أناس قد ماتوا، دعوا الناس يفهمون القرآن على مقتضى ومعطيات القرن العشرين.

لماذا تلزموننا بفهم المهاجرين والأنصار، وهم ما كانت عندهم مخترعات ولا مكتشفات ولا شيء، فلماذا تقيدون العقول المتفتحة في هذا القرن بعقول ذلك الزمان؟

الجواب عن ذلك: هذه دعوة إبليسية وزخرفة شيطانية، يراد منها الوصول بالاستدلال الباطل إلى الكتاب والسنة؛ لأن فهم السلف صار سياجًا حاميًا للقرآن والسنة من دخول أهل البدع، فهم يريدون الدخول لكن ثمة سياج يحمي القرآن والسنة وهو فهم السلف، فهم يريدون كسر هذا السياج؛ لأنهم متى ما كسروا هذا السياج وقبلت الأمة هذه الأطروحة الملعونة الشيطانية، فإن كل مبتدع بل المشرك نفسه يستطيع أن يستدل على كفره وشركه بالقرآن؛ لأن القرآن حمال وجوه، وأضرب لكم مثالين:

المثال الأول: إن من الصوفية من يستدل على جواز الاستغاثة برسول الله ودعائه من دون الله عند قبره بالقرآن وهذه شرك أكبر، ولكن يستدل على شركه بالقرآن، قال في قول الله-عزَّ وجل-: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾[النساء:64]، هل ترد عليه: بأن سند الآية ضعفها يحيي ابن معين، أو الإمام أحمد؟ ما لك شأن بالإسناد، الإسناد متواتر، لن تستطيع أن ترد عليه إلا بهذا السياج، وهو أن تقول: إنك فهمت من هذا المجيء المذكور في الآية أنه المجيء في الحياة وبعد الممات، وهذا مخالف لفهم السلف، والقاعدة تقول كل فهمٍ خالف فهم السلف في أدلة الاعتقاد فإنه باطل، ما عاد يستطيع، إذًا هذا سياج يحمي الكتاب والسنة.

المعتزلة أوَلم يستدلوا على بدعة القول بخلق القرآن بالقرآن؟ الجواب: بلى، لهم أدلة على هذه العقيدة الكفرية من القرآن يستدلون بها على كفرهم، أين هذا؟ في قول الله -عزَّ وجل-:﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنبياء:2]، والمقصود بالذكر هنا بإجماع المفسرين، أي: القرآن، لكن ما المقصود بمحدث عند المعتزلة؟ مخلوق، قالوا: يا أهل السنة، آية محكمة في

كتاب الله -عز وجل- تدل على صحة عقيدتنا من أن القرآن مخلوق. كيف تجيبون أيها السني عن كلامهم هذا؟ ما ذا تقول؟

تقول: إن فهمكم لقول الله –عزَّ وجل-: محدث، فهم على خلاف ما أجمع عليه صحابة النبي –صلى الله عليه وسلم- والسلف الصالح والأئمة، وهو أن الأئمة مجمعون على أن (محدث) هنا أي جديد وليس بمعنى مخلوق، أي ما يأتيهم من ذكر من ربهم جديد؛ لأن القرآن كان يتنزل على النبي –صلى الله عليه وسلم- منجمًا على حسب الحوادث في ثلاث وعشرين سنة، فكلما جاءهم قرآن جديد قابلوه بالإعراض والكفر وعدم الاتباع والانقياد، ففهم المعتزلة لهذه الآية بأن القرآن مخلوق، هذا على خلاف فهم السلف.

والقاعدة تقول: **(كل فهم عارض فهم السلف في أدلة الاعتقاد فإنه باطل)**.

إذًا فهذا باب عظيم في فهم الأسماء والصفات بل وفي غيره من الأبواب، بل إن الفلاسفة يستدلون على إنكار باب الأسماء والصفات كله بآية من القرآن يقولون الله لا اسم له ولا صفة له مطلقًا! والدليل من القرآن، القرآن فيه آية تنفي صفات الله! قال: نعم. وأسمائه؟ قال: نعم، وأين هي؟ قالوا:﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص:1]،آه من فهمكم؟ من أين يفهمون؟ من رؤوسهم ولا...﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:1]، كيف طيب؟ قالوا: قل هو الله أحد تدل على إنكار الصفات والأسماء، على أنه لا يجوز أن يسمى الله -عزَّ وجل- لا باسم ولا بصفة، كيف؟ قالوا: لأن مقتضى أحديته ألا يشاركه في القدم مشارك.

أخص خصائص الله–عزَّ وجل- عند أهل البدع والمعتزلة هي وصفه بالقدم؛ ولأن الصفات عنده مغايرة للذات، قالوا: إذاً لابد من توحيد الله بصفة القدم، فلا يشاركه قدم ذاته شيء آخر، ولو أننا جعلنا وجهه قديماً لشارك الذات قديم آخر، لو جعلنا من صفاته مثلا العلم، السمع، البصر هذه صفات تشارك الذات في القدم وعندهم أن هذا لا يجوز، فهو مشاركة الذات في قدمها؛ لأنه أحد، فاستدلوا بهذه الآية على إنكار أسماء الله -عز وجل- وصفاته. كيف ترد عليهم؟ أن فهمكم هذا على خلاف فهم السلف، وكل فهم عارض فهم السلف في مسائل العقيدة والعمل؛ فإنه باطل.

وللعبد الضعيف كتيب صغير اسمه: (**رسالة تذكير الخلف بوجوب اتباع فهم السلف في أدلة الكتاب والسنة)**؛ لأننا لا بد معاشر العلماء وطلبة العلم كلنا لا بد أن نقف صفا واحدا وقوة واحدة على المحافظة على هذا السياج، ماذا أقصد بالسياج؟ فهم السلف، لأننا متى حافظنا عليه وأبقيناه سليما ودافعنا عنه بكل ما أوتيناه من قوة علمية، فإننا سوف نحفظ الكتاب والسنة ونشارك في حفظهما؛ لأننا متى ما كسرنا السياج، فالمشرك يدخل، والمعتزلي يدخل، والأشعري يدخل، والكل يغرف من القرآن والسنة؛ لأن القرآن فيه العام وفيه المجمل وفيه المطلق، فلا بد أن يفهم القرآن في أدلة الاعتقاد على فهم السلف الصالح.

3. لا يقاس الغائب على الشاهد في باب الغيبيات.

وهذه من أخص خصائص قواعد أهل السنة والجماعة-رحمهم الله تعالى- في الغيبيات كلها، لاسيما في باب الأسماء والصفات، فالله-عزَّ وجل- من علم الغيب فذاته غيبية، وأسماؤه غيبية، وكيفيات صفاته غيبية، أليس كذلك؟ ولا يجوز لك أن تدخل الله -عز وجل- مع خلقه في قياس أبدًا، لا يجوز أن تقيس ما غاب عنك وهي أسماء الله -عز وجل- وكيفيات صفاته على ما هو مشاهد لك.

فإن القياس في باب الغيبيات مرفوض عند أهل السنة والجماعة، فكما أنه لا عقل في الغيبيات أيضًا لا قياس في الغيبيات؛ وذلك لأن أهل التمثيل قالوا: إننا لا نعقل من مسمى الوجه المضاف إلى الله إلا ما نعقله من المخلوق، فقاسوا الوجه الغائب على الوجه الشاهد، فقالوا: إذًا وجه الله كوجه المخلوق، إذًا علتهم القياس في الغيبيات، وقالوا: نحن لا نعلم استواء إلا بهذه الصورة المشاهدة، فإذًا فالاستواء الذي خاطبنا عنه الله وجعله غيبيا لا بد أن نحمل كيفيته على الاستواء المشاهد بالصورة، فقالوا: إذًا استواؤه كاستوائنا ﴿وَلِتُصْنَعَ على عَيْنِي﴾[طه:39] قالوا: عين الله غائبة لكن نستطيع أن نستنبط صفات الشيء الغائب وهي العين برؤية العين المشاهدة فنلحق العين الغائبة في كيفيتها بالعين المشاهدة.

إذًا قاسوا الغائب على الشاهد، عرفتم كيف وقعوا في التمثيل، هذه واحدة من عللهم، وستأتي العلة الأخرى في القاعدة التي بعدها إن شاء الله.

يد الله-عزَّ وجل- هم يسلمون ويستسلمون أنها معنى غائب؛ لكن هذا المعنى الغائب لا تتوقف عقولهم على الإيمان به فقط، قالوا: لا، بل نحن لا بد أن نقيس صفات هذا الغائب على صفة الشيء المشاهد (يد المخلوق)، إذًا بما أن الله خاطبنا باليد ياء ودال، فإذاً اليد الغائبة مثل اليد المشاهدة؛ فاضطر أهل السنة والجماعة أن يقرروا هذه القاعدة العظيمة وهي أنه لا يجوز قياس الغائب على الشاهد في باب الغيبيات.

4. الاتفاق في الأسماء لا يستلزم الاتفاق في الصفات.

وهذه توضح السابقة أكثر، ومعناها أن ليس كل شيئين اتفقا في اسمهما، فلابد لزاما أن يتفقا في صفاتهما، فكم من شيئين اتفقا في اسمهما في عالم المشاهدة، واختلفا في كيفيتهما وصفاتهما.

فإننا نرى أن الشمس مضيئة والشمعة مضيئة، فاتفقت الشمس والشمعة في أن كل منهما يوصف بالإضاءة، لكن الإضاءة التي أضيفت إلى الشمس تختلف عن الإضاءة التي أضيفت إلى الشمعة، فمع الاتفاق في الأسماء لم يستلزم الاتفاق في الصفات، ولا نزال نرى أن للصقر جناحاً، وللبعوض جناحاً، ومع ذلك فإن الجناحين في كيفيتهما البون الشاسع، وكذلك نحن نرى ان للفيل يداً، وللذباب يداً، فاتفق الفيل والذباب أن كلا منهما له يد.

فهل تعرفون لنا عاقلا في الدنيا، أو مجنونا يقول: بما أن الفيل والذباب اتفقا في اسم اليد، إذًا تكون يد الفيل كيد الذباب؛ للاتفاق في الأسماء، هل يجوز ذلك؟ أبداً, بل نحن نرى أن الله -عزَّ وجل- في كتابه يسمي نفسه بأسماء يسمي به عباده، وليس المسمى كالمسمى، ويصف نفسه بصفات يصف بها عباده وليس الموصوف كالموصوف، قال الله–عزَّ وجل-:﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح:10].

فجعل له يداً ولهم يداً، وليست اليد المضافة إلى الله كاليد المضافة إلى المخلوق، أليس كذلك؟ وقال الله –عز وجل- عن قوم بلقيس: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ﴾[النمل:33]، ومع ذلك يقول الله -عز وجل-: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:58-57]، وليس القوة المضافة إلى الله كالقوة المضافة إلى المخلوق، ونحن نقول إن

الإنسان لين والحديد بعد انصهاره لين، وليس اللين المضاف إلى هذا كاللين المضاف إلى هذا؛ ولذلك يقول الناظم:

توافق الأسماء لا يستلزم...توافق الصفات يا من يفهم

لنا يد وللبعوض مثلها...توافق الاسم فهل تشبهُها

هذه قاعدة متفق عليها بين أهل السنة، وقد دل عليها النقل والعقل والحس (الشيء المشاهد) بل هذا تقول: اختلفت صفة الوجهين باختلاف الإضافات.

فمتى ما اختلفت الإضافات، اختلفت الصفات، فهل يتضح في ذهنك وجه بندر إذا قيل لك: وجه وليد؟ الجواب: لا، وهل يتضح في ذهنك وجه الفيل، إذا قلت: وجه الذباب، وبناءً على ذلك، فإذا كان الاتفاق في الأسماء فيما بين المخلوقات نفسها لا يستلزم الاتفاق في الكيفيات، أفيكون ذلك لازمًا فيما بين الخالق الكامل من كل وجه والمخلوق الضعيف من كل وجه؟ ما هذا الكلام؟ إذا كانت المخلوقات الضعيفة المتفقة في صفة الخلق، لا يلزم من الاتفاق في أسماء صفاتها أن تتفق في كيفيتها، فكيف يكون ذلك لازما بين الخالق الكامل من كل وجه والمخلوق الضعيف من كل وجه؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!.

ولذلك عند أهل البدع قاعدة ملعونة شيطانية أن الاتفاق في الأسماء يستلزم الاتفاق في الصفات، ومن أجلها مثلوا صفات الله -عز وجل- بصفات خلقه. فإذا قيل لك: ما حجة أهل التمثيل في تمثيل صفات الله بصفات خلقه؟ فقل: حجتهم أمران:

1- أنهم قاسوا الغائب على الشاهد.

2- أنهم قرروا أن الاتفاق في الأسماء يستلزم الاتفاق في الصفات.

لما نظر أهل السنة والجماعة إلى هذه القاعدة قالوا: إنه ينقصها حرف واحد، لو أضفنا هذا الحرف لنقلنا هذه القاعدة نقلا كليا من كونها بدعية إلى كونها سنية، ومن كونها وثنية إلى كونها رحمانية، ما هذا الحرف؟ حرف (لا) (لا يستلزم) هذه يسمونها بـ(لا الذهبية) إياك أن تسقط منك هذه اللام، إذا سقطت

من هذه القاعدة ستكون شيطانية، وإذا أُثبتت اللام فستكون رحمانية، إذاً اتفاق الأسماء لا يستلزم اتفاق الصفات، ويوضحها أيضا القاعدة التي بعدها.

5. إذا اختلفت الإضافات اختلفت الصفات.

ولذلك لماذا اختلفت صفة وجه وليد عن صفة وجه عبد الرحمن؟ لأن الوجه الأول أضيف إلى وليد، والثاني أضيف إلى عبد الرحمن، فباختلاف الإضافات تختلف الصفات، وأنا إذا قلت: وجه الله، أضفته إلى من؟ الله، وإذا قلت: وجه المخلوق، أضفته إلى من؟ المخلوق، اختلفت الإضافات أم لا؟ فإذًا لابد أن تختلف الصفات، فكيف إذا قلت: وجه الله، يأتي في ذهنك وجه المخلوق؟ يا أخي، أنا قلت: وجه الله ما قلت: وجه المخلوق، هذا مثل من يقول: متى ما قلت لي بيبسي جاء سنيكرز، طيب يا أخي أحضر لي بيبسي، يحضر سنيكرز، طيب هات لنا سنيكرز يأتيك بماء، تقول له: ماذا بك؟ أقول لك: أحضر لي كذا تحضر كذا! قال: يا أخي، أنا ما أدري ماذا بذهني يشبه كذا. ما الذي تقوله؟ فكذلك المبتدعة إذا قلت: وجه الله، على طول جاء في ذهنهم ماذا؟ وجه المخلوق.

يا مسلم، وجه الله يأتي في ذهنك وجه المخلوق، يد الله يأتي في ذهنك يد المخلوق، أنا ما قلت: المخلوق، أنا قلت: الله، سبحان الله! هذا يدلك على أن مذهبهم ليس مبنيًا حتى على عقل سليم ولا نقل صحيح، احمدوا ربكم على العافية، هذه المعلومات التي تضحكون منها وأنا أقصد أن تضحكوا منها هذه عسرت على أذكياء العالم، عسرت على الغزالي قبل توبته، وعلى الرازي وعلى الجويني وعلى الشهرستاني، وعلى أئمة كبار أذكياء، ما ينقصهم ذكاء، لكن ذكائهم لم يقرن بزكاء، وعلومهم لم تقرن بعلوم القرآن والسنة، كما قال ابن تيمية في الكلمة الدارجة والمعروفة: أولئك قوم أوتوا ذكاء ولم يؤتوا زكاء وأوتوا علوما ولم يؤتوا فهوما، لهم سمع وأبصار وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء. الذكاء المجرد ليس دليلا على نجاة صاحبه ما لم يقرن بزكاء، والفهم المجرد ليس سبيلًا لنجاة صاحبه ما لم يقرن بفهم عن الله -عز وجل- ورسوله - صلى الله عليه وسلم إذًا، إذا اختلفت الإضافات اختلفت الصفات.

6. الاتفاق في الاسم الكلي المطلق لا يستلزم الاتفاق بعد الإضافة والتقييد والتخصيص:

وهي قاعدة توضح ما مضى، وهي طويلة في الألفاظ قليلا، لكنها مهمة عند أهل السنة والجماعة.

هذه القاعدة مبنية على فهمك أنت للاسم المطلق ما هو؟ متى ما فهمت الاسم المطلق تفهم القاعدة، اسمعوني أيها الإخوة: الاسم المطلق هو الاسم الذي لم يقيد ولم يضف إلى شيء، فقوله مثلا: ﴿يَدُ اللَّهِ﴾، هذا ليس اسماً مطلقاً، لأنه اسم مضاف يد المخلوق ليس مطلقًا، فكيف أجعل اليد اسما مطلقا؟ أن أحذف إضافتها فتكون (يد) هذا اسماً مطلقاً. افهموني، الاسم المطلق لا وجود له في العالم المشاهد بالعين، أتحداك أن تجد يداً إلا وهي مضافة إلى صاحبها، ولا صفة إلا وهي مضافة إلى موصوفها، لا يوجد من الصفات في عالم المشاهدات إلا المضافات، وأما المطلقات فيرجع وجودها إلى شيء يقوله الذهن.

يقول ابن تيمية: يرجع إلى وجود في الأذهان يمتنع تحققه في الأعيان، إذًا فاليد المطلقة غير موجودة، لا يوجد غير يد محمد أو يد خالد، الوجه المطلق غير موجود، الاستواء المطلق غير موجود، السمع المطلق، البصر المطلق، ليس في عالم المشاهدات من الصفات إلا المضافات.

إذاً، قولنا: يد الله، ويد المخلوق، هل هي مقيدة الآن أم مضافة؟ أريد أن أقلبها إلى مطلقة، أحذف الاسم الأحسن (الله) وأحذف اسم المخلوق، يتبقى يد، ويد إذا كانت مطلقة (يد) هل تفهم منها: أين يد الله ويد المخلوق؟ إذًا بين اليدين اشتراك في الاسم المطلق، متى ينتهي هذا الاشتراك في الاسم المطلق؟ إذا أضفت، فالاشتراك في الاسم المطلق لا يستلزم الاشتراك بعد الإضافة. هذا عند أهل السنة، وعند المبتدعة نفس القاعدة، إلا أنهم قالوا: الاتفاق بين الصفتين في الاسم الكلي يستلزم الاتفاق بعد الإضافة والتخصيص، فكما أننا قبلنا الاشتراك بين اليدين في الاسم الكلي، فلماذا لا نقبل الاشتراك بعد الإضافة والتقييد والتخصيص؟

أرأيتم؟ قاعدتهم باطلة، ونحن قاعدتنا حق؛ لماذا؟ لأننا جعلنا الاشتراك بين الصفتين إنما هو في الاسم العام المطلق الكلي فقط، الذي هو غير موجود أصلًا، وأما بعد الإضافة والتقييد والتخصيص، فإنها انتهت. لو قلت لك الآن: سيارة وسيارة، هل تفهم منها شيئاً؟ لكن لو قلت: سيارة وليد، وسيارة عادل. طيب الاتفاق بين السيارتين في الاسم المطلق لا يستلزم الاتفاق بين السيارتين بعد الإضافة، الآن لما قلت: سيارة، لم يأت في ذهنك لا سيارة سوداء ولا بيضاء، لا طويلة ولا قصيرة، ما جاء في ذهنك شيء، لكن عندما أقول: سيارة وليد وسيارة عادل، على طول في ذهنك، سيارة هذا بيضاء، وسيارة هذا سوداء، متى جاء البياض والسواد والتفاصيل؟ بعد الإضافة.

فالمبتدعة يقولون: بما أنه هناك اتفاق في الاسم المطلق، فلينجرّ هذا الاتفاق إلى ما بعد الإضافة والتقييد. قال أهل السنة: لا، نحن نقر بأن هناك اتفاقاً واشتراكاً في مطلق الوجود أو في مطلق اليد فقط، لكن بعد الإضافة إلى الله أو إلى المخلوق انتهى، فليس كمثل الله شيء.

إذًا قول الله-عزّ وجل-:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:11]، ليس كمثله في الاسم الكلي أم بعد الإضافة والتقييد؟ فالتمثيل الذي يحاربه أهل السنة ليس هو التماثل في الاسم الكلي، وإنما هو المماثلة بعد الإضافة والتقييد والتخصيص.

7. لا يستعمل في حق الله إلا القياس الأولى دون غيره من أنواع الأقيسة.

وقد قسم أهل السنة الأقيسة إلى ثلاثة أقسام، ألغوا في حق الله قسمين، وأثبتوا قسمًا:

القسم الأول من أنواع الأقيسة: ما يسمى بقياس الشمول، وهو إدراج فروع تحت أصل عام، أجمع العلماء من أهل السنة على حرمة استعماله في حق الله، قياس الشمول لا يستعمل في حق الله أبدًا.

النوع الثاني من القياس وهو قياس التمثيل (وهو الأصولي): وهو: إلحاق فرع بأصل في حكم لعلة جامعة، أجمع أهل السنة على حرمة استعمال قياس التمثيل في حق الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء، لا مماثل له، فقياس الشمول

وقياس التمثيل باطلان في حق الله، لا يجوز ان يستعمل في حق الله شيء من هذين القياسين، والعجيب يا إخواني وأحبابي أن هذين القياسين هما القياسان اللذان يتعامل أهل البدع مع الله بهما، أعوذ بالله من هذا الضلال، فهم يدخلون الله مع خلقه في قياس تمثيل أو في قياس شمول.

وأما القياس الثالث: وهو قياس الحق الذي يستعمل في حق الله-عزّ وجل- وهو القياس الأولى، فإن قلت: وما صيغته؟ تقول: صيغتهُ، كل كمال في المخلوق لا نقص فيه، فالله أحق به، وكل نقص في المخلوق لا كمال فيه، فالله أحق أن ينزه عنه؛ لأنه هو من أعطى الكمال ومعطي الكمال أولى بالكمال، وكل نقص في المخلوق لا كمال فيه، فالله أحق أن ينزه عنه، فالموت نقص في المخلوق لا كمال فيه فالله أحق أن ينزه عنه، والجهل نقص في المخلوق لا كمال فيه، فالله أحق أن ينزه عنه، الغدر واللغوب والخيانة نقص في المخلوق لا كمال فيه، فالله أحق أن ينزه عنه، وهكذا دواليك، الحياة كمال في المخلوق لا نقص فيها، فالله أحق أن يوصف بها، وكذا العلم كمال في المخلوق لا نقص فيه، فالله أحق أن يوصف به، والسمع والبصر كمالان في المخلوق لا نقص فيهما، فالله أحق أن يوصف بهما.

فإذًا لا يستعمل في حق الله إلا القياس الأولى. ويجب أن نكمل بقولنا:(لا نقص فيه - و لا كمال فيه)؛ لأن هناك كمال نابع عن نقص مثل الولد، فمن له ولد هو كمال، لكنه نابع عن نقص، فهو ليس كمالاً مطلقاً، وإنما كمال مشوب بنقص، ولذلك الإنسان إذا تأخر أولادهُ، وإنجاب زوجته، يذهب إلى العلاج، بل إن من عيوب المرأة العقم والرجل أيضًا، فلو أن امرأة كانت عاقرا أو زوجها عقيمًا فحينئذٍ يجوز للطرف الآخر السليم أن يطلب الفسخ.

فإذًا فالولد لا يكون كمالا مطلقاً، فلا يدخل معنا في القياس الأولى؛ لأنه كمال مقرون بنقص من جهة أخرى، كذلك النوم كمال في المخلوق؛ ولذلك الذي لا ينام يروح للطبيب، الذي يرقد ويروح للطبيب، يقول له الطبيب: هذه طبيعة بني آدم، أنت مع الفطرة الآن، لكن الذي يتأخر نومه يروح للطبيب، لكن النوم هو كمال من جهة أنه راحة، لكنه نقص من جهة أخرى، هي احتياج جسدك

للنوم لتجديد نشاطك الذهني والجسدي، فإذًا النوم ما يدخل، والولد ما يدخل؛ لأنه لا يدخل في قياس الأولى إلا كل كمال لا نقص فيه، أو كل نقص لا كمال فيه. فإذا سألك سائل: أي قياس يستعمل في حق الله؟ فتقول: إنما هو القياس الأولى، أما قياس الشمول والتمثيل فقد أجمع العلماء على حرمة استعمالها في حق الله –عزَّ وجل-.

8. نصوص الصفات محكمة باعتبار معانيها، متشابهة باعتبار كيفياتها.

وهي التي يعبر العلماء عنها بقولهم: معلومة المعنى مجهولة الكيف.

يقول الناظم:

وإن تسل كيفية الصفات...فمالك أجابهم بالآتي

معلومة المعنى صفات ربنا...مجهولة الكيف وبدع من ثنى

فصفات الله–عزَّ وجل- ننظر لها من جهتين:

الأولى: من جهة معانيها على حسب دلالتها اللغوية المتقررة في لسان العرب، ومن جهة كيفيتها على ما هي موجودة عليه في الواقع ؛ فإذا جئنا إلى صفات الله من هذا المعنى وجدناها في أعلى الإحكام والوضوح والبيان، فالوجه لغةً معناه واضح، و اليد لغة معناها واضح، والاستواء المقيد بعلى لغة معناها واضح: وهو ثبوت العلو والاستقرار، فالله–عزَّ وجل- خاطبنا في آيات الصفات بلسان عربي فهو لم يخاطبنا بهذا اللسان إلا وهو يريد منا أن نحمل معاني هذه الألفاظ على ما تقرر في لساننا العربي، لا يمكن أن يخاطبك الله–عزّ وجل- بلغة لها معنى ثم يريد منك غير المعنى، هذا إذًا صار تلبيساً ومخادعة.

وكما قال ابن القيم: لو كان مذهب هؤلاء هو الحق لكان ترك الناس بدون قرآن أحسن؛ لأنه لم يزدهم نزول القرآن إلا ضلالا، إذ يخاطبك الله في القرآن بشيء وهو يريد منك غير ذلك، الله لما خاطبك بالوجه، اعلم أنه يريد منك الوجه الذي تفهمه في اللغة معنى، وأما كيفيته فإياك أن تتكلم فيها، وبما أن المعاني معلومة فهي محكمة؛ لأن الإحكام هو العلم بالشيء وبيانه واتضاحهُ وظهوره معنى.

الثانية: الكيفيات، والكيفيات متشابهة، ما معنى التشابه؟ هو خفاء الشيء وعدم الوضوح، فالكيفيات من صفات الله معلومة؟ الجواب: لا، خفية، أخفاها الله – عز وجل- عنا، لا نستطيع أن ندركها؛ لأن كيفية الشيء لا تعلم إلا برؤيته، وهذا ممتنع عن صفات الله؛ لأننا لم نره، وقد أجمع العلماء على أن الله لا يرى في الدنيا، واختلفوا في النبي –صلى الله عليه وسلم-... والحق أنه لم يره.

فأما الرؤية في المنام فهي صحيحة وممكنة عند أهل السنة، لكن الرؤية المنامية تختلف عن رؤية الحقيقة. نحن الآن نذكر إجماع العلماء على أن الله لا يرى من أحدٍ في الدنيا رؤية عيان، ليس رؤية منام، أما رؤية المنام فتختلف؛ ولذلك يقول بعض السلف: رأيت ربي، نقول: قد يكون صادقاً، لكن قد يكون رأى نورًا، أو جبلا كبيرا، فيقع في قلبه أنه الله، هذا صحيح، أولم ير النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على صورة بقر تُنحر؟ أولم ير يوسف أباه وأمه على صورة شمس وقمر، وإخوته على صورة كواكب؟.

فإذًا، الرؤى لا يلزم منها مشابهة الحقيقة في الكيفية والصفة، فإذاً، الكيفية لا يمكن العلم بها؛ لأن الله لم يُر، انتهى الطريق الأول، وهو رؤية الشيء، أو رؤية نظيره ومثيله أيضاً، هذا منتفٍ في حق صفات الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء حتى إذا رأينا مثيله استدللنا على صفاته، الطريق الثالث: أن يخبرك صادق عن كيفية صفته، والصادق هو النبي – صلى الله عليه وسلم – ومع ذلك لم يخبرنا عن كيفية صفته أبدًا، النبي أخبرنا أن لربنا وجهًا فقط، ولم يخبرنا عن كيفية هذا الوجه، أخبرنا أن لربنا علواً، ولم يخبرنا عن كيفية هذا العلو،إذًا أخبرنا عن الصفة وسكت عن كيفيتها، فإذًا صفات الله لم تُر، وليس لها مثيل، ولم يخبرك صادق عن كيفيتها، فما الطريق للعلم بالكيفية؟ انعدمت الطرق الثلاث كلها...

الجواب: أنها في دائرة المتشابه الذي يجب الكف عنه، فلا نتكلم في كيفية شيء من صفات الله –عزَّ وجل-، جاءني رجل وقال: يا أخي، أنا عندي مشكلة، قال: كيف تريد مني أن أتصور شيئًا أعلم معناه وأجهل كيفيته؟ يا أخي، إذا علمت المعنى علمت الكيفية، فالعلم بالكيفية درجة ثانية بعد العلم بالمعنى، يعني أقول

لعقلي: يتوقف في الوسط، من حين يتكلم عقلي في المعنى، سيتكلم قلبي في الكيفية، عفواً، فكيف تقول: وجه الله معلوم وكيفيته مجهولة؟ إذا فهمت الوجه بمعنى ما تحصل به المواجهة، إذًا ينقدح في ذهني وجه المخلوق، نقول: اصبر لا تستعجل، أضرب لكم مثالين:

لو قلت لكم: اشتريت بيتا في الدلم (المنطقة التي أسكن فيها) هل يفهم أحد منكم أنني اشتريت: حمارا، قطارا، أرضا، أكلا، ماذا تفهمون؟ بيت، الحمد لله، هل يحتاج منك أن تعرف معنى البيت لغةً؟ أنت تعرف معنى البيت لغةً، إذًا علمت المعنى، طيب مَن يكمل ماذا أريد؟ كيف البيت؟ تقول: لا، اسمح لي، قال: لا، قلت: صح، صفات الله تَعامَلْ معها بهذه الطريقة، إذا سمعت لفظها، فاحملها على المعنى المتقرر، ولكن الكيفية إياك أن تتكلم فيها. وإذا قلت: اشتريت سيارة، هل ستفهم مني أنني اشتريت سفينة، أو خيلاً، أو قطارًا، لا، سيارة، هل تحتاج إلى أن تقول: طيب ما معنى السيارة لغةً وشرعاً؟ لا يا أخي، معناها لغةً واضح، لكن أنت تعلم المعنى فقط، لكن أتحداك أعطني كيفية السيارة التى اشتريت؟ أنت علمت المعنى، أو لم تقل قبل قليل: من علم المعنى علم الكيف؟ كلا والله لم تعلم كيفيتها؛ لأنك لم ترها، ولم أخبرك عن نظيرها، ولم أخبرك أنا أصلًا عن كيفية صفاتها، فانقطع طرق العلم بالكيفية في عقلك. فكيف بالله تتعرف على هذا الشيء؟ يقول العلماء: فإذا كانت كيفية الشيء المخلوق لا تعلم إلا بهذه الطرق، فكيف بكيفية الخالق -تبارك وتعالى-!

لذلك نحن نجيز أهل السنة والجماعة الكلام في المعاني فقط؛ ولكننا نحرم الكلام في الكيفيات.

وقد جاء رجل إلى الإمام مالك ثم قال:﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[سورة طه:5]، كيف استوي؟ وتعرفون القصة ولا يحتاج أن نذكرها. لا يجوز لك أن تتكلم في الكيفية، أهل السنة في هذا المذهب علموا شيئًا وجهلوا شيئًا.

فهم وسط بين مذهبين ضالين:

المذهب الأول: الممثلة، قالوا: نحن نعلم المعنى والكيفية، أصابوا في جانب، وأخطؤوا في جانب، أصابوا في العلم بالمعنى، وأخطؤوا في قولهم: العلم

بالكيفية، عارضهم في ذلك طائفة أخرى، وهم طائفة يسمون طائفة المفوضة قالوا: نحن لا نعلم لا المعنى ولا الكيف، فيجعلون كلام الله -عزّ وجل- في الأسماء والصفات بمنزلة اللفظ الأعجمي الذي تستطيع قراءة حرفه، ولا تعرف حقيقةً لمعناه.

الآن انظر بعض الناس يجي على كتابة انجليزية، هو عنده خبرة في القراءة لكن ما يدري ما المعنى. فالمفوضة يقولون: إذا قرأنا:﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرحمن:27]، هو بمنزلة قراءة لغة أعجمية يعرف حروفها ويجهل معناها، أعوذ بالله! ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرحمن:27] ليس معناه الوجه، لا لا لا، اسمح لي أنا ما أتكلم في الوجه، أنا ما أعرف في الوجه، معناها يا ابن المسلمين في اللغة العربية التي تتكلم بها أنت، ما معنى الوجه؟ اسمح لي ما عندي استعداد أتكلم في الوجه أبدًا، فيحرمون الكلام في المعاني والكيفيات، أصابوا في جانب، وأخطؤوا في جانب، ما الجانب الذي أصابوا فيه؟ عدم كلامهم في الكيفيات هو الحق، وعدم كلامهم في المعاني؟ امسك الحق واجمع الحق الأول، فجمع أهل السنة بين المذهبين؛ فالحق الذي مع الممثلة هو الكلام في المعنى انتبه، والحق الذي مع المفوضة هو ترك الكلام في الكيفية، العلم بالمعنى وترك الكيفية، هذا مذهب أهل السنة والجماعة والوسط بهذه الطريقة.

9. الأصل في نصوص الأسماء والصفات بقاؤها على ظاهرها.

والمقصود بظاهرها: أي المعنى المتبادر للذهن لمن يفهم لغة الكتاب والسنة وهو العربي، فلا يجوز لك أن تعدل عن ظاهر هذا النص إلى معنى آخر إلا إذا جاءك دليل ينقلك من الظاهر إلى المؤول، فإن جاء دليل يقتضي نقلك عن الظاهر فانتقل، وإن لم يأتك دليل فالأصل هو البقاء على الظاهر حتى يرد الناقل، مثال ذلك: عندنا مثال فقهي أبسط قليلاً، اختلف العلماء-رحمهم الله تعالى- في قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: **«توضؤوا من لحوم الإبل»**[1]. كما في السنن من حديث البراء بن عازب بإسناد صحيح، من العلماء

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب الوضوء من لحوم الإبل، (47/1) برقم (184)، والترمذي في سننه، أبواب الطهارة، باب الوضوء من لحوم الإبل، (137/1) برقم (81).

من قال: إن كلمة (توضؤوا) المقصود بها غسل اليدين فقط، ومن أهل العلم من حمل اللفظ على الوضوء الشرعي.

أي المعنيين أرجح ولماذا؟ الأخير؛ لأن الظاهر أن لفظ الوضوء إذا كان المتكلم به الشارع يقصد الوضوء الشرعي، لا مجرد غسل اليدين، إذًا، أنت تبقى باللفظة على ظاهرها؛ ولذلك اختلف العلماء في الجنة التي دخلها أبونا آدم، فمنهم من حملها على ظاهرها، ومنهم من حملها على معنى آخر، فمنهم من قال: هي بستان في الأرض، ومنهم من قال: هي جنة الخلد التي سيدخلها المؤمنون، نرجع إلى البقاء على الظاهر، وهو أن الأدلة الشرعية إذا عرّفت لفظ الجنة، فقالت: الجنة، ولم تضفها لا ابتداء ولا انتهاء، أطلقوها، يعني الجنة، فالأدلة إنما تستعملها في جنة الخلد، الله-عز وجل- قال: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[البقرة:35]، فإذًا عرّفها وأطلقها، لا يرد لفظ الجنة معرفًا مطلقًا إلا ما يريد الله به جنة الخلد، هذا هو الظاهر، فإذا جاء موضع اختلفنا فيه، فنرد هذا الموضع المختلف فيه إلى الظاهر المتقرر في معنى الأدلة في مواضع أخرى.

ودليل هذا من القرآن قول الله–عزَّ وجل- في وصف هذه الجنة التي أمر آدم أن يدخلها: ﴿إنّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرى﴾[طه:118]، وأعظم بستان في الأرض سيجوع صاحبه، ولا تعرى، أعظم بستان في الأرض سيتعرى صاحبه حتى ولو يتسبح يعني، إذًا هذه الجنة التي أُدخلها آدم ما فيها جوع ولا فيها عري﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَ﴾[طه:119]، أيّ جنة يصف الله؟ جنة بستان في الأرض، الجواب: لا، هذه ليست صفات بستان في الأرض؛ ولذلك قال ابن تيمية: واتفق سلف الأئمة على أن الجنة التي دخلها آدم أنها جنة الخلد، ومن قال: بأنها بستان في الأرض، فإنما هو قول ساقه من أهل البدع.

إذًا الخلاف متأخر مسبوق باتفاق السلف، قال الله–عزَّ وجل-:﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:64]، ظاهرها إثبات اليدين لله، إذًا يجب عليك أن تبقى على الظاهر، ولا تنتقل إلى معنى آخر إلا بقرينة، ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[الرحمن:27]، الظاهر أنها أثبتت الوجه لله، يجب عليك أن تبقى على هذا الظاهر، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:5]، فيه إضافة للاستواء على ظاهرها، إذاً عليك أن

تبقى على هذا الظاهر؛ ولذلك أجمع أهل السنة على أنه لا يجوز العدول عن ظاهر الأسماء والصفات إلا بوجود قرينة تدلك على هذا الانتقال، سبحان الله! أجمع أهل البدع على وجوب الانتقال من الظاهر ولو بلا قرينة، فرارا من التمثيل، إذاً، قاعدتنا أنه: لا يجوز لك أيها السني إذا مررت على نص من نصوص الصفات له ظاهر، أن تنتقل عن ظاهرها مهما فرض الشيطان بعض اللوازم في ذهنك، فإياك أن يحرفك عن الظاهر، اتق الله واثبت.

10.أن الأصل في الكلام الحقيقة، ولا يجوز الانتقال عنه إلى المجاز إلا بقرينة.

وهذا مجمع عليه بين أهل السنة، وشرحه كما مضى في قاعدة الظاهر، أن الكلام لا يجوز أن تنتقل من حقيقته إلى مجازه إلا بدليل، فقولك في قول الله -عزَّ وجل-: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:64]، لا يراد بها اليدان، وإنما يراد بها النعمة، فأنت انتقلت من الحقيقة إلى المجاز، فلابد من دليل يدلك على هذا الانتقال، وإلا فالأصل هو البقاء على الحقيقة، قال في حديث أنس رضي الله عنه: **«حتى يضع فيها رب العزة رجله»**[1]. قالوا: ليس المقصود الرجل، وإنما المقصود الطائفة من الناس، إذًا أنت تنتقل من الحقيقة إلى المجاز، وأين الناقل؟ لذلك أهل السنة يبقون على الحقائق في نصوص الأسماء والصفات، ولا ينتقلون عنها إلى مجازاتها إلا إذا ورد دليل يدلهم على هذا الانتقال.

11. لا يتعارض نص صحيح مع عقل صريح.

وذلك لأن الذي أنزل النص هو الذي خلق العقل، وهو أعلم بما يحيل العقل عن معانيه، والنصوص عن دلالاتها، فلا يمكن أبدًا أن يأتي نص صحيح يتعارض مع عقل صريح، وإذا قلنا: عقل صريح، يعني العقل السليم من الآفات الدخيلة عليه، والتي توجب اضطرابه وعدم فهمه، وإغلاق درب الفهم الصحيح عليه، فمتى ما كان الشرطان متوفرين، فكان النص صحيحًا والعقل سليمًا، فأقسم بالله ثلاثة أيمان أنه لا يمكن أن يتعارضا أبدًا.

ولذلك جميع من ادعى تعارضًا بين النقل والعقل إنما هو من أهل البدع، لا نحفظ كلمة واحدة عن أهل السنة والجماعة في إثبات تعارض بين نقل وعقل أبدًا، ولما أراد الرازي أن يشغب على أهل السنة بقانونه الفاسد، انتبه له أبو العباس ابن تيمية لكسر هذا القانون في كتاب اسمه **(درء تعارض العقل والنقل)** من أول تسع مجلدات، وأبو العباس يثبت هذه القضية الواحدة، وهي أنه متى ما صح النص فسيتفق مع العقل، ويبدأ يُجيبهم على هذه الأمثلة التي يريدون أنها تعارض العقول ويجيب عنها بأجوبة سديدة محكمة جزاه الله عنا وعن

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {وتقول هل من مزيد} [ق: 30] (138/6) برقم (4850)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، (151/8) برقم (7354).

المسلمين خير الجزاء، وجعل قبره روضة من رياض الجنة، وعامله بكرمه وأعلى قدره ونزله في الدارين يا رب العالمين.

أذكر لكم مثالين من الأمثلة التي يزعم أهل البدع أنها تتعارض مع العقل، وهي تخص الصفات:

الأول: في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي –صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه-عزّ وجل- والحديث في الصحيح قال: **«عبدي جعت فلم تطعمني، مرضت فلم تعدني»**[1]. إلى آخر الحديث. قال أهل البدع: إن هذا النقل يتعارض مع العقل كل المعارضة، والواجب نسفه وإلغاؤه وإبطاله؛ لأن العقل يفرض وجوب إثبات صفات الكمال ونفي صفات النقص، وهذا الحديث يثبت صفات النقص لله، إذًا هو يتعارض مع العقل.

فقال أهل السنة: لا يتعارض مع العقل، بل هو متفق مع العقل كل الاتفاق، أنتم لو كانت عقولكم سليمة ناضجة ليس فيها آفات ولا مرض، لفهمتم هذا النص؛ لكن عقولكم عقول متلوثة بالقواعد المنطقية الفلسفية المأفونة المعارضة للمنقول، والمناقضة للمعقول، لماذا لم يدّع هذا التعارض أبو بكر وعمر والمهاجرون والأنصار مع أنه طرق هذا الحديث أسماعهم؟ لأنهم نظروا له بعقول سليمة، وبيان ذلك أنه عندنا مثال وقاعدة عربية.

المثال قوله - تعالى-: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾، الذي تفهمه من هذا النص، افهمه من الحديث، تفهم من هذا النص القاعدة العربية، وهي أن المعظم ينزل حاجة المحتاج كحاجته من باب كشفها والحث والترغيب في فعلها، فقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، هذا من باب الحث على الإقراض، لا يفهم أحد أن الله يستقرض حقيقة؛ ولذلك آخر الحديث يوضحه، يقول: كيف تجوع وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا جاع؟ إذًا، الجوع لا يكون لله حاشا وكلا، وإنما كان للعبد، فأنزل الله جوع العبد بمنزلة جوعه من باب الحث على كشف جوع أخيك وكشف كربته.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض (13/8) برقم(6721).

مثل أن يقول الملك سلمان الآن: من كسا في المملكة عاريا فقد كساني، هل يمكن أنه يحتاج لثياب؟ هو طبعا لا. من أطعم جائعا في المملكة العربية السعودية فقد أطعمني، هل هذا أسلوب مقبول من الملك؟ الجواب: نعم، بل هذا يدل على حرصه وتفانيه في كشف كربة شعبه؛ لأن المعظم ينزل حاجة المحتاج كحاجته؛ لكشفها والترغيب أو الحث على القيام بها. هل هذا الحديث يتعارض مع العقل؟ لا، لم يتعارض، واضح جدا، ومنه أيضا الحديث الثاني عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم - قال: **«إني أجد نفس الرحمن من قبل اليمن»**[1].

فقال أهل البدع: يا الله، ما هذا الحديث؟ كيف تطيب قلوبكم يا أهل السنة أن ترووا هذا الحديث، وأن تذكروه في دروسكم ومجالسكم لطلابكم؟ قلنا: لماذا؟ ما الخبر؟ ماذا حصل؟ قالوا: كيف تجدون نفس الرحمن من قبل اليمن؟ الشهيق والزفير! هذا يدل على أن الله حال في اليمن، والعقل يفرض أن الله لا يجوز حلوله في شيء من المخلوقات، إذاً هذا الحديث يتعارض مع العقل.

يا أخي عليهم حركات، وهل نحن نقر بهذا؟ الجواب: لا، هذا الحديث لا يوجد أحلى من معناه، واضح ومتفق مع العقل كل الاتفاق، عقولكم هي المريضة، لكن النص لا شك فيه، وهو أنهم فهموا أن النفس هنا من باب التنفس، وهذا خطأ، وإنما هو من باب التنفيس، فهو من باب نفّس ينفّس تنفيسا لا تنفّسا، بمعنى أنكم متى كربتم يا أهل الإسلام، فسيأتي تنفيس كربتكم من قبل اليمن.

وهذا هو ما حصل في حروب الردة مع أبي بكر، فإنه قد كثرت الردة في قبائل نجد، فمن الذي وقف في حروب الردة وقوف الرجال؟ أهل اليمن، فحصلت الفرجة عن أهل الإسلام والتنفيس عنهم بأهل اليمن.

الحاصل: (إني أجد نفس الرحمن) أي: تنفيسه من كربة على عباده من قبل اليمن.

---

[1] أخرجه الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، (576/16) برقم (10978).

على كل حال، فإنه لا يمكن أبدا أن يتعارض نص ثبتت صحته مع عقل ثبتت صراحته، فأي صفة تمر عليك في الكتاب والسنة ترى أنها تتعارض مع مقتضى من مقتضيات عقلك، اعرف أن الآفة في العقل.

يوضح هذه القاعدة التي بعدها:

12. النقول تأتي بمحارات العقول لا بمعارضاتها.

معناها يا أحباب قلبي، أن النقل قد يأتي أحيانا بمعنى واسع عقلك يحار فيه لاتساعه؛ لكن أبدا لا يأتي النص بما يتعارض مع عقلك. فنحن نقبل أن يحار العقل في النص، ولكن لا نقبل أن يتعارض العقل مع النص، مثاله لو سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم- يقول، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«ينزل ربنا إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر»**[1]. عقلك يحار في هذا النص؛ لأن ثلث الليل دائر على الكرة الأرضية، فالله -عز وجل- ينزل في كل بقعة يكون فيها الثلث الأخير من الليل؟ هذا شيء عجيب، كلمة عجيب دليل على أن معنى النص، ودلالاته أوسع من مدركات عقلك، فعقلك لم يعارض عقلك حار، فالنصوص تأتي بمحارات العقول لا بمعارضاتها، بمعنى أن الكافر مثلًا يضيق عليه في قبره حتى تختلف أضلاعه، هذا يحار فيه العقل لكن لا يتعارض مع العقل.

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان:29]، على مختلف جثثكم وتناثرها على الكرة الأرضية، يقول: قوموا، فيقوم الناس من قبورهم مباشرة كنفس واحدة، هذا يحار فيه العقل، ما هذه القدرة العظيمة! ما هذه القدرة الهائلة! لكن ما يتعارض، فرق بين الحيرة والنقد. فنحن نحارب نقد العقل لما أبرمه النص، وأما حيرة العقل في دلالة النص ومعنى النص، فهذا مقبول عند أهل السنة والجماعة.

13. أسماء الله متفقة من حيث الذات، مختلفة من حيث الصفات.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {يريدون أن يبدلوا كلام الله}[الفتح: 15] (143/9) برقم (7494).

أعطوني خمسه أسماء من أسماء يوم القيامة بسرعة؟

الصاخة، القارعة، الطامة، يوم التغابن، واليوم الآخر.

هل كل اسمٍ منها يدل على ذات يوم مستقل، أم كلها تدل على ذات يوم واحد؟ إذًا هي متفقة باعتبار دلالتها على ذاتٍ واحدة، لكن لو نظرت إلى صفاتها وجدت أنها مختلفة؛ لأن كل صفه اسم منها يدل على صفه اسم غير صفة الاسم الآخر.

اليوم الآخر يدل: على أنه موصوف بأنه لا يوم بعده.

يوم التغابن: أن تغابن العباد فيه كثير، يوم الحسرة: أن الحسرات فيه كثيرة.

ويوم القارعة: أنها فيها أصوات عظيمة، وأهوال تقرع القلوب.

والصاخة: أنها تصخ الآذان.

إذًا، هذه الأسماء إن جئنا إلى صفاتها وجدناها مختلفة، وإن جئنا إلى دلالتها على ذاتٍ وجدناها متفقة، إذًا يصدق عليها أن نقول أسماء يوم القيامة متفقه باعتبار دلالتها على ذاتٍ واحدة، ومختلفة باعتبار دلالتها على صفاتٍ متعددة، هل نقول: متفقة، ونسكت؟ أو مختلفة، ونسكت؟ لا، نفصل.

مثال آخر: الأسد سمتهُ العرب عدة أسماء، وطبعًا خذوها قاعدة: كلما عظّمت العرب شيئًا أكثرت من أسمائه، يخرجون تعظيمهُ بتكثير أسمائه، الأسد، الليث الهزبر، الضرغام، المهم، هل كل اسم منها يدل على ذاتٍ أسدية مستقلة، أو كلها تدل على ذاتٍ وجنسٍ واحد؟ كلها، يعنى كل أسد يسمى بذلك قصدي، لكن لو نظرت إلى أسمائها لوجدت أن كلٌ منها يدل على صفةٍ غير صفة الاسم الآخر، إذًا يصدق عليها أن أسماء الأسد متفقه باعتبار الذات، ومتباينة أو مختلفة باعتبار الصفة.

خذ مثالاً آخر: أسماء النبي -صلى الله عليه وسلم- محمد، أحمد، نبي الرحمة، نبي الملحمة، العاقل، الحاشر، هل كل اسم منها يدل على ذات نبي مستقل، أم كلها تدل على ذاتٍ واحدة؟

إذًا, هي متفقة باعتبار دلالتها على الذات، لكن انظر إلى صفاتها، محمد يعنى كثير صدور الحمد له، أحمد كثير صدور الحمد منه، فهو كثير الحَمد، وكثير الحمْد، ونبي الرحمة دليل على أنه بعث رحمة للعالمين، ونبي الملحمة تدل على أنه بعث بالسيف، وجعل رزقه تحت ظل رمحه، والعاقب أي: ليس بعده واحد، يعني: إذًا، كل اسمٍ منها يدل على صفةٍ أخرى، إذًا, يصدق عليها أن نقول: أسماء النبي متفقة من حيث الذات، ومختلفة من حيث الصفات.

طيب أسماء الله، نفس القاعدة، متفقه من حيث الذات مختلفة من حيث الصفات، هذه القاعدة التي نريد شرحها، يعنى: بمعنى أن الرحيم هو الرحمن، الرحمن هو: القوي أم لا؟ لكن الرحمة ليست القوة.

مثال ثاني: الغفور هو الجبار اسمًا، لكن المقدرة ليست الجبروت، إذاً, الله، الرحمن، العزيز، القدير، كلها تدل على ذات واحدة، فالذات التي يدل عليها الرحمن هي الذات التي يدل عليها الرحيم، وهى الذات التي يدل عليها القيوم، والقهار، والسلام، والمؤمن، كله، لكن كل اسمٍ منها يدل على صفه مختلفة، فإذًا, يصدق عليها أن نقول: أسماء الله متفقة من حيث الذات، مختلفة ومتباينة من حيث الصفات.

فإن قلت: ولماذا قدر أهل السنة هذه القاعدة؟ نقول: ردًا على المعتزلة؛ لأن المعتزلة انقسموا في هذا الباب إلى قسمين:

فطائفة منهم قالت: أسماء الله متفقة وأجملوا، وطائفة منهم قالت: أسماء الله متباينة، مختلفة، وسكتوا؛ فجاء أهل السنة؛ فقالوا: متباينة ومتفقة، فهي متفقة باعتبار دلالتها على ذات ربٍ واحد، ومختلفة باعتبار دلالتها على صفاتٍ مختلفة.

14. أسماء الله أعلامٌ، وأوصاف.

وهذه قاعدة لن نطيل عندها، فهي أعلام باعتبار دلالتها على الاسمية، وأوصاف باعتبار دلالتها على الصفة، بمعنى أن الاسم من أسماء الله يتضمن صفةً من صفاتهِ، فالعليم اسمه والعلم صفته، القدير اسمه والقدرة صفته، إياك أن تؤمن

بالاسم وتنكر الصفة فتكون معتزليًا؛ لأن المعتزلة يؤمنون بالأسماء ويكفرون بما تضمنتها من الصفات، فيقول: الله عليم بلا علمٍ حقيقي، الله قدير بلا قدرة، قويٌ بلا قوة، وهذا غير مقبول أبدًا.

فاضطر أهل السنة أن يؤكدوا على هذه القاعدة، ويقولون: الاسم لا يتم الإيمان به إلا إذا آمنت بصفته، الحكيم اسمه، والحكمةُ صفته، السلام اسمه، والسلامة من كل عيبٍ صفته، القدوس اسمه والقداسة المطلقة، القداسة يعنى النزاهة، والقداسة المطلقة صفته، إذًا قدس الله روحه بمعنى: نزهها في عليين.

فإذًا أسماء الله أعلامٌ وأوصاف، يعنى كل اسمٍ من أسماء الله فإنه يتضمن صفة من صفات كماله.

15. الله موصوف بصفات الكمال والجلال قبل وجود آثارها.

الله موصوف بصفات الكمال والجلال المطلق قبل وجود آثارها.

يقول الإمام الطحاوي في عقيدته: ليس بعد الخلق استحق اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفاد اسم الباري، يعنى بمعنى: أن الله لا يحتاج في تسميته-عزَّ وجل- إلى وجود أثار صفاتها، فالله موصوف بأنه يغفر الذنوب قبل وجود الذنب وقبل وجود المعصية، الله-عزَّ وجل- موصوف بالخلق قبل وجود المخلوق، وموصوف بالربوبية قبل وجود المربوب، وموصوف بأنه تواب قبل وجود الذنب الذي يتوب عليه، فإذًا لا يتوقف اتصاف الله بصفة الكمال على وجود آثارها، بل هو موصوف بصفات الكمال قبل وجود آثارها.

فإذًا لا يمكن أبداً أن نصف الله-عزَّ وجل- بصفة مبتدئة جديدة؛ لأن آثارها وجد فالاتصاف لا تعلق له بالآثار، فهو موصوف إن لم توجد آثاره، هذا بخلاف الصفات التي تطلق على ابن آدم، فلا يوصف الإنسان بالكرم إلا إذا وجد أثر الكرم، فيكرمنا ثم نصفهُ بالكريم، فإذًا صفات كمالنا مربوطةٌ بآثارها، فتوجد الآثر ثم يوجد الوصف، لكن الله لا، هو الكريم قبل أن يوجد من يكرمه، وهو الغفور قبل أن يوجد من يغفر له، وهو التواب قبل أن يوجد من يتوب عليه، وهو الجبار، القوي، القهار، الحكيم، وهكذا يا جماعة، فإذًا لا تعلق لوصف الله

بآثارها، فهو موصوف بصفات الكمال، ومنعوت بنعوت الجمال، والجلال، والكبرياء، والعظمة قبل وجود آثارها، فهمتم؟ لكن أنت متى توصف بأنك حبيب؟ إذا وجد هذا الأثر منك، متى توصف بأنك غضوب؟ إذا أكثرت الغضب، إذًا، صفاتنا مرتبطة بآثارها والله-عزَّ وجل- لا تربط صفاته بآثارها، الله يستحق الاتصاف بها قبل وجود آثارها.

16. أهل السنة يثبتون صفات الكمال على وجه التفصيل، وينفون صفات النقص على وجه الإجمال.

أهل السنة يثبتون لله -عزَّ وجل- صفات الكمال على وجه التفصيل، وينفون صفات النقص على وجه الإجمال، ما رأيكم في إنسان دخل على ملك من ملوك الدنيا؛ فقال له: أيها الملك الهمام، أنت ملك قويٌ، حكيمٌ، جبارٌ، قديرٌ، بطلٌ، همامٌ، شجاعٌ، طويلٌ، جسيمٌ، مهيبٌ، جميلٌ ،كم من صفة؟ لكن كلها كمال، هو فصّل في صفات الكمال، هل سيمل الملك من سماع هذه الصفات؟ بل إن المبلغ الذي سيكتب في الشيك يختلف ضخامةً على حسب الصفات، أنفق ننفق عليك، إذًا الكمال في صفات الإثبات أن تفصل ولا تجمل، هكذا جرى القرآن في آيات كثيرة.

اسمع إلى قول الله-عزَّ وجل- في آخر سورة الحشر لما كان المجال مجال إثبات عدد: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾[الحشر:22-24].

لماذا فصل هنا؟ لأن المقام مقام إثبات صفات كمال، والمشروع في صفات الكمال إثباتها على وجه التفصيل، ولذلك أكثر آيات القرآن مختومة باسمين من أسماء الله وهو: الغفور الرحيم، العزيز الحكيم، السميع البصير، العلي العظيم، أليس كذلك؟ فإذًا ما دمت في مجال إثبات صفات الكمال ففصل، وكلما فصلت لا يمل من سماع هذا التفصيل، لكن إذا جاء في صفات النقص وتريد نفيها،

إياك أن تفصل في النفي، ترى قله أدب في التفصيل بالنفي، مثلًا ما رأيكم في ذلك الشاعر؟ بعد أن أعطاه الملك شيگا جميلاً قال: لا واصبر بعد شوي أيها الملك، أنت لست بجبان، ولست بضعيف، ولا بخواف، ولست بزبال، ولست ببقال، ولست بزانٍ، ولا بلوطي، ولست، ولست، ولست، هو صادق في هذا النفي، أم لا؟ يا أخي ما ذا سيقول الملك؟.

فإذًا لا، أيهما أحسن؟ هذا التفصيل، أم أن يقول: يا أيها الملك، أنت ملك لا يساميك أحد من ملوك الدنيا، ويسكت، أيهما أضخم في التعظيم، الإجمال أم التفصيل؟ إذًا جادة الأدب في إثبات صفات الكمال أن تفصل، وجادة الأدب في نفي صفات النقص أن تجمل، فإذا كان هذا هو الأدب مع المخلوق فكيف مع ملك الملوك-عزَّ وجل-؟ ولذلك القرآن والسنة جاءا بإثبات مفصل، ونفي مجمل، مثلنا على الإثبات المفصل، النفي المجمل: لم يكن له كفواً أحد، (هل تعلم له سميا), (ليس كمثله شيء)، (فلا تجعلوا لله أندادًا)، (ولا تشرك بالله شيئًا) باب النفي يجمل ولا يفصّل، ما قال: لا تشركوا به ملائكةً، ولا أنبياء، ولا رسلًا، ولا كهوفًا، ولا مغاراتٍ، ولا بقرة، لا تشركوا به شيئًا، ليس كمثله شيء، لم يقل: ليست الملائكة كمثله، ليست الأنبياء كمثله، ليست الأولياء كمثله، ليس كمثله شيء، وانتهينا.

فإذًا، هذا هو جادة الأدب مع الله -عزَّ وجل- في باب الإجمال، إلا أن العلماء قالوا: إن هذه القاعدة ليست قاعدة كلية، بل قاعدة أغلبية، بمعنى أننا نجد أحيانا قليلة في الأدلة إثبات مجملاً، ونفياً مفصلاً.

الإثبات المجمل كقول الله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف:180]، فهذا إثبات كمال، ومع ذلك أجمل ولم يفصل، والنفي المفصل كقوله:﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[الجن:3]، وقال الله -عز وجل-:﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾[الإسراء:111]، لكن الأغلب أنه في نفى النقص يجمل، والأغلب أنه في إثبات الكمال يفصل، فهي قاعدةٌ أغلبيةٌ.

17. أهل السنة وسطٌ في باب الأسماء والصفات بين الممثلة والمعطلة.

وهذه قاعدة متفرعة عن قاعدة الوسطية في قول الله -عز وجل-:﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[البقرة:143]،فأهل السنة والجماعة وسطًا بين فرق الأمة كوسطية الأمة بين الأمم، فكما أن الأمة الإسلامية وسط بين الأمة المغضوب عليها، وهى اليهود، والأمة الضالة، وهي النصارى، فكذلك فرق الأمة انقسمت إلى ثلاث طوائف:

طائفةٌ أفرطت، وطائفةٌ فرطت، وطائفةٌ توسطت، والمتوسطون في كل أبواب الاعتقاد إنما هم أهل السنة والجماعة، رحم الله أمواتهم، وثبت أحياءهم، وحشرنا يوم القيامة معهم.

باب الأسماء والصفات انقسم أهل القبلة فيه إلى ثلاثة أقسام: إلى طرفين، وإلى وسط، في كل الأبواب العقدية، وللعبد الضعيف رسالة اسمها (رسالة بين الوسطية للسنة في أبواب الاعتقاد)، لعلكم تراجعونها.

من هذه القاعدة: الطائفة الأولى طائفة الممثلة، وقالوا في باب الأسماء والصفات قولاً هو حق في بعضه، وباطل في بعضه، قال الممثلة: نحن نثبت لله الأسماء والصفات، يا الله! ما أجمل هذا القول! يا ليتهم اقتصروا عليه؛ لأنه حق، ولكنهم أفسدوا هذا الحق بباطل أعقبوه به، فقالوا: على وجه يماثل صفات المخلوقات، إذًا، عندهم حق وباطل، أليس كذلك؟ ما هو الحق الذي عندهم؟ إثبات الصفات، وما الباطل الذي عندهم؟ تشبيهها بصفات المخلوقات.

انتهينا من هذه الطائفة وهم الممثلة، والذين هم الرافضة في أول الأمر قبل تأثرهم بالمعتزلة، فالرافضة في أول الأمر كانوا ممثلة، ثم اختلطوا بالمعتزلة صاروا معطلة، وأول من قال: بتمثيل صفات الله بخلقه رجل خبيث يقال له (هشام ابن الحكم الرافضي)، الشاهد، قابلهم طائفة المعطلة فقالوا في باب الأسماء والصفات أيضًا قولًا فيه حقٌ، ولكن أعقبوه بباطل، فقالوا: نحن ننزه الله عن مماثلة المخلوقات، ما ذا قالوا؟ نحن ننزه الله عن مماثله المخلوقات، يا

ليتهم وقفوا عند هذا، لكان حقًا خالصًا، إلا أنهم أعقبوا هذا الحق بباطل؛ فقالوا: تنزيهًا ننفي معه الأسماء والصفات، فالحق الذي معهم هو التنزيه.

طيب، اجمعوا الحقين، وأدمجوهما، نثبت الأسماء والصفات، على وجه لا يماثل صفات المخلوقات، يعنى وننزه الله عن مماثلة المخلوقات، هذا مذهب أهل الكتاب والسنة، إذًا، مذهب أهل السنة هو الحق الذي مع كلا الطائفتين، لمَ؟ لأن أهل السنة وسط في باب الصفات كوسطية الأمة بين الأمم.

18. كل معطلٍ ممثلٍ وكل ممثلٍ معطل.

أنا أجعل هذه في قاعدتين، ندمجها في قاعدة واحدة، لكن الكلام عليها يطول، فسنجعلها رقمين:

1- كل معطلٍ ممثل.

2- وكل ممثل معطل.

إن هناك تلازمًا بين التعطيل والتمثيل، لابد من بيان حقيقته، فمن وقع في التمثيل فحقيقته وقع في التعطيل، ومن وقع في التعطيل فحقيقته وقع في التمثيل، فما العلاقة بينهما؟

قالوا: عندنا درجتان من صعد إحداها صعد الأخرى، عندنا درجة التمثيل ثم فوقها درجة التعطيل، فالمعطل لن يصل إلى درجة التعطيل إلا بعد أن صعد قدمه على درجة التمثيل، فمثّل أولًا، وعطّل ثانيا، إذ لو لم يمثل صفات الله بصفات خلقه لما عطل.

لو قلت له: لماذا عطلت الله عن صفة الرحمة؟ قال: إن المخلوق له رحمة، والاتفاق في الأسماء يستلزم الاتفاق في الصفات، فلو أثبتّ لله الرحمة لاستلزم أن تكون مثلها، مثّل أولًا، إذًا، الحلّ أنني أعطل، فإذًا كل معطل فهو ممثل؛ لأنه لم يصل إلى درجة التعطيل إلا بعد أن مثّلَ.

القاعدة التي بعدها: وكل ممثل فهو معطل.

كيف هذا؟ تمثيل المعطل عرفناه، لكن كيف تعطيل الممثل؟

إن الممثل لما مثّل صفات الله بصفات خلقه، عطّل الله عن ثلاثة أشياء، فبمجرد مقارنة صفات الله وتمثيلها بصفات خلقه، وقع في ثلاثة تعطيلات، لا تعطيل واحد، أو اثنين، بل ثلاثة.

أولًا: عطل الصفات التي تنفي مماثلة الله بخلقه إجمالاً، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:11]، الممثل عطل هذا النص العام وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:4]، الممثل عطل هذا النص العام، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[مريم:65]، الممثل عطل هذا النص العام، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾[النحل:74]، الممثل عطل هذا النص العام، أي أخرجه عن مدلوله، ولم يؤمن به، إذًا عنده تعطيل للنصوص العامة التي تنفى مماثله الله بخلقه هذا التعطيل الأول، التعطيل الثاني: أنه عطل النص المخصوص الذي يثبت هذه الصفة، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:64]، عطلها الممثل لأنه يعتقد أنها كيد المخلوق، والنص لا يدل على صفةٍ كصفة يد المخلوق، وإنما على صفة لائقة بالله-عزَّ وجل-.

إذًا الممثل عطل النص الخاص، وعطل النص التي يثبت الوجه، وعطل النص الذي يثبت السمع، وعطل النص الذي يثبت البصر.

كيف عطلها؟ لأنها نصوص جاءت بمعانٍ لائقة بالله، وهو يجعلها مشابهه للمخلوق، فإذًا لم يؤمن بمقتضاها، إذًا عطلت كل نصوص الصفات في الكتاب والسنة، يعنى عنده تعطيلان: تعطيل عام، وتعطيل خاص، أعوذ بالله! وعنده تعطيل ثالث، وهو: أن كل صفه نثبتها لله، فللّه أعلاها وكمالها.

فله البصر المطلق. فإذا قال: بصر الله كبصر المخلوق، فقد عطل الله عن كماله الواجب له، المخلوق إذا قلتها بهذه الطريقة هل بصره يخترق الحواجز؟ إذًا... وبصر الله يخترق الحواجز، بصر الله ما يحجب هذا السقف، فهو يرانا من فوق سبعة أرقعة، وحجاب الكواكب، وحجاب السقف، ومع ذلك يرانا كأن لا أسقف، ولا حواجب، ولا حواجز عن عين الله -عزَّ وجل-، ما يحتاج أنه ينظر لنا من النافذة، أو يرسل الملائكة ينظرون ما ذا نفعل تحت السقف، لا، لكن أنت عينك وبصرك محدود، بل لو أننا أطفأنا الأضواء لتعطلت صفة البصر عندك، تعطلاً

عامّاً، أما الله فيرى ويسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، فالذي يقول: إن بصر الله مثل بصري، فقد عطل بصر الله عن كماله الواجب.

طيب، وهكذا في كل الصفات، الله له القوة المطلقة، فإذا قال: قوه الله كقوتي فقد عطل الله عن قوته الواجبة، الله له القدرة المطلقة، فإذا قال: قدرة الله كقدرتي، فقد عطل قدرة الله عن كمالها الواجب، أعوذ بالله! إذًا ممثل ومعطل، من ثلاثة أوجه، عطل النصوص العامة، وعطل النصوص الخاصة، وعطل الله عن كماله الواجب، إذاً، صدق قولنا: إن كل معطلٍ فهو ممثل، وكل ممثلٍ فهو معطل، وهما قاعدتان مفيدتان لطلبة العلم.

19. صفات الله ذاتيه وفعلية، ولا يحتاج الوقوف عندها.

فما كان ملازمًا لذاته لا ينفك عنها لذلك فهو ذاتيٌّ، وما كان متعلقًا بفعله، فهو يفعله متى شاء، ويترك فعله متى شاء، فهو فعليٌّ، وهذا ليس بصفات الله، بل هو تقسيمٌ عربيٌّ حتى في صفاتك أنت، أنت عينك ذاتية؛ لأنها غير منفصلة عنك، لكن ضحكك تفعل أحيانا و تترك أحيانًا، يدك ذاتية، رجلك ذاتية، صبعك ذاتي، حياتك ذاتية، سمعك ذاتي، ما تنفك عنك، ولكن أما ضحكك، وغضبك: كراهيتك، رضاك، مقتك، ذهابك، قيامك، أكلك، شربك، صفات فعلية، تفعلها متى شئت، إذًا، حتى صفات الإنسان تنقسم إلى ذاتيه وفعلية.

فإذًا، الصفة المضافة إلى الله-عزَّ وجل- إن كانت لا تنفك عنه لا أزلاً ولا أبدًا فهي ذاتيةٌ، وإن كانت تنفك عنه أحيانًا فهي فعلية.

وهذه القاعدة يتم فهمها بالقاعدة التي بعدها.

20. صفات الأفعال تعتبر ذاتية باعتبار أصل اتصاف الله-عزَّ وجل- بها.

وهذه القاعدة خطيرة، وخطـأ الفهم فيها يوجِد مشاكل عقدية.

وقولنا: باعتبار أصل اتصاف الله بها، أي: باعتبار كمال قدرته على فعلها متى شاء، فالغضب فعلي باعتبار صدوره، لكنه ذاتي باعتبار أصل القدرة عليه متى شاء، الكلام فعلي باعتبار صدوره، أي: آحاده، لكنه ذاتي باعتبار أصل القدرة

عليه متى شاء، الكراهية فعليه باعتبار صدورها من الله -عزَّ وجل- ولكنها ذاتيةٌ، باعتبار أصل القدرة عليها.

مثال: أنا الآن غضبت، فالغضب فعلتهُ، إذًا صار صفة فعلية الآن؛ لأنني فعلت الغضب الآن، لكن إذا لم أكن غاضبًا، فالغضب ذاتي، بمعنى أنني أستطيع متى ما أردت أن أغضب، أغضب، فإذًا باعتبار قدرتي عليه ذاتي، وباعتبار وقوعه مني فعلي، الآن أنا أكلمكم بكلام تسمعونه، إذَا الكلام صفة الآن ايش؟ فعلية، لكن إذا سكت؟ أيضاً أوصف بأنني متكلم؛ لأنني قادر على الكلام متى ما شئت، فباعتبار أصل القدرة ذاتي، وباعتبار وقوع أفراده فعلي.

إذًا، الصفات الفعلية ليست فعليه مطلقًا، بل هي فعلية باعتبار وقوعها، ولكنها ذاتية باعتبار أصل القدرة عليها متى ما شاء الله-عزَّ وجل-.

بمعنى أن الله-عزَّ وجل- إذا لم يكن غاضبًا، فهل هو عاجز على أن يغضب؟ هو قادر على الغضب، لكن إذا صدر الغضب منه الآن فهو فعلي، فباعتبار قدرته ذاتي، وبوقوعه فعلي، الغضب الذي سيكون منه يوم القيامة وقع الآن؟ الجواب: لا، لكنه قادر على إيقاعه، فهو فعليٌ إذا وقع، وذاتي إذا لم يقع، ما معنى ذاتي؟ يعني: أنه قادر على أن يفعلها متى ما شاء، فإذًا الصفات الفعلية، هي فعلية باعتبار آحادها وأفرادها، أي: باعتبار وقوعها، وذاتية باعتبار أصلها، أي: باعتبار أصل القدرة عليها متى ما شاء الله-عزَّ وجل-.

الصفات الفعلية، ذاتية باعتبار صدورها، أي: باعتبار أصل القدرة، وفعلية باعتبار وقوعها، أي: باعتبار أفرادها وآحادها، وهي التي يقول فيها أهل السنة: كلام الله صفةٌ ذاتية باعتبار أصله، وفعليٌ باعتبار أفراده وآحاده.

كلها هكذا، في الغضب، في النزول: نزول الله إلى السماء الدنيا، هو ذاتي باعتبار أصل القدرة عليه متى شاء، ولكنه فعلي باعتبار وقوعه من الله -عزَّ وجل- على الوجه اللائق به.

21. من أنكر صفة من الصفات الثابتة إنكار تكذيب وجحود فهو كافر، وإن كان إنكار تأويل ففاسق.

هذا لو سألك سائل وقال: من تكلم في شيء، أو جحد شيئًا من صفات الله، أو أنكر شيئًا من صفات الله، هل يكفر أم لا يكفر؟ تقول: لا، اصبر، ننظر أولاً في إنكاره، فإن كان إنكار جحود وتكذيب للنص الذي أثبتها، فقال: الله لم يقل أصلًا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[المائدة:64]، وهي من آيات القرآن، فإنكاره إنكار جحودٍ وتكذيب لأصل النص، فهذا كافر، كفراً مخرجاً من الملة.

وإن قال: لا، أنا مؤمن بالنص، ومؤمن بقول الله -عز وجل- ولكن اليد هنا عندي هي: النعمة، والقدرة، فهذا إنكار تأويل وشبهة، فإنكار التأويل والشبهة لا يجعل أهل السنة يكفرونه حتى تكشف شبهته، فإذا انكشفت عنه الشبهة، وأصر، فحينئذ نعامله بمقتضى فعله.

فإذًا، من أنكر شيئاً من الصفات، فإن كان إنكاره إنكار جحود وتكذيب، فكافر؛ لتكذيبه للقرآن، وإن كان إنكار تأويل وشبهة، فهو فاسقٌ، يجب كشف شبهته، وكسر حجته.

22. كل ميلٍ عما يجب اعتقاده في أسماء الله وآياته فهو إلحاد.

كل ميلٍ عما يجب اعتقاده في أسماء الله وآياته فهو إلحاد، والإلحاد حرام بكل صوره، سواءً أكان في أسماء الله؛ لقول الله-عزّ وجل-: ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[الأعراف:180]، أو كان في آياته الكونية أو الشرعية؛ لقول الله –عزّ وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آَيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[فصلت:40]، فالإلحاد حرام، والإلحاد لغةً هو الميل، وأما في الاصطلاح: فهو الميل عما يجب اعتقاده في أسماء الله وآياته.

وقد بين العلماء كابن القيم وغيره، أن الإلحاد في أسماء الله إما بإنكار هذه الأسماء، فإنكارها إلحاد، أو إنكار صفاتها التي تضمنتها كما فعل المعتزلة، أيضًا إلحاد، أو إطلاقها على بعض المخلوقات، كالعزى من العزيز، واللات من الله، ومناة من المنان، لم يكتفوا بعبادتها، بل أخذوا من أسماء ربهم واشتقوا لمعبوداتهم أسماء من أسمائه، فهذا إلحاد، أو أن تسموا الله بما لم يسمِّ به نفسه، أيضًا هذا إلحاد، فالإلحاد في الأسماء إما إنكارها، أو إنكار صفاتها، أو اشتقاق

شيء منها للمعبودات من دون الله، أو تسمية الله بما لم يسمِّ به نفسه، فالنصارى ملاحدة؛ لأنهم يسمون الله بالأب، وهذا إطلاق لتسمية ليس لها دليل، والصوفية أيضًا يسمون الله -عزَّ وجل- بصاحب الفيوضات، وهذا ما عليه دليل، الفلاسفة يسمون الله بالعلة الفاعلة، أو العقل الفعال، أيضًا هذا ليس عليه دليل؛ فمن أطلق على الله اسمًا لا دليل عليه، فهو ملحد.

وأما الإلحاد في الآيات، فهناك نوعان من الآيات:

1- آيات كونية: كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر.

2- آيات شرعية وهي: القرآن.

فأما الإلحاد في الآيات الشرعية، فتحريفها وتعطيلها عن مدلولاتها الصحيحة، أو تكذيبها، وجحودها، أو الكفر بها، هذا إلحاد في الآيات الشرعية.

وأما الإلحاد في الآيات الكونية، فاعتقاد خالقٍ لها مع الله، أو اعتقاد مدبر، أو متصرف لها مع الله -عزَّ وجل-، فالإلحاد كله حرام سواءً أكان في أسماء الله، أو في آياته الكونية، أو الشرعية.

23. مذهب السلف أعلى وأحكم وأسلم.

فهو أعلم؛ لابتنائه عن الكتاب والسنة، وأحكم؛ لموافقته لمذهب السلف الصالح ومذهب الصحابة، وأسلم؛ لأن من دان به شهد لها النص بأنه من الطائفة المنصورة والفرقة الناجية.

فأهل السنة متصفون بهذه الصفات الثلاثة: أنهم سالمون من كل شبهةٍ تكدر صفو عقيدتهم، وأنهم حكماء فيما يقررون من عقائد، وأنهم أعلم أهل الطوائف؛ ولذلك من قوه علمهم وحكمتهم لم يختلفوا ولم يتفرقوا كما فعلت (الرافضة) فقد انقسمت إلى ثلاث عشر فرقه، (والمعتزلة) انقسمت إلى خمسة عشر فرقة، والجهمية انقسمت أيضًا إلى عدة فرق.

إلا أهل السنة فإنهم على مدار التاريخ ما انقسموا، بل تقرأ الكتاب لمؤلفين مختلفين في أعمارهم وعصرهم وبلادهم، وكأنها في معلومات الكتابين، وتقريرات الكتابين، وأدلة الكتابين، كتاب لمؤلفٍ واحد.

مذهب سليم وواضح لا شبهه فيه؛ لذلك يقول النبي -عليه الصلاة والسلام- كما في حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: **«ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»**[1].

24. كل من حرف شيئاً من الصفات، لزمه في تحريفه نظيرُ ما فر منه.

مثال: الأشاعرة يحرفون الرحمة، ويقولون: الله لا يوصف بالرحمة، وإنما المراد بالرحمة هو إرادة الثواب، إذًا، حرَّفوا الرحمة إلى الإرادة.

لماذا حرفتم أيها الأشاعرة الرحمة؟ قالوا: لأن للمخلوق رحمة.

فررتم من الرحمة التي هي للمخلوق، إلى الإرادة، ويلزمكم في تحريفها نظير ما فررتم منه، وهو أن المخلوق أيضًا له إرادة.

إذاً، فِرّوا من الإرادة إلى شيء آخر.

واعلم أنهم كلما ما فروا من شيء، لزمهم في الشيء الذي فروا إليه نفسُ المحظور الذي فروا منه، فإما أن يقفوا عند الأول، ولا يفرون ويعتقدون الاعتقاد الصحيح ويرتاحون، قلنا: والله وراءهم؛ لأنه كلما فروا إلى شيء يلزمهم نفس المعنى، يقولون: صحيح، أنا فررت من الرحمة إلى الإرادة، هذه قاعدة عند أبى العباس كبرى في الردود.

أن كل من حرف شيئاً من نصوص الصفات إلى معنى آخر، فرارًا من محظور قام في ذهنه، فاعلم أن نفس المحظور سيأتي معه.

---

[1] أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب شرح السنة، (198/4) برقم (4597)، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (1322/2) برقم (3993).

المبتدع يقول للمحظور: يا أخي، أنت من يلاحقني في الأول، وتلاحقني في الثاني، نقول له: فأنت من معه؛ لأنك أنت فررت من شيء ووقعت في نظيره.

25. كل ما يفرضه العقل على صفات الله من اللوازم الباطلة، فمن قذارة التمثيل.

اعلموا وفقكم الله أن أعظم قذارة يزرعها الشيطان في عقلك وقلبك، هي قذارة التمثيل، أقسم بالله أنه ما وقع الشرك في العالم إلا بسبب هذه القذارة، لماذا عُبد عيسى من دون الله؟ لأنهم مثّلوا عيسى بالله، فلمّا وقعوا في التمثيل وقعوا في الشرك، لماذا عُبد القمر من دون الله؟ لأنهم ظنوا أنه ينفع ويضر، فإذاً، هذه من خصائص الله، فلما شبهوا ومثلوه بالله عبدوه؛ لو أن عقولهم سلمت من هذه القذارة، لما وقع الشرك في بني آدم أبدًا، إذًا احفظ عقلك وقلبك أيها المسلم من هذه القذارة الإبليسية الملعونة، إذا كنت تريد أن تبقى عقيدتك سليمة.

لذلك الشرك قادر على قذارة التمثيل إما تمثيل الخالق بالمخلوق أو تمثيل المخلوق بالخالق، لما وقع التمثيل بين الخالق والمخلوق، وانزرعت هذه القذارة الملعونة الإبليسية في قلوب وعقول كثير من الناس، وقعوا في هذا الخلل العقدي كذلك صفات الله -عزَّ وجل- أن بعض العقول لوجود هذه القذارة فيها، لا يكون إيمانها ببعض الصفات إيماناً صحيحاً؛ لوجود بعض اللوازم في عقله، هذه اللوازم ما الذي وراءها؟ تلك القذارة لو كان عقلك سالمًا من هذه القذارة لمرت الصفة على عقلك مرور الكرام، ما أوقفها عقلك، ولا لزم عليها شيء من اللوازم، لكن المشكلة أن هذه الصفة وافقت قذارة في نبتات قذرة عندك من التمثيل.

لو أنك آمنت باستواء لائق بالله، لما لزم عليك أي لازم، لكن لما قلت: استواؤه كاستواء المخلوق، لزمت عليك اللوازم الباطلة، إذاً، لو كنت مؤمنًا بعلو الله، لما لزمت عليك اللوازم، لكن لما جعلت علوه كعلو المخلوق، لزمت عليك اللوازم، وإذا قلت: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر نزولاً ليس كنزول المخلوق، ما يلزم عليك أي لازم، لكن إذا قلت: نزل الله في السماء،

وكان في ثلث الليل الآخر هنا أنت فكرت أن نزوله كنز ول المخلوق، فلزمت عليك اللوازم.

فمتى ما وقف ذهنك عندما لازم الباطل في شيء مَّا، سمعته من نصوص الصفات، فاعرف أن ثمة قذارة هي التي أفرزت هذا اللازم، وهي قذارة التمثيل، مثل قول النبي -عليه الصلاة والسلام- كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«فإن الله خلق آدم على صورته»** (1). من الناس من يقف عند هذا النص ويحاول أن يضعّفه، لما ذا؟ لأنه جعل الصورة المضافة إلى الله كالصورة المضافة إلى آدم فلما حصل التمثيل حصلت اللوازم الباطلة، مع أن الله موصوف بصورة بالإجماع، "فيأتيهم الرحمن في صورته التي يعرفونها".

فالشاهد أن أي لازم باطل يفرضه الشيطان في ذهنك، اعرف أن وراءه هذه القذارة، ولذلك أعظم ما نحمي منه عقولنا، ألا نسمح للشيطان أن يزرع في قلوبنا هذه النبتة الخبيثة الملعونة القذرة المسماة بالتمثيل، والله إذا قابلت الله -عزَّ وجل- يوم القيامة وعقلك وقلبك سليم؛ فلك الجنة بإذن الله، أهل النار هم أهل القذارة، وأهل الوثنية والشرك، لم يقعوا في الشرك ولم يقعوا في الوثنية إلا بسبب هذه القذارة، حاول أن تحمي قلبك، وتعصمه منها، فهي قذارة لا بد من تجاهلها وإذا تجاهلتها زالت.

26. أفعال الرب صادرة عن أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

اعلموا أن صفة الكمال والحسن لا يتصف بها المخلوق إلا بعد أن يفعل الحسن، فوصف الكمال مربوط بفعل الحسن، أليس كذلك؟ فأكرِم فعلاً حتى تسمى أو توصف بالكريم، وكن عزيزاً فعلاً حتى توصف بالعزيز، وكن باذلاً فعلا حتى توصف بأنك باذل.

فإذًا صفات كمالنا مرهونة بتقدم الأفعال، لكن الله -عز وجل- كمل ففعل، فأفعاله بعد كماله، أفعال الله بعد كماله، المخلوق فعل فكمل، فإذًا أفعال الله -عزَّ وجل-

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في مسند المكثرين من الصحابة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، (45/14) برقم (8291).

نابعة من كمال سابق، لا من كمال لاحق، والمخلوق أفعاله نابعة من كمال سيأتي فيما بعد، هو يذبح الذبائح الكثيرة، وينفق الأموال الطويلة حتى يقال له: كريم، إذًا، ما استحق هذا الكمال إلا بعد الفعل؟ فعل فكمل، لكن الله كمل ففعل، وهذه من قواعد ابن القيم رحمه الله، فانتبهوا إلى الفرق هنا.

27. أسماء الله الحسنى وصفاته العلى من مقتضيات الإيمان بربوبيته.

ولذلك يستدل الله -عزَّ وجل- في القرآن كثيرًا على ربوبيته بصفات كماله ، فاستدل على ربوبيته بأنه القوي، واستدل على وحدانيته في ربوبيته بأنه الضار النافع، واستدل عليها بقدرته، واستدل عليها بعلوه، واستدل بكلامه وسمعه وبصره، إذًا يستدل على ربوبيته بأسمائه وصفاته، فمن صار عنده خلل في قضية الأسماء والصفات؛ فسيؤدى به ذلك، إلى الخلل في الإيمان بربوبية الله-عزَّ وجل-.

لذلك فتوحيد الأسماء والصفات والربوبية متلازمان، قال ابن تيميه: التوحيد ينقسم إلى توحيد معرفة وإثبات: وهو الربوبية والأسماء والصفات، وتوحيد قصد وطلب، وهو توحيد الألوهية.

فجعله قسمين: الربوبية والأسماء والصفات قسم واحد، وهو: توحيد المعرفة والإثبات، فمن عطل الربوبية، فقد عطل الأسماء والصفات، ومن عطل الأسماء والصفات، فقد عطل الربوبية.

28. سلب كمالات الأسماء والصفات عن المعبودات دليل على بطلان عبوديتها.

فكما أن الله –عز وجل- استدل على كماله في وحدانيته بربوبيته بأسمائه وصفاته، أيضًا استدل على بطلان المعبودات الأخرى، بسلب هذه الأسماء والصفات، يقول الله -عز وجل- عن إبراهيم: ﴿يَا أَبَتِ لِمَا تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾[مريم:42]، إذًا، الله يسمع، ومن مقتضيات ربوبيته إثبات سمعه، ومن مقتضيات بطلان عبادة غيره سلب سمعه، إذًا صفات الكمال دليل على وحدانية الله في ربوبيته، وسلب صفات الكمال عن المعبودات دليل على بطلان عبادتها.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[سبأ:22]، نفى عنهم صفة الملك وهو مقتضيات الربوبية، قال الله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[فاطر:13]،

وقال: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[فاطر:14]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا﴾[الحج:73]، إذاً، نفى عنهم صفة الخلق ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون﴾.

إذًا إثبات صفات الكمال دليل على وحدانية الله في ربوبيته، وسلب كمالات الصفات عن المعبودات دليل على بطلانها.

29. إشارة التمثيل عند ذكر شيء من صفات الله محرمة، وإشارة إثبات الحقيقة جائزة.

نحن نرى أن من الشارحين من إذا حكى شيئًا من صفات الله يشير بما يخصه هو من الصفات.

مثلًا: يقول: (إن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الله) فيحكي صفة الله، ويشير إلى ما يخص صفته، فهل هذه الإشارة جائزة أو ليست جائزة؟ أو يقول: (ينزل ربنا) فيحكي شيئاً من صفات الله، ويشير بما يخص صفاته.

أو إذا قال: إننا نثبت لله العين والسمع، ونثبت لله الكلام، فهل يجوز أن تشير بما يخص صفتك عند شيء مما يخص صفات الله؟

الجواب: لا تقل: لا يجوز مطلقًا، ولا تقل: يجوز مطلقًا، إنما الأمر على التفصيل في قصدك بهذه الإشارة، فإن كنت تقصد بها مماثلة الصفة بالصفة، بمعنى أن الإصبع الذي حكيته لكم عن الله، هو عين هذا الإصبع الذي هذا إشارته، العين الذي حكيتها لكم هي نفس العين، فإذًا إشارة التمثيل عند ذكر شيء من صفات الله محرمة، لمَ؟ لأن الله يقول: ﴿لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ﴾[الشورى:11]، والآيات كثيرة.

لكن إذا كان لا يقصد التمثيل، وإنما كان يقصد إرادة إثبات الحقيقة، بمعنى أنه كما أن هذه الإصبع حقيقية للمخلوق، فأنا أريد حقيقة أصابع الله اللائقة به، هذا به قطع لدابر التمثيل والتحريف، ونقل الكلام عن حقيقته، فهذا جائز، فإذا كان يريد إثبات المماثلة فمحرم، وإذا كان يريد نفى التحريف وإثبات الحقيقة؛ فجائز.

ودليلها أمران:

الدليل الأول: في صحيح مسلم من حديث ابن عمر-رضي الله عنهما- قال: رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- على المنبر يخطب فقال: **«إن الله -تبارك وتعالى- يوم القيامة يطوي السماوات فيأخذهن بيمينه، ثم يطوي الأراضي ويأخذهن بيده الأخرى ويهزهن ويقول: أنا الملك، أين الجبارون المتكبرون؟ يقول ابن عمر: فرأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- يهز يديه على المنبر، ويتحرك أصله، حتى إني أقول: أساقط هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟»**[1].

إذًا، هل هز النبي يديه لإثبات التمثيل والمماثلة، أو لإرادة الحقيقة؟ يعني يا أيها المحرف: لا تتدخل، يا أيها المعطل: لا تتدخل، أنا أريد حقيقة الهز، لا مماثله الهز، في السنن لما نزل قول الله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[النساء:58].

يقول الراوي: فوضع النبي -صلى الله عليه وسلم- سبابته على عينه، وإبهامه على أذنه، هل يقصد أن البصر كالبصر مثلًا؟ هل يقصد إشارة التمثيل أم إشارة إثبات الحقيقة؟ إذًا، احفظوا هذه القاعدة: إشارة التمثيل محرمة، وإشارة إثبات الحقيقة جائزة.

30. كل تحريف يحرفه أهل البدع، فإنك تجيب عنه بثلاث أجوبة.

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب (126/8) برقم (7228).

هذه الأجوبة لا تختلف في أي تحريف، الذين حرفوا العين، أجبهم بهذه الأجوبة، والذين حرفوا النفس، أجبهم بهذه الأجوبة ، والذين حرفوا اليد، أجبهم بهذه الأجوبة، لا تختلف هذه الأجوبة، وفي بعض الصفات تزيد إلى عشرة أجوبة.

1- أن تحريفك هذا خلاف فهم السلف.

2- أنه خلاف اللغة.

3- أنه ليس عليه دليل.

يقول الناظم:

وكل ما حرفه أهل البدع...يجاب عنه بالجواب المتبع

خلاف فهم السابقين واللغه...ولا دليل، قل: فمن ذا سوغه؟

أي: من الذي أجاز لك أن تحرف، وهو على خلاف فهم السلف، وخلاف اللغة، وليس عليه دليل؟

قال الأشعري: بل يداه مبسوطتان. وقال: المراد بها النعمة والقدرة.

فتقول: تحريفك هذا على خلاف فهم السلف، واللغة، وليس عليه دليل.

قال الأشعري: إن النزول نزول أمر. فتقول: تحريفك هذا على خلاف فهم السلف، واللغة، وليس عليه دليل.

أسأل الله أن يشرح صدري وصدوركم، وأن يوفقنا وإياكم، وأن يرفع نزلنا جميعًا، وأن يجزيكم عني وعن المسلمين خير جزاء على صبركم وتحملكم وطول كتابتكم وجلوسكم، وأسأل الله أن لا يحرمكم الأجر، واسأل الله أن يعلمني و إياكم ما ينفعنا وأن ينفعنا ما علمنا، وأن يجعلنا هداة مهتدين يا رب، لا ضالين ولا مضلين، ولا رؤساء في الفساد، ولا تجعلنا رؤوساً في إفساد عقيدة الناس يا رب العالمين، هذه القواعد تبين لنا طريقة التأصيل والتقعيد، فيجب مراجعتها وتعليمها الآخرين، غفر الله لكم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.